المؤسسة العربية للدراسات والنشر

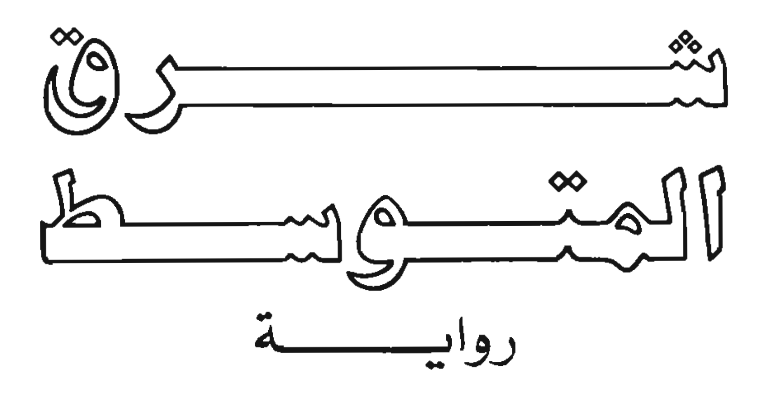
عبد الرحمن منيف

شرق المتوسط

رواية

الطبعة الأولى- بيروت ١٩٧٥
الطبعة الثانية- بغداد ١٩٧٧
الطبعة الثالثة- بيروت ١٩٧٩
الطبعة الرابعة- بيروت ١٩٨١
الطبعة الخامسة بغداد ١٩٨٣
الطبعة السادسة بغداد ١٩٨٦

عبد الرحمن منيف



شرق المتوسط

رواية



المكتبة العالمية
بغداد - شارع السعدون
هاتف ٨٨٨٩٣٥٢

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

مقدمة

المادة الأولى: يولد جميع الناس احراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الاخاء.

المادة الثانية: لكل انسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الاعلان، دون أي تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة او الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر...

المادة الثالثة: لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة الخامسة: لا يعرض اي انسان للتعذيب أو للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطّة بالكرامة.

المادة العاشرة: لكل انسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً...

المادة الثانية عشرة: لا يعرض احد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه أو سمعته...

المادة الرابعة عشرة: (١) لكل فرد الحق في أن يلجأ الى بلاد اخرى أو يحاول الالتجاء اليها هرباً من الاضطهاد.

الاعلان العالمي لحقوق الانسان

لتلمس جفوني كل هذه... حتى تعرفها
حتى تتجرح
وليحتفظ دمي بنكهة الظل الذي
لا يستطيع السماح بالنسيان

«نيرودا»

١

. . . أشيلوس تهتز، تترجرج، تبتعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبوح، والميناء عند الغروب، يستقبل الأضواء الرخوة: يعلكها بسأم ثم يتركها فتسقط، ترتجف فوق الماء، ثم تذوب. وضجة البشر في تلك الساعة المليئة باللاجدوى، أشبه ما تكون بأصوات لجراء مخنوقة، أما الأيدي بحركتها البلهاء، فقد بدت كالخرق البالية تهزها ريح لا ترى، والوجوه، آه لشد ما كانت تعاسة الوجوه: عيون صماء، ثقيلة، أفواه مطاطية تشبه فروج الحيوانات بحركتها المتشنجة. . . وأشيلوس المجدولة من العبث والدوي تزحف. . . تبتعد. .

ميناء الشقاء ويا ليته ميناء اللاعودة، آخر قطعة من الوطن، وآخر أوراق خضراء وأنين!

ثلاثون سنة، ثلاثون صيفاً وخريفاً. . . ثلاثون ربيعاً. . أما الشتاء فقد جاء الآن، جاء في الثلاثين.

كان يوم الأربعاء ١٧ تشرين الأول

أول غيوم تمر فوق السجن، كانت هشة صغيرة، تشبه الغبار. ومع مرور الدقائق تتمزق وتتلاشى، وكان في داخلي شيء يتمزق.

لماذا انفجر في داخلي ذاك العواء الأجرب؟ لماذا؟ لماذا؟.

قلت لنفسي، بلغة فلسفية مدنسة:

على الأرض حيوان، له قامة طويلة، وأذرع قريبة الشبه بأذرع الشيمبانزي، أما الساقان فضامرتان وفي نهايتها أقدام عريضة، أما في القمة فكتلة صلبة مغطاة بالشعر، وفيها ثقوب عديدة، في المقدمة وعلى الجانبين. وهذا، الحيوان يستخدم

الثقب الامامي، وخاصة العريض في أسفل الكتلة الصلبة، في القرض والغناء والصفير، وأيام الشتاء يستخدمه للتنفس، أما أيام الرعب فإنه يستعمله لغرض واحد فقط، وهذا الغرض لم يعرف له بعد اسم محدد، قال بعضهم للدفاع عن النفس، وقال آخرون للقتل، أما الكثرة الغالبة، فتؤكد أن الاستعمال الوحيد لهذا الثقب في زمن الرعب، يكون للقتل أو للانتحار!

هناك اعتقاد واسع ان هذا الحيوان سينقرض خلال فترة قصيرة، وفي حال انقراضه ستحتفل الحياة، لأن ذهاب هذا الحيوان بداية السعادة الحقيقية على الأرض!.

متى نشأ هذا الحيوان؟ كيف نشأ؟ لا أحد يعرف. أفاقت الحيوانات... ذات يوم، فإذا بها تجد نفسها أمام شيء جديد، لم تألفه من قبل. وقد حاولت كثيراً أن تقيم صلات عاقلة مع هذا الحيوان. وافق في البداية، لكن مع الايام، أخذ يوقع بينها ويقتلها، وقد تسبب في انقراض اعداد كبيرة من الحيوانات الرائعة التي كانت تعيش على الأرض، ولما تكشفت نوايا هذا الحيوان الجديد، ابتعد عنه الجميع، ذهبوا بعيداً وتركوا له كل شيء، لكنه لم يكتف، بدأ يحاصر الحيوانات ويقتلها في كل مكان، ولما لم يجد شيئاً يقتله اخذ يقتل بعضه. وهكذا بدأت المجازر، بدأت منذ آلاف السنين ولم تتوقف. ولذلك يعتقد ان انقراض هذا الحيوان، أصبح وشيكاً، خاصة وان الطرق التي يتبعها في القتل الآن تطورت كثيراً، وأصبحت فعالة بحيث لا تخطىء أبداً!

تبرير فلسفي أبله، سأشد السيفون في المرحاض واترك كل شيء ينسحب الى تحت: افكاري الفلسفية، احلامي، ماضيَّ، اسمي، كل شيء، نعم كل شيء.. يكفي ما احمله في دمي من آثار، الذرات الصغيرة التي تسري في الدم لا يمكن ان تغادرني أبداً، من قال لي هذا؟ طبيب السجن؟ ورقة التحليل؟ لم أعد أصدق، البحر مقبرة كبيرة، وأسعد الناس من يجد له قبراً في بطن حوت، هناك الدفء، السوائل اللزجة، والمساحة الرحبة المساعدة على الحركة، ... كانت الأرض صغيرة، رطبة، لها رائحة المراحيض دائماً، ولا تعرف لون الشمس والاشجار...

تقرير الطبيب واضح: قال لي وهو يثبت نظارته بيده اليسرى، ثم ينزل اليد الى فكه لكي يرسم ابتسامة شجاعة:

«الحالة... ببساطة: روماتيزم في الدم. النسبة حتى الآن لا تهدد الحياة. لكن العناية القصوى ضرورية».

وقبل أن أغادر العيادة كتب لي وصفة واوصاني باهتمام أن أكف عن اشياء كثيرة: القلق، التعب والانفعالات الحادة!.

أما قائمة الطعام التي اقترحها، فقد امتلأت اصراراً قبل أن أغادر العيادة على مخالفتها، قلت لنفسي: «هذه القائمة لحيوان مدلل، لعصفور من عصافير رمزي، اما القائمة التي تتفق مع مزاجي فتختلف كثيراً... وسوف أطبقها بدقة!».

يوم الأربعاء ١٧ تشرين الأول، كنت احزم اغراضي في الحقيبة البنيَّة، وأغادر السجن.

يوم الثلاثاء ١٦ تشرين الأول، الساعة السادسة مساء انتهى كل شيء. كانوا أربعة في غرفة مدير السجن، كنت أعرف اثنين منهم فقط، اما الاثنان الآخران فكنت أراهما لأول مرة، قال لي الآغا:

ـ جاءت الموافقة على اطلاق سراحك، وغداً قبل الظهر ستكون حراً... لم أفاجأ، لقد قدمت الثمن الذي طلبوه كاملاً، ولم يبق إلا أن أغادر السجن. لم أقل شيئاً. ظللت انظر الى الأرض. أحسست أن عيونهم تتابع حركاتي. كان جو الغرفة ثقيلاً برائحة الدخان والأحاديث السابقة ودقات ساعة الحائط. رفعت رأسي لأنظر الى الآغا، كانت على شفته ابتسامة صغيرة. لما التقت نظراتنا، قال:

ـ كان يجب أن تفعل هذا قبل أربع أو خمس سنين.. تأخرت كثيراً، دفعت ثمن ذلك من صحتك.

ظللت صامتاً، كنت أحس نفسي عارياً، والآغا يطفىء سجائر على جسدي... احسست أنه يطفىء واحدة تحت أبطي.. واحدةً بين اليتّي. واحدة في ذقني. دقت الساعة الخامسة والنصف. نظرت الى الساعة حين دقت. قال احد الرجلين اللذين لا أعرفهما:

ـ نحن آسفون، لم نكن نريدك أن تبقى هنا طوال هذه المدة، لكن عنادك هو السبب. نظرت اليه وابتسامة تعب تطوف في رأسي ولا تظهر على شفتي، ولم أقل شيئاً. كان صوت الرجل الغريب، الثاني، وهو يتحدث اليَّ صلباً، يشبه صوت مذيع ينقل احتفالاً، قال دون أن ينظر:

- الآن. . . نريد أن نبدأ بداية جديدة، عفا الله عما مضى، لا أحقاد ولا عداوات ، ماذا تقول؟.

هذا السؤال أعرفه، لم يوجه إليَّ من قبل، لكنه بدا لي مألوفاً حتى لكأني سمعته مرات كثيرة.

اجبت بصوت بدا متلجلجاً:

- أريد أن أذهب للعلاج.

- سنسمح لك، لكن ما رأيك في أن تبعث لنا بأخبار الطلبة؟.

- لا أستطيع، صحتي لا تساعدني.

- قدر ما تساعدك صحتك. . تقرير كل أسبوع، كل اسبوعين.

- لا أستطيع. . . لا أستطيع. .

قال الآغا وقد آلمته طريقتي في الرفض:

- لا تكن عنيداً فتخسر كل شيء. . الدنيا والآخرة.

قلت لهم بلهجة حزينة:

- هل أستطيع ان أجلس؟.

وجاءتني الأصوات، صوتان ثلاثة أصوات، معاً، تطلب اليّ بإلحاح أن اجلس، قال الآغا وهو يتصنع المرح ويضحك:

- الواحد منا لا يزال يتصورك سجيناً. . اجلس يا أخي، تفضل.

وقام من وراء مكتبه، قدم لي سيجارة وأشعلها، وكتعبير اخير عن المودة ضرب كتفي بصداقة!

قبل السادسة بقليل، ومع رشفات الشاي المعطر والدخان، اصبح الموقف شديد الوضوح. قال الرجل الغريب الذي يشبه صوته رنين النقود، يلخص الاتفاق:

- غدا قبل الظهر تخرج، وبعد ان تستريح يوماً أو يومين تبدأ معاملة السفر، خلال الشهر الأول لا نريد منك شيئاً، وحتى في الشهر الثاني، وبعدها سترجع وتجد

الوظيفة امامك، وإن شاء الله يكون تعاوننا مثمراً ولصالح الوطن. . . المهم ان ترجع بسرعة. . اتفقنا؟

- سنرى!.

ودقت السادسة ، الآغا نظر الى ساعته ثم الى ساعة الجدار، ضرب الطاولة اشارة الى ان المقابلة انتهت، وقبل ان استدير، وأهز رأسي، كان الباب خلفي قد انفتح. قال الآغا يخاطب الحاجب:

- قل لآمر الحرس ان الاستاذ سينتقل الى مكان آخر.

الأربعاء ١٧ تشرين الاول، الساعة الحادية عشرة، الشمس في الساحة دافئة، الحقيبة تقف على حرفها بانتظار توقيع الأوراق، مر الآغا، ولما رآني مستعداً، وقد ارتديت ملابسي بما فيها الرباط الأحمر، غمز بعينه وهو يبتسم، وتابع طريقه دون أن يقول كلمة!

قبل الثانية عشرة كنت أطرق باب البيت. . طرقته طرقة خفيفة ثم دفعته ودخلت وجدت اختي تنشر فراشاً مبلولاً، والى جانبها امرأة عجوز لا أعرفها. ولما رأتني انيسة انفتح فمها من الدهشة والفرح. هجمت عليّ وبدأت تقبلني وتبكي، ثم ابتعدت عني خطوة صغيرة واخذت تتأملني، الدموع تتساقط من عينيها بغزارة، كانت دموعاً حزينةً وفرحة، وظلت تنظر إليّ!

رفعت يدي الى عيني وضغطت دمعة انزلقت دون أن أستطيع اخفاءها. التفت إلى المرأة العجوز وقلت بألفة متروية:

- مرحباً. . عمة. . !

وقبل أن تجيب سألتها:

- كيف الحال. . عمة. . !

هجمت انيسة عليّ مرة ثانية، وكأنها اكتشفتني من جديد، وهذه المرة من صوتي. احتضنتها وقبلتها على خديها ورأسها. ودون أن أنظر اليها مباشرة قلت بصوت أردت ان يكون متماسكاً:

- أريد أن أنام يا أنيسة، أنا متعب، متعب جداً.

ومرة أخرى تراجعت لتتطلع إليّ. كان في عينيها تساؤل ودموع. قالت وهي تلتقط الحقيبة وتشير إليّ أن أتبعها:

ـ تأكل ثم تنام.

ـ انيسة... لست جائعاً، أريد أن أنام!

بعد خطوتين التفتت، ظلت تسير وهي تنظر اليَّ. كانت تخاف أن لا أتبعها، وتراءت لي ضحكة صغيرة تغزو ملامحها. شعرت وأنا أرى الضحكة نهاية كل شيء. كدت أتوقف. كدت أصرخ. ضربت الأرض بقدمي، مثل عادتي قبل خمس سنين حين كنت ادخل الدار. تطلعت انيسة إليَّ بلهفة وهي تتذكر. اتسعت ضحكتها، لما اصبحنا على باب الدهليز قالت:

ـ غرفتك نظيفة وجاهزة!

ـ لا أريد أحداً.. لا أقارب.. لا جيران.. اتركيني فقط لأنام!

لم أنم رغم كل ما فعلته أنيسة. احضرت لي بيجامة حامد، احضرت لي ملابس داخلية نظيفة، وضعت علبة سجائر ومنفضة الى جانب السرير، انزلت الستارة وابتسمت وهي تغادر الغرفة، قالت بعد لحظة، وهي تفتح الباب مرة اخرى:

ـ سأتركك تنام حتى الغروب.

ـ حتى الغروب؟

ـ الا يكفي؟.

ـ لا أعرف، سأنهض وحدي!

الفراش لامع، نظيف. نحيت الوسادة ووضعت رأسي على طرف الفراش. تقلبت. نظرت الى الجدران.. توقفت عيناي على صورة الشهادة، كانت في زاويتها اليسرى صورتي، نهضت على رؤوس اصابعي، صعدت فوق المقعد ونظرت طويلاً الى الصورة، «ليس بيننا أي شبه»، ذهبت الى المرآة وتطلعت الى وجهي: شعرات بيضاء في الفودين وفي منتصف الرأس، صفرة خفيفة في العينين، تجاعيد... «لمن هذا الوجه؟» وعدت أتطلع إلى الصورة في زاوية الشهادة، قلت في نفسي: «ان أحد هذين مات».

رجعت لأنام. . كانت رائحة الفراش لذيذة أول الأمر، غطيت وجهي وأغمضت عيني وتنفست. لا يمكن أن يكون هذا الفراش لي، مات صاحب هذ الفراش. تغيرت الرائحة، انها الآن رائحة اليود، رائحة المستشفيات، لا أطيق أن أبقي الغطاء فوق رأسي، عدلت الوسادة وحاولت أن أنام، ولكن الافكار بدأت تغزو رأسي بطيش:

ماذا يفعلون الآن؟ الساعة تجاوزت الواحدة. في الواحدة تبدأ القيلولة. الغداء ينتهي في الثانية عشرة والربع، لم يكن غداؤنا يحتمل اكثر من عشر دقائق. حسيب لا يتخلى عن عادته أبداً. . يجب أن ينام بعد الظهر، وعصمت ينام. . وامجد؟ وابراهيم؟ هذا اليوم لن يناموا، لن ينام احد. . لديهم قصة. . اعرف الكلمات التي سيقولونها، سمعتها مرتين من قبل، في الليل سيبكي أمجد. . بكى في المرتين السابقتين، لم يكن يتكلم، ويكره الكلمات التي يقولها ابراهيم.

عندما ينام الجميع، سيبقى أمجد مستيقظاً تحت الضوء المنسكب من السقف، في الغرفة الواطئة المسودة، وسوف يبكي، لا يرضى أن يراه احد يبكي. لما رأيته آخر مرة انتفض وجهه من الألم وتقلص، ثم استدار بسرعة، لم أر في حياتي انساناً مثل أمجد. لن يقول عني كلمة واحدة، ستضيق عيناه ويسافر بعيداً.

والآخرون سيقولون الكلمات الكبيرة إياها. لماذا أخاف الآن؟ لم أكن أشعر بالندم قبل أن أوقع، لكن ارتجفت حين سمعت صوت القلم، كانت رائحة الحبر كريهة، ونزّت يدي عرقاً. قال الآغا وهو يسحب الورقة بعد أن وقعتها:

ـ لن نقول لأحد قبل أن تخرج. . وأصحابك. . لن يتأخروا!

قلت لنفسي: هل كان نفس التوقيع الذي أوقع به دائماً؟. لم اوقع منذ وقت طويل، آخر توقيع كان قبل أربع سنين. . في ذلك الوقت قرأت كل ما كتبوه بدقة قبل أن أوقع، غضبوا، شتموني، قالوا بهزء:

ـ انظروا. . . يخاف أن يوقع على أقواله!

نظرت إليهم بحقد دون أن أقول كلمة واحدة، وبعد أن قرأت ما كتبوه بدقة، اعترضت على بعض الكلمات، نظروا إليّ بسخرية وقال احدهم:

ـ اشطب الكلمات التي لا تريدها ووقع.

شطبت جملتين ووقعت. وقبل أن أغادر الغرفة تلقيت بصقة كبيرة على وجهي، وضربة انغرست في اليتي اليسرى من عبد. . اما حاتم فقد فتح باب القبو ودفعني بقوة. . اتذكر انني كنت انظر اليه بحقد، لكن بعد ثانية كنت انظر الى ارض القبو وقد انتشرت فوقها قطرات الدم الذي سال من الجرح الذي أصابني في شفتي.

لا . . ليس ذات التوقيع. لقد كان توقيعي هذه المرة سريعاً، ونهايته طويلة مضطربة. . سحب الآغا الورقة والابتسامة تملأ وجهه. اعطاني سيجارة وقال بصوت بطيء:

ـ الله يصلحك، لو وقعت هذه الورقة لكنت قبل أربع سنين خارج السجن، لكن على الانسان أن يدفع ثمن ما يتعلم!

هززت رأسي دون أن أقول كلمة. الآغا الذي أراه الآن يختلف عن الذي عرفته طوال خمس سنين. بدا لي هذه المرة سميناً، بالكرش الصغير الذي يبرز فوق الحزام، أما يده فقد رأيتها أشد بياضاً وثقلاً. ولم الحظ خلال الفترة الماضية كلها أن له شامة في منتصف رقبته.

ماذا يقولون عني؟.

أول المساء تبدأ الحفلة، هكذا حصل في المرتين السابقتين. في المساء يهدأ السجن ويروق مزاج الآغا. . بعد القيلولة الطويلة.

آخر مرة، بعد أن وقع نجيب تلك الورقة اللعينة، جمعنا الآغا. كان يمسك بيده عصا صغيرة، ظننتها من الخشب أول الأمر، لكن عندما سقطت على الأرض سمعت رنينها، كان يجلس وراء مكتبه وفوقه تماماً الضوء المنسكب من مصباح أخضر، يجعل لون الغرفة بارداً. تأملنا طويلاً وهو يقلب عينيه بيننا، وبعد أن درس وجوهنا بإمعان، هز رأسه وقال لأمجد:

ـ اقترب يا ناعم، يا حلو، وأقرأ هذه الورقة بصوت عال!

كان أمجد يتعثر وهو يخطو نحو الورقة الممدودة، وبدأ وجهه بلون البنفسج من الحمرة والضوء الأخضر، وما كاد يقرأ الكلمات الأولى: «أنا نجيب سالم، أوقع بمنتهى الحرية والرغبة»، حتى تغير صوته، تقلص من الألم، وكاد يعيد للآغا

الورقة. ابعدها عن عينيه وهز رأسه، لكن صرخة الآغا جعلته يرتجف، صرخ الآغا وهو يقفز من وراء مكتبه:

ـ إقرأ يا كلب، إقرأ بصوت عالٍ.

تردد أمجد لحظة، كأنه يريد أن يعاند، أن يقاوم، لكن الوخزة الشديدة من عصا الآغا، انغرزت في صدره وجعلته يتابع.

ولم يكتف الآغا.. جعلنا نقرؤها واحداً بعد آخر. حتى اذا انتهينا استدار وجلس وراء الطاولة من جديد، وهو يحس بزهو لم يستطع أن يخفيه، تطلع الينا من جديد وقال بصوت بطيء ناعم:

ـ من سيوقع الآن؟.

ولما ظللنا صامتين، هز رأسه بثقة وتابع:

ـ الجميع على هذا الدرب.. اذا لم يكن اليوم فغداً، وانتم الذين ستخسرون. غداً ستوقعون وتظلون في السجن، أما الآن فالذي يوقع يخرج من مكتبي رأساً الى الشارع وأنا سأوصل ثيابه الى بيته.. هل توقعون؟ هل يوقع أحد؟.

ولم يعجبه أن نظل صامتين هكذا... ضرب بعصاه طرف الطاولة ووقف. اقترب منا، دار حولنا ثم عاد من جديد واستند بظهره الى المكتب، قال يوجه اليّ الكلام:

ـ اسمع يا أحول. والله لأرجعك...[1] أمك، ولك مرَّ عليّ مثلك، وأكبر منك، وكلهم ركعوا.. اترك يباسة الرأس ووقِّع!

لم أجب ولم أنظر اليه، التفت الى أمجد وقال:

ـ وأنت يا عود النعناع، يا حبيب امه، ألا تريد أن توقع؟ وغير لهجته: أمك فاتحة مناحة، كل يوم تأتي الى السجن وتقول: صغير، لا يفهم شيئاً، ورطه أولاد الحرام، نعم ورطوه، اتركوه بجاه النبي، الله يطول عمركم، اتركوه!.

وعاد الى لهجته الاولى: اذا وقعت، انا الذي سأذبح خروفاً لك وللدلوعة امك!.

---

(١) شتيمة نابية

وابراهيم وسامي وعزيز. . لم يترك الآغا شتيمة. قال كل الشتائم التي يعرفها. تصورته حين رأيته أول مرة قبل خمس سنين، انه لا يعرف كيف يرد التحية، بدا لي خجولاً، بصوته الناعس وعينيه اللتين لا تثبتان في مكان. . لكنه الآن يشبه سمساراً أو قواداً بصوته الذي يلعلع.

لما تعب من الشتائم أجلسنا على الأرض، وبدأ يخاطبنا بحذائه. وضع قدمه على رقبة ابراهيم من الخلف وداس بكل ثقله حتى وقف فوقه، وترك قدمه الأخرى تهتز في الهواء. أما عزيز الذي كان في بداية الصف، فقد دفعه بقوة فاصطدم بنا ثم انقلب على وجهه!

الآغا يستعد الآن. يغادر المكتب قبل الثانية، ويعود في الخامسة، وبعد الخامسة بقليل تبدأ الحفلة التي سأكون بطلها هذه المرة. سيقول لهم:

ـ قلت لكم مئة مرة ستوقعون الواحد بعد الآخر. . كم رأس بقي حتى الآن؟ دور من غداً؟ سنقرأ الفاتحة على روحك يا أمجد غداً أو بعد غد؟ وأنت يا ابراهيم؟ برهوم، عيوني يا برهوم. أمجد كن شجاعاً لكي يقيموا لك تمثالاً في الساحة الرئيسية! لكن اذا مت يا برهوم لمن ستترك الاربع بنات وأمهم؟ حرام عليك يا بطل، غيرك ارجل منك ووقع. . وانت. . الى متى؟.

كنت بنظره اكثرهم يباسة رأس، قال لي اكثر من مرة، وهو يحاول معي:

ـ وقع وسترى بعينيك. . وحتى تتأكد يمكن ان تبقى في السجن الى أن يوقعوا. اذا رأوا توقيعك لن يصمدوا طويلاً، أنا متأكد من ذلك، اسمع مني يا رجب، أنا أنصحك كأخ، تحملت كثيراً، أترك غيرك يتحمل. لا تكن مجنوناً.

السقف يدور. . لم تعد هذه الغرفة غرفتي، والسرير لم أره من قبل، لم انم عليه. كل شيء تغير. . لا، أنا الذي تغيرت.

أمس في مثل هذا الوقت كنت انساناً آخر، حتى السادسة كنت قوياً. . لا، قبل السادسة بدقائق. . كنت أنظر الى الساعة أريدها ان تكون الشاهد الوحيد على النهاية. رغم كلماتهم الحلوة كانوا اعدائي. . . الاربعة كانوا اعدائي. كانت الساعة هي المخلوق الوحيد المحايد. . . قبل السادسة بأربع دقائق. . خمس دقائق. . امس في مثل هذا الوقت كنت قوياً. . صحيح اني قلت لهم شيئاً قبل بضعة أيام، لكن من يستطيع ان يمنعني من التراجع؟.

تغدينا في الثانية عشرة. . جاؤوا بالغداء قبل موعده بقليل. . وضعت سيخ الكباب في رغيف وبدأت ألوكه. . كان الأكل لذيذاً. لما عدت بعد الموافقة على التوقيع، لم أستطع أن أمد يدي الى بقايا الأكل، كان الكباب بارداً لزجاً. . وكانوا قد انتهوا من الأكل. . نظروا اليّ طويلاً، وابراهيم هو الذي سأل.

- تأخرت. تأخرت كثيراً، ماذا حصل؟.

كانوا جميعاً ينظرون اليّ، كانوا ينتظرون أن أقول تلك الكلمات اللعينة. ولا أدري كيف قلت:

- مراجعة الطبيب!

- الطبيب بعد الظهر؟.

هكذا سأل عزيز وهو يبعد الصحن ويستدير نحوي. قلت بفراغ صبر:

- انهارت صحتي ولم أعد احتمل.

وصمتنا. . عادوا الى التفكير عدا أمجد، ذهب الى الصفيحة وبال. كان ينظر اليَّ بعيون مرعوبة وكأنه أحس. وعندما عجزت عن الأكل، وحملت الصحن لأضعه عند الباب، انقلب من يدي. هل كانت يدي ترتجف؟ هل فضحني وجهي؟ الآغا وهو يأخذ الورقة ويطويها، قال بصوت واضح:

-لن تبدأ الحفلة الا بعد ان تغادر السجن بست ساعات. . مثل العادة!

لم أنم طوال الليل، رأيت أمجد ثلاث أو أربع مرات يرفع رأسه مثل ذئب وينظر الي. لم ادعه يراني مرة واحدة مفتوح العينين. كنت ذئبا عجوزاً اغمض عينا وافتح الاخرى، كنت استدير واهرب من مراقبته. في المرة الرابعة اقترب مني تماماً، واخذ يرقب تنفسي، كان يقول باستمرار:

-لا يمكن معرفة النائم إلاّ من تنفسه. النائم يتنفس بانتظام.

كان يفعل ذلك عندما يصيبه الارق ويريد انسانا ليتحدث معه. كان يمر فوق رؤوسنا، ينظر الى الوجوه تحت الضوء الكهربائي، ليتأكد. . . حتى إذا رآنا نياماً واصل طريقه وجلس عند الباب الحديدي المغلق، أما اذا لقط أياً منا، وقد خانه النفس المنتظم، فيهزه هزات رقيقة حتى يوقظه. وبصوت أنيس يقول:

ـسوف ننام طويلا. . الموت والنوم متشابهان. لا فرق بينهما الا أن الاول طويل والآخر قصير. . الا تنهض لنعيش فترة اطول؟

كانت عيونهم في الليلة الاخيرة تشع ناراً. كانوا يحسون بطريقة ما أن شيئاً قد حصل، يحسون بذلك من الهواجس، من طنين الآذان، وربما من الحزن الذي يأتي فجأة!

خيم علينا الحزن كظل ثقيل، فقدنا القدرة على أن نقول شيئا. كنت اريد ان أصرخ، ان أرتمي على كتف أمجد وأبكي، لكن عيونهم المشعة المتسائلة، بترت آخر الافكار المشتركة التي تعطي تبريراً لأن أضحك، لأن ابكي، لان أمسك بيد أي واحد منهم واهزها كتعبير اخير عن شيء ما.

قال لي ابراهيم وهو يتبول في الصفيحة، ودون أن يستدير نحوي:

ـ رجب. . هل اعطوك دواءً جديداً؟

لماذا تذكر ابراهيم مرضي وهو يتبول؟ حرقة البول المزمنة التي تنهشه؟ علاقة غامضة بين البول ونهايتي؟ لا بد أن افكاراً خطرة مرت في رأسه تلك اللحظة، والا لماذا سأل بهذه الطريقة؟

قلت له انذره بالنهاية، لعله يفعل شيئا:

ـالادوية لا تجدي، انتهيت يا ابراهيم!

ودون ان يزرر بنطاله تقدم ونظر اليَّ تلك النظرة المنزوعة من الداخل، والتي لا تعبر عنها العين الا كمرآة صدئة مقشورة. ارخيت عيوني بسرعة لئلا يكتشف فيهما الدويَّ. وأمجد، نظر الينا نحن الاثنين بسرعة وضرب الحائط برجله وتمدد.

•

كانت الليلة الاخيرة صعبة كالولادة الميتة. توقفت الساعة التي في يدي، أصبحت كحجر أسود مشلول، ينبىء بالنهاية. تملكني الخوف، حتى ظننت أنهم لن يتركوني على قيد الحياة. تصورت اني لو نمت لحظة واحدة، فسوف يطبقون علي ويقتلونني. قلت امتحن افكار امجد:

ـالا يزال الارق صديقك الدائم؟

ابتسم بحزن وهز رأسه دلالة الايجاب. سألته من جديد:

مثل قبل أو أكثر؟

-م يتغير شيء!

اذن أمجد ليس صغيراً بالمقدار الذي تصورته، يعرف اني تغيرت وسوف يكون أول من يطبق على رقبتي. أمجد يحارب هواجسه بالارق، بالتطرف، لو تساهل لحظة واحدة لسقط، لا يريد ان يقول ما يشتعل في رأسه. قلت لنفسي باصرار: التطرف بداية السقوط.

وعدت أدور في الوجوه. لماذا تشع عيونهم بكل هذا العمق؟ انها ليست العيون التي ارتحت فيها ليالي الشتاء والصيف، لا تشبهها أبدا. تبدو الآن قريبة الشبه بعيون الحرس: مرتابة، جسورة، عدوة.

وعادت كلمات عصمت تدور حول رقبتي كحبل مجدول، الآن اتذكر كلماته كلها!

لما رجعنا من الحفلة الاخيرة بعد سقوط نجيب، كانت مخارج الحروف وهو ينطقها متداخلة غامضة، لكن الكلمات كانت اشد وضوحا من جميع الحروف التي تكونها، نظر في وجوهنا طويلا، كانت نظرته حاقدة، قاسية. أمسك أمجد من كتفه وهزه، وهو يقول:

-كنت تدافع عنه! قلت لكم ألف مرة انه خائن.. لقد رأيتم الآن بأعينكم لم يوقع صك نهايته فقط، كان توقيعه صك نهايتنا كلنا.. ومن يدري ماذا قال لهم؟ والأوراق؟

وتخلصنا تلك الليلة من الاوراق، احرقناها قريبا من صفيحة البول. كنت الحارس، ارقب الباب الخارجي، لكي انبههم اذا جاء أحد.. اتفقنا ان تحرق الاوراق واحدة بعد اخرى. فاذا جاء الحرس أغرقناها في صفيحة البول، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تمنع قراءتها. قال ابراهيم وهو يتطلع الى الصفيحة:

-الحرقة لا تأتي الا في الوقت المناسب.. تعالوا بولوا، بولوا عني وعنكم، حتى اذا جاء الشيطان، أغرقنا الاوراق، ومنعناه من قراءتها!

ولم يهدأ عصمت. لم يشارك في أي عمل. ظلت شتائمه تزحف لآذاننا حتى ساعة متأخرة تلك الليلة.. الكلمة التي ظل يرددها دون تعب، وهو يشد على يده:

ـلو عرفت لقتلته! يمكن أن اقتله بسهولة، اضع المخدة فوق وجهه واجلس بكل ثقلي حتى يموت..

ويحرك يديه بطريقة عصبية ويضرب الجدار ويتابع وقد تخلل صوته غضب حزين:

ـبيدي هاتين يمكن أن اخنقه.. انه يسكر الان، لقد باعنا.. آه لو عرفت في الوقت المناسب، لو عرفت لقتلته.

عصمت يعني كل الكلمات التي يقولها. طلب مرة من الحارس ان ينادي آمر الحرس، رفض الحارس، طلب منه ثانية، ورفض، وفجأة رأينا عصمت يضع رجله في بطن الحارس ويرفسه بقوة. سقط الحارس وأغمي عليه، ودفعنا كلنا ثمن الضربة حبساً انفرادياً لمدة واحد وعشرين يوماً.. ومرة اخرى بصق عصمت في وجه آمر الحرس. قال له وهو يرفع الصرصار من صحن الفاصولياء:

ـهذه لحمتكم ايها الخنازير؟

ولم ينتظر الجواب، بصق في وجهه.. وسالت البصقة الكبيرة حتى الوسام الذي كان على صدره، الوسام الذي كان مفخرة للحراس الافراد. وظل عصمت في الحبس المنفرد خمسة واربعين يوما.

هل قتل عصمت أحدا من قبل؟ كيف تجتمع في جسده تلك الارواح المتناقضة؟ يضحك مثل طفل، يأكل مثل حيوان جائع.. أما اذا بدأ الاضراب عن الطعام، فانه يكون علينا أكثر قسوة بمئات المرات من الحرس.

كان يهدد، يشتم، يجلس عند الباب الحديدي، وأكوام الاكل تتجمع مثل القذارة، فاذا مد أحد يده الى رغيف، أمسك بيده، وهزها بقوة خارج القضبان لكي يُسقط رغيف الخبز.

لو اطبقت يدا عصمت حول رقبتي لخرجت الصرخات الصغيرة من فمي مثل طائر مخنوق.. سيدوم الامر لحظة، ثم تلتوي رقبتي واسقط. يداه قويتان. لا يتباهى مثلما يفعل ابراهيم، لكن لا يقترب منه احد.. حاول ابراهيم مرة أن يكاسره، كان وجه عصمت ضاحكا، وبيده الاخرى السيجارة لا ترتجف، أما وجه ابراهيم فقد احتقن للحظة قصيرة، ثم صرخ، وسقطت حبات العرق مع اليد المتخاذلة.

لا يمكن ان ينام أحد في هذه الليلة، انها ليلة احتفالية كبرى بالنهاية، يفقد الزمن معناه، تتحول الافكار الى امطار شتائية ضاجة متلاحقة. هل كانت الانفاس منتظمة فعلا تلك الليلة؟

وأمجد عندما قام الى الصفيحة، هل كـان ليتأكـد انني نمت، حتى يعطي الاشارة فتبدأ عملية قتلي؟ كان أمجد يترنح وهو يمشي، كان يريد ان يبقي عينيه مغمضتين ليعاود النوم من جديد، او ليوحي الي بثقة سريعة تدفعني الى النوم، لكي تبدأ عملية القتل!

أما شخير عصمت فكان متناوبا كصرير آلة معطوبة، قلت في نفسي: «انه نائم لكن الشخير يتغير» راقبته طويلا، استمر منتظما لفترة، ثم تغير، تغير أكثر من مرة. وسألت نفسي: «هل يمكن للانسان ان يشخر بارادته، حتى ولو كان نائما؟ الا ينهض اذا هزته اليد المكلفة باعطاء الاشارة؟» ولم استطع النوم لحظة واحدة. كانت الافكار تتراكض في رأسي مثل خيول مجنونة، وكانت فكرة الموت تسيطر علي. كنت أقول في نفسي «سينهض عصمت ليقوم بالواجب دون ابطاء». وبتصميم أرعن كنت اجيب: «لن أتركهم يفعلون ما يريدون دون ان اصرخ، دون ان احتج. صرخة صغيرة، صرخة واحدة في الليل الساكن توقظ الحجر.. والحراس لن يكونوا بعيدين الى الدرجة التي يمكن ان اموت قبل ان يصلوا.. حتى لو تأخروا قليلا فـانهم سيصلون في الوقت المناسب. لا يمكن ان يموت الانسان خلال ثوان قليلة، القلب في منتهى القوة، يستطيع ان يقاوم، ان ينتظر.. والحراس، قبل ان يرجع صدى صرختي سيكونون فوق رؤوسنا، انهم ينتظرون، يتوقعون.. والآغا لا بد ان يكون قد قال لهم شيئـا، سوف يحـافظون عـلي أكثر من أي وقت سـابق.. لو مت فسيسجنون جميعا، سيكونون مسؤولين عن مقتلي..».

الليل في بداية الشتاء طويل.. طويل. الساعة في ليالي الشتاء طويلة لدرجة انها تتجاوز عشرات الساعات الصيفية، والا لماذا كانت الظلمة الكثيفة في الخارج؟

لماذا السكون الاخرق الذي لا تمزقه اصوات الصراصـير او سعال العنبر المجاور؟ ان احساساً غامضاً يخيم على جو السجن، بانتظار نهاية انسان، هل تكون نهايتي؟

لكنني لم أنته! لا.. بل انتهيت. كانت عيونهم الضاحكة وهم ينظرون الى الآغا يطوي نهايتي الورقة، كانت كلمات الرجل الغريب وهو يعرض علي التعاون

معهم، نهايتي.. لا لم أنته. المرض هو الذي قتلني. اريد ان استريح مؤقتا... لم أعد قادراً. للانسان قدرة معينة على الاحتمال ثم يتلاشى.. وانا هل ينكر أحد كم تحملت خلال السنوات الخمس؟ من منهم تحمل مثلي؟ اتحداهم جميعا.. قل يا عصمت، هل تحملت اكثر مني؟ الضرب، السجن الانفرادي، التعليق في السقف، المياه الباردة ايام الشتاء، المنع من النوم.. جميعنا تحملنا.. ربما تحملت اكثر مني وانت معلق، قضيت يوما زائدا. هذا ليس ذنبي، جسدي لم يعد يحتمل، أغمي علي مرات كثيرة، وآخر مرة لم يعد الماء البارد أو الصفعات كافية لايقاظي، لانهاء حالة الاغماء التي سقطت فيها.. كان الفرق في الوزن بيننا يزيد على عشرين كيلو غراما، كان وزن عصمت يزيد على الثمانين وانا لم ابلغ الستين في حياتي. ماذا استطيع اذا انهار جسدي؟ ارادتي لم تتداع، لم تنهر في أي يوم.. تحملت أكثر منهم، وهم يعرفون ذلك تماماً.. يتذكرون ذلك الغروب.. كانت الجمعة، موعد الزيارة الاسبوعية، جاءت أختي وعمتي.. أما أمي فلم تأتِ.. كانت أول مرة تتغيب.. لم تقولا لي كلمة واحدة. أحسست. صرخت أسألهما، بكت أختي فجأة وعرفت كل شيء!

كانت امي تعاني من ارتفاع الضغط منذ فترة طويلة. قلت لها عشرات المرات: كفي عن زيارتي.. لا اريد أن تريني هكذا. كانت تبتسم ولا تجيب، وتأتي.

في ذلك الغروب شعرت اني وحيد لدرجة لا يمكن احتمالها. هم قتلوا امي، ظلوا ينخرون في عقلها وقلبها حتى قتلوها.

ظللت أياماً عديدة لا انام. كنت اسهو مثل طائر. انتابتني آلام حادة في المعدة. تقيأت مرات كثيرة، حتى ظن الآغا اني اصبحت لقمة سهلة.. عرض علي أثناء مرضي ان أوقع واخرج فورا، بصقت في داخلي، وانا اتلوى من الالم، وقلت له بجلافة:

ـاموت ولا اوقع.

وهز رأسه بثقة، وطلب من آمر الحرس اعادتي الى العنبر دون علاج.

لم تمت أم أي واحد منهم.. امي وحدها هي التي ماتت وانا سجين.. لا انكر ان اثنين منا كانا دون امهات قبل السجن منذ وقت لا يتذكرانه، أما الآخرون، فانهم ظلوا يتدفأون بذاك الحنين الرائع، وهم يتذكرون امهاتهم.. كانوا

متاكدين ان السجن سينتهي يوما، ويعودون الى بيوت تملؤها الامهات بالدفء، والامهات يعنين شيئا خارقا، شيئا يعرفه اكثر من يعرفه اولئك الذين فقدوا امهاتهم.

بعد وفاة امي بسنة، سقطت هدى.

كانت هدى اقوى الآمال التي تشدني الى عالم الحرية، كنت اتصورها مثل بطلة الاساطير، لا تمل ابدا من الانتظار. لكن لم تنتظر، قالت لي في آخر رسالة: «أنا مرغمة على الموافقة يا رجب، ولكن سأحتفظ بالذكرى الى الابد».. اي نفع من الذكرى يا هدى..؟ هل تدفىء السجين الذي لا يحلم الا بساعة الحرية؟ هل يخرج من ليالي السجن الطويلة ليسقط في البرودة والفراغ؟

كانوا يعرفون علاقتي بهدى، لم يبق احد الا وعرف. كان كل شيء مباحاً بيننا في السجن. لم يقرأوا رسائلها مرة واحدة، لكنهم لم يتوقفوا عن السؤال، في كل مرة تأتي الرسائل. انيسة هي التي تعرف كيف تهرب الرسائل.. كانت تضعها في غلاف قدر الطعام، تحت السجائر، في داخل اقراص الكبة.. وبلهفة المجنون كنت انتظر، حتى اذا وصلت الرسالة الى يدي لا أمل من قراءتها،إلى أن تأتي رسالة اخرى.. كنت احفظ رسائل هدى، واقبلها في الليل، كنت اضعها تحت رأسي مثل تميمة مقدسة، وعندما نضطر لان نحرق رسائلنا واوراقنا، بين فترة وأخرى، خوف الهجمات المفاجئة والتفتيش، كانت روحي تحترق مع الرسائل. تمنيت لو اضرب او احبس انفراديا، لو اكنس مراحيض السجن كلها من أجل ان يوافقوا على أن تبقى لي رسائلها، لكن فكرة مثل هذه كانت تبدو مستحيلة، واضطر للمشاركة في حفلة الحريق التي تجري كل اسبوعين، وفي الظروف المفاجئة.

ضاعت هدى لاني كنت سجينا.. لو كنت حرا لما انتظرت كل هذه السنين.. كان باستطاعتي أن أقول لها «الان يمكن ان نتزوج يا هدى..» ونتزوج فعلا. لو كنت طليقا لما استطاع احد من أهلها ان يحتج او ان يقول كلمة واحدة، لكن ماذا تستطيع أن تقول لهم وانا محكوم وراء جدران السجن لمدة احدى عشرة سنة؟ هل يوافق احد على الانتظار طوال هذه المدة؟ هل يقتنع اهلها؟ كانت امها تعرف علاقتنا، لكنها مثل كل الامهات تريد لابنتها حياة لا يمكن للسجين ان يوفرها.. وذهبت هدى.. تزوجت. سألت اختي مرات كثيرة عنها، كانت اجاباتها سريعة، عصبية، كأنها لا تحب ان اذكر اسمها.

أنا الوحيد بينهم الذي كانت تربطني بالعالم الخارجي علاقة من هذا النوع، وفقدتها. . وهم: ثلاثة متزوجون ولهم أطفال، وثلاثة لا يعرفون عالم المرأة ابدا. . حتى ان وليداً لم يكن يحب ولا يطيق حديثا عن المرأة، كان يصرخ بجنون اذا سمع احدا يتحدث عن عالم المرأة الغني الرائع. . كان يقول:

-السجن والمرأة لا يجتمعان، وبداية انهيار السجين ان يسيطر عليه شبح امرأة. كفوا عن هذا المرض أيها الثيران. . اخصوا انفسكم لينتهي عذابكم!

ولم اذكرها بعد تلك الرسالة. قلت لهم بأسى، في ليلة شتائية، بعد ان تلقيت آخر رسائلها:

-اصبحنا اليوم أربعة ضد ثلاثة، انتقلت الاغلبية للثيران المخصية!

دهشوا. . استغربوا كثيرا. سألوني عند الغروب عن أخبار العالم الخارجي، وهم يقصدون اخبار هدى. . قلت لهم بسرعة:

-العالم الخارجي ما زال يدور على نفس المحور، والثور لم يتعب لكي يغير وضع الارض، وينقلها من قرن الى آخر. .

لم يسألوا اكثر، ولم اتحدث، كنت اريد ان اتشرب العذاب على مهل، لكي اشعر بلذة الفقد وعذابه. .

أما في الليل، والمطر يتساقط مثل قناديل مشعة في الساحة المضاءة، فقد قلت لهم، بعد الجملة الاولى التي كررتها بهدوء كأني القي كلمة:

-ارجو الا تسألوني بعد اليوم عن هدى، لقد أصبحت امرأة مثل باقي النساء. وصمت لحظة تشربت خلالها الغصة بلذة مقهورة، ثم اضفت وانا أحاول الابتسام: لقد تزوجت. . لم تتزوج بعد، قريبا سوف تتزوج.

جحظت عينا أمجد من الاستغراب والخوف، وكاد يقول شيئا، ولكي اقطع الطريق على أي تساؤل قلت:

-ارجو الا تسألوني عنها مرة أخرى. . لقد انتهت بالنسبة لي.

ضحك عصمت، كطفل، وقال يريد ان يغير الجو، فيجعله مرحا:

-تقبل التعازي يومي السبت والاحد للرجال، والاثنين للنساء!

قال ابراهيم وشعور الظفر يسيطر عليه:

ـأصبحت الان ثورا جيدا، ويجب الا تتخلى عن هذه الصفة طوال حياتك.

وعاد عصمت الى جو المرح مرة اخرى. قال:

ـلو فكرت زوجتي بالطلاق لأصبحت مطلقا منذ ثلاث سنين، ولاصبح لأولادي اخوان من فحل غيري!

كانوا يسخرون، وانا كنت اتألم.. لم يفقدوا زوجاتهم، لم يفقدوا هذا الانتظار الشديد الروعة، سيخرجون يوما لكي يروا ابناءهم الذين تركوهم صغارا، وقد كبروا واكتسبوا عادات لا يعرف احد كيف اكتشفوها!

نعم سيكون اولادهم كبارا، الصغير منهم يزيد على احدى عشرة سنة. أما الكبار فقد بدأت لحاهم تنمو، وبدأوا يغازلون الفتيات الصغيرات.. وانا من الذي ينتظرني؟

تحملت.. انطويت على نفسي، وبدأت احارب هدى التي عاشت في نفسي ولا اعرف كيف ظللت مضطرا لسؤال انيسة عنها، كنت أسألها في أغلب المرات التي تزورني فيها، واتلقى نفس الاجابات:

ـ تزوجت.. تزوجت وسافرت. عادت من السفر ولم ارها الا بسرعة. يبدو أن هدى تفضل هذا اللون من الحياة: الراحة، والبعد عن المشاكل!

ـألم تقل لك شيئا يا انيسة؟ ألم تبعث معك رسالة؟

وتضحك انيسة بحزن. تهز رأسها دلالة النفي، وبسرعة تسألني عن شيء ما لكي أكفّ عن ذكر هدى!

وصمدت بعد أن تزوجت هدى، صمدت سنيناً.

أما المرض اللعين فانه لا يرحم.

سمعت صرير الباب. اغمضت عيني بسرعة لكي اواصل لذة العذاب. لم أكن اريد أن أرى أحدا، أو اسمع صوتا.. شعرت من الاقدام الناعمة، التي تشبه خطوات قطة، ان انيسة دخلت الغرفة، شعرت بأنفاسها تقترب مني. تململت وادرت ظهري. وقفت فوقي فترة طويلة. كانت نظراتها تخترقني، تمنيت ان أراها وهي تنظر اليَّ دون ان أفتح عينيَّ. هل مرت فوق شفتيها ابتسامة حزن؟ هل تراني

أمامها مخلوقا حقيقيا يشبه باقي الناس؟ والانهيار الا يبدو واضحا على وجهي؟ انيسة لا تريد في الدنيا الا ان تراني أمامها، «أن اكون موجودا» دون ان تسأل عن سبب وجودي، عن الطريقة التي أصبحت فيها موجودا! انيسة ورثت عن امي الصفات الضعيفة، امي لم تورث الا الصفات الضعيفة، نحن الاثنان ضعيفان، امي وحدها القوية، حملت معها قوتها ورحلت، ولم تترك الا الضعف.. قالت لي انيسة في المرات الاخيرة كلمات جعلتني أحس بالمرض اكثر من السابق. كانت تبكي، تتلمس خدي بخوف، تضع يدي بين يديها وتطيل اليها النظر.

انيسة التي دمرت حياتي، جعلت ايامي الاخيرة في السجن جحيما. كانت تنقل اليَّ حقارات العالم الخارجي وانتهاءه!

-باسل جن، اصبح يدور في الشوارع عاريا.. خالد فقد عينه نتيجة الضرب، وعينه الأخرى مهددة. ومحسن.. ألا تتذكر محسن؟ لقد أصيب بالشلل. وعندما حملوه الى البيت ورأته أمه ماتت!

أنور وعبد الكريم ونجيب يعيشون الآن بحرية. انور تزوج قبل شهرين، وترك السياسة نهائيا. نجيب يريد ان يواصل دراسته، مرَّ علينا قبل ايام وطلب مني أن أقول لك أن تتعقل. الجميع تركوا.

كانت أنيسة تحفظ قصص العالم وتنقلها اليَّ. غضبت مني شهورا طويلة، قلت لها بطريقة أبكتها:

-انيسة اذا كنت تريدين ان تنقلي اليَّ هذه القصص، فلا تأتي الى هنا مرة اخرى.

وجاءت مرات كثيرة، وظلت تنظر الي بصمت، وبعض الاحيان تبكي. أما اذا امتدت يدها الى وجهي، تريد أن تتأكد من صلابة اللحم وتماسكه، فكنت انزل يدها بعصبية. كنت أقول لها:

-انا رجب، اللحم والدم، كل أعضائي سالمة، وليس فيَّ شيء مستعار.

كانت تسمع وتبكي. وعادت من جديد الى قصصها: بدأت اول الامر بقصص بعيدة لا تحمل مغزى ولا تريد من ورائها شيئا محددا، ولكن بعد فترة وصلت الى قصص العذاب:

-خذ بالك يا رجب، ربما سمعت بالمحاكمة التي جرت الاسبوع الماضي،

ضاعفوا المدة بالنسبة لجابر واسعد، بعد ان تبين لهم وجود علاقات بينهم وبين الخارج.

واطمئنها بهزة رأس، بابتسامة، بكلمة عجولة.. ولكن لا تكف..

- رجب، الله يستر عليك يا رجب.. اسمع مني ولا تأخذ برأيي.. أصبحت كبيرا وعاقلا ويمكن ان تقدر الذي يفيدك.. نعمان انتحر، ولكن الناس يقولون انهم قتلوه، قتلوه بعد محاولة الفرار. خذ بالك يا رجب.

في الشهور الثلاثة الاخيرة، تغيرت لهجة انيسة تماما.

-حامد اتصل بمدير الشرطة وقال له ان صحتك سيئة وبحاجة الى معالجة في الخارج، رفضوا. قالوا: الحل الوحيد هو أن تقدم تعهدا بأن تترك العمل السياسي، وحامد لم يعد بشيء. ماذا تقول؟

-لكن يا انيسة صحتي ليست سيئة لهذه الدرجة!

-آه لو ترى نفسك بالمرآة، لم يبق منك الا الجلد والعظم.. عيونك مصفرة، شفاهك زرقاء.. آه لو ترى نفسك.

-العلاج الدفء، وعندي ملابسي ثقيلة!

-العلاج ان يكون لك بيت، ان تنظم حياتك، تأكل بموعد، تنام بموعد. وهنا في السجن العذاب والبرد.. انت تعرف كل شيء احسن مني.

وتصمت قليلا ثم تسأل من جديد:

-حامد يسأل ماذا تريده ان يقول لمدير الشرطة؟!

-أنا لم أطلب من حامد أن يتصل بأحد.

-ولكن انا التي طلبت منه.. انا رجوته.

- وفري التعب، لا أريد شيئا.

-فكر بالامر، ويمكن لحامد ان يؤجل الاتصال بمدير الشرطة الى الاسبوع القادم.

-انيسة لا اريد شيئا.. اذا تمكنت احضري لي قميصا داخليا من الصوف، هذا كل ما أريد!

انيسة فجرت عالمي، جعلته ذرات منشورة في فضاء لا نهاية له. قالت لي مرة، وهي تحاول ان تقتلني:

-اصبح لهدى ولدان. قبل شهر جاءها الولد الثاني. وقد سألت عنك.

-ولد ثان؟

-سموه عدنان.

-والاول.. كم عمره؟ وما اسمه؟

-اعتقد ان عمر الاول اكثر من سنة ونصف، واذا لم اكن مخطئة، فان اسمه راجي

-راجي؟

-راجي!

- وماذا عندك من الاخبار غير ذلك؟

-والله لا أرى أحدا، صحتي انهارت، وحامد لم يعد يطيق ان يراني هكذا.

-وحامد، ما اخبار حامد؟

-يسأل ان كنت توافق على الاقتراح الذي عرضه مدير الشرطة!

-قلت لك الف مرة لا اوافق، ولا حاجة لان تتصلوا بأحد.

-وصحتك يا رجب؟

-راجعت الطبيب، واعطاني دواء جديدا.

-وماذا تفيد الادوية في مثل هذا الجو؟.. الضرب، الاهانات، الاعدام!

وسقطت من عينيها دمعة وهي تضيف: كل يوم بسنة يا رجب!

وبدأت أسقط. اصبحت الآلام تنتشر في جسدي مثل انتشار النار. كتفي الايمن مشتعلة من الالم. معدتي تخرج من حلقي كل يوم. رجلي اليمين رخوة وتحرك فيها الروماتيزم حتى أصبح المشي بالنسبة لي عذابا لا نهاية له.. واتلمس أعضائي عضوا بعد آخر لكي أتأكد.. ثلاث اسنان منخورة، تسبب لي آلاما هائلة، خاصة أثناء الليل. انفي مزكوم بصورة تكاد تكون دائمة. صدري يخر، والسجائر لم يعد لها ذلك الطعم اللذيذ.. واصبح الفراش الدافىء، النوم دون كوابيس. القراءة،

التطلع الى واجهات المحلات، الركوب في سيارة عامة.. اصبحت هذه الاشياء احلاما يومية تغزو رأسي، وافكر فيها كأمنيات مستحيلة!

وانيسة لا تتعب ولا تكف:

ـحلمت أول امس انك خرجت من السجن.. لم تخرج ماشيا، خرجت على نقالة اسعاف، تصور يا أخي اني لم أستطع ان أذوق طعاما منذ اول أمس، وطوال الوقت ابكي، وقد غضب حامد ووجه لي كلمات قاسية!

وأصمت.. لكن العالم الخارجي يظل في رأسي كتلة نار راكضة.. هل هذا العالم موجود فعلا؟ هل ما زال الناس يذهبون الى دور السينما؟ يضحكون؟ يجلسون في الحدائق؟ والسيارات ألا تزال تسير في الشوارع؟ والباعة والمتاجر، والمتحف؟ آه لشد ما اتلهف لان اذهب الى المتحف، والنساء..؟ النساء في المدينة الكبيرة آلاف، عشرات الآلاف، كل امرأة عالم من الجنون والدفء.. هل تنقضي هذه السنين واخرج مرة اخرى؟ سبع سنين.. ست سنين، ما أطولها: آلاف الايام انتهت ولم نقض بعد نصف المدة التي حكمنا بها. هل تنتهي المدة؟ الا يستطيعون ان يلفقوا لنا تهمة جديدة ونقضي في السجن خمس سنين اخرى؟ انهم قادرون على كل شيء! ألم يحكم على مجدي ثلاث سنوات جديدة قبل انتهاء المدة الاولى بيوم واحد؟ وعثمان..؟ تركوه في الخارج اسبوعا واحدا، ثم جاء مرة اخرى يحمل على كتفيه ثماني سنين!

الشوارع المضاءة في الليل، الناس، الرجال والنساء، كل شيء في العالم الخارجي يسير دون خوف. والمطاعم؟ يمكن للانسان أن يدخل الى أي مطعم، ويطلب كل ما يشتهي. يمكن أن يأكل في أية ساعة، حتى يشبع.. واذا لم يعجبه نوع من الاكل يصرخ طالبا نوعا آخر، ويعطي النادل الحساب وفوقه قروش قليلة، ولكن اذا رأى صرصاراً فان المطعم سوف يغلق في اليوم التالي.

ان صرصاراً يكفي لان يهدم سمعة اكبر المطاعم..

والانسان في العالم الخارجي يستطيع ان يذهب الى المرحاض متى يشاء.. لا احد يمنعه، لا احد يدق عليه الباب ويطلب منه أن يخرج فورا، لا أحد يجبره على حمل القذارة بصفيحة ترتج بين يديه وتتسرب الى ثيابه ويديه..

هل ما زال العالم الخارجي موجودا بالفعل؟

كانت انيسة تترك لي أن افكر، لاحظت ذلك مرات كثيرة. ربما كانت ترى في عيني اضواء الشوارع، وقامات النساء، وروعة الاشجار.. كانت تتركني أتيه في العالم، ولكي تزيد آلامي كانت دمعة صغيرة تتساقط من عينيها.. وعندما تراني اتابع خيط الدموع، تقول:

-الى متى يا رجب تظل وراء القضبان؟ والى متى تظل وحدك؟

انظري.. انظري يا انيسة.. ليس رجب هو الذي تراه عيناك الآن، مات رجب، وقع بنفسه شهادة الوفاة، كانت الساعة تقترب من السادسة، عندما ارتجفت يده لثانية صغيرة ثم سقط، الانسان الممدد على السرير الآن، المطفأ العينين، الصامت، لا علاقة له بذاك الذي كان من قبل.. آه لو لم تكوني اختي يا انُيسة، وانت يا هدى، لو كنت امرأة اخرى، لو ان ذلك حصل لما سقطت.

قالت امي وهي تشد وجهها لكي تخنق الخوف والحنان:

-اسمع يا رجب، أنا أمك وانت قطعة من لحمي، وليس في هذه الدنيا احد يعزك مثلي.. لكن لا تسمع كلام عمتك.. ماذا تقول للناس، لأصدقائك، غدا اذا اعترفت وخرجت؟ الحبس يا ولدي ينقضي.. افتح عيناً واغمض عيناً تمر الايام، وتبقى رافعا رأسك. اذا اعترفت فكلهم سيقولون خائن، ولا تستطيع ان تنظر في وجه احد.. خذ بالك يا ولدي.

لماذا متِّ يا أمي؟ لماذا؟ لماذا تركت انيسة الضعيفة لتكون نافذتي على هذا العالم؟ آه لو أن لي أختاً غيرها! واخي لم يزرني مرة واحدة، قال لأنيسة ذات مرة، يريد ان يصلني كلامه:

-رجب لم يعد صغيرا، قلنا له ألف مرة ان يترك الاعمال الصبيانية، ولم يسْمع.. الآن، اذا تعهد أن يقدم براءة، فهو أخي، واذا لم يفعل فلا هو أخي ولا أنا اعرفه.

لما سمعت من أنيسة هذه الكلمات بصقت على الارض، بصقت بغضب ودست فوق البصاق، واستدرت بكل ثقلي، قلت لها:

-قولي لاسعد لا هو أخي ولا انا اعرفه، واذا جاء يوم وطلبت منه شيئا فليطردني مثل كلب.. لكن بالمقابل اذا تكلم عني كلمة واحدة، فأنا مستعد أن أقضي حياتي كلها في هذا المكان، ودمه في رقبتي.

• كنت غاضبا مثل ثور، ولم تمض دقيقة على كلمات انيسة، حتى استدرت وعدت الى العنبر، رغم ان الزيارة كانت في بدايتها!

مات اسعد بالنسبة لي منذ ذلك الوقت، وحتى قبل ذلك الوقت لم يكن موجودا بنظري. كانت امي تعتبره لئيما، خسيسا، لانه باعنا حين كنا صغارا، وبعد وفاة أبي مباشرة..

لن تفرح يا أسعد، صحيح انني وقعت تلك الورقة اللعينة، لكن لن أترك لك فرصة للشماتة، لن ترى وجهي، وقد لا أراك في حياتي كلها!

أول شيء اريد ان أفعله غداً زيارة قبر امي.. هل تذهبين معي يا انيسة؟ لا أريدك ان تذهبي، دلّيني على قبرها فقط. أريد ان اكون وحيدا الى جانب القبر، سأبكي، سأقول لها كل شيء، سأقول لها كيف حصل الامر، لماذا حصل. هي الوحيدة التي تفهمني، تفهم ما يدور في رأسي حتى دون أن أقول كلمة واحدة. سأبقى ساعات الى جانب قبرها، لكن لماذا ماتت؟ ان قوة غامضة وغبية هي التي تدير هذا الكون، وهي نفسها التي انتزعت امي في وقت كنت أريدها ان تبقى.

اعرف انها كانت تتكوم لساعات طويلة أمام زاوية السجن، وامامها سلّة فيها أكل وخبز وبرتقال.. وفيها ثياب، وفي مكان ما من الثياب رسالة.. كانت تنتظر دون تعب، حتى اذا سمحوا لها بالدخول، كنت ارى من بعيد ابتسامة تملأ جهها، وفي تلك الدقائق، التي لم تكن تزيد على العشر اتزود بالقوة، بالجنون، بالمحبة، كنت اتزود منها لفترة طويلة تكفيني اسابيع، حتى عندما يمنعون الزيارة..

وماتت.. انيسة لا تشبه امي، الملامح، الصوت، نظرة العيون، كل شيء مختلف، كانت كل واحدة تحب بطريقة مختلفة، كل واحدة تعبر عن حبها بطريقتها الخاصة. آه لشد ما كنت قويا في السنوات الاولى.. وفي تلك السنوات تحملت من الضرب والاهانات ما لا يحتمله بشر، وصمدت، وبعد أن رحلت امي، تغير كل شيء فيَّ: الآلام، الخوف من الموت ومن عالم الحرية، الكراهية. لقد اصبحت انسانا جديدا.

هم قتلوها.. كانوا يطردونها عن بوابة السجن، هي والامهات الاخريات، مثلما يطردون الكلاب، كانوا يضربونهن بالعصي، يشتمونهن، كانوا يقولون عنهن بغايا وقوادات، ولا يتورعون عن شيء أبدا. رأيتها مرة ترتجف امامي.. كانت

[illegible] الحزن. حاولت ان تبتسم، حاولت ان تخفي اضطرابها، لكن [illegible]
[illegible] سألتها قالت:

ـيحق لهم ان يفعلوا كل شيء.

وصمتت، تاركة لدمعة كبيرة أن تسقط دون أن توقفها او تمسحها كما تعودت ان تفعل. ولما سألتها مرة أخرى، جاءت كلماتها غامضة حزينة:

ـالكلب امسكني من صدري.
وأشارت برأسها إلى الحارس الذي كان يدور حولنا.

حفروا لأمي مئات الخنادق، كانوا يحفرون لها خندقا جديدا في كل مرة تأتي فيها لزيارتي. منعوا الاكل، منعوا الثياب، منعوا أمواس الحلاقة، ضربوها، قالوا لها: لو لم تكوني بغيا لما خلفت هذا القواد، واشاروا اليَّ، وهم يدفعونها أمامهم!

كانت امي صخرة.. كانت أصلب من كل الصخور. غدا سأقبل التراب مئات المرات، آه لو استطيع أن أرى وجهها لثانية واحدة، لثانية.. ثم لتذهب بعد ذلك، لا أريد أن أراها، تكفي تلك الصورة، وهي تطل عليَّ من وراء القضبان، وتقول بصوتها المجروح القوي:

ـالدنيا حياة وموت يا رجب، وصيتي لك أن لا تضر أحداً، تحمل يا ولدي.

قالت لي هذه الكلمات قبل أن تموت بشهرين، تذكرت ذلك فيما بعد، عندما رأتني مرة أفكر، وتتيه نظراتي بعيدا. احسست بالخوف، وأحسّت بالافكار اللعينة تقترب من رأسي. قالت تلك الكلمات لتحارب خوفي، لتحارب فيَّ لحظات الضعف القذرة.

. غداً سأنام عند القبر، سأقول لها ان جسدي هو الذي خانني يا أمي، انت التي بنيت هذا الجسد، واذا انهار فلأنه ضعيف هكذا.. وانا لست مسؤولا، لم يكن جسدي ضعيفا بهذا المقدار عندما كنت حية.

كانت تأتي لزيارتي كل اسبوع. بعد موتها فجأة تغير جسدي، اصبح هشا مستعدا لاستقبال الالم، اصبح عبئا عليَّ، لا يتركني انام، لا يتركني اتذوق الاكل، وله فوق ذلك طلبات تزداد كل يوم!

انيسة تابعت الرحلة حتى نهايتها، بدأت تنبهني الى أمور لم اكن الحظها من قبل:

-تطلع هذه الناحية يا رجب.

ومثل طفل صغير ادير رأسي.. وتصرخ:

-عروق رقبتك نافرة مزرقة.. هل ضربوك؟ هل حصل لك شيء؟

وعندما أهز رأسي دلالة النفي والاستغراب، تقول:

-العروق تظهر اذا ضعف الجسم.. وانت ضعيف جدا في هذه الفترة.

وبشكل سري وبطيء أتطلع الى يدي الممدودة، اتطلع الى العروق، واتحسس صدري!

تابعت انيسة الرحلة الخطرة حتى نهايتها، ومع الرطوبة والرائحة الكريهة والالم، لاحظت يوما بعد آخر ان اشياء كثيرة في جسدي تتغير وتضطرب.

انكسرت يدي حين كنت في العاشرة، بكيت بتوجع، صرخت من الالم، رأيت أمي تقول لي بلهجة لا تستعملها الا في لحظات الغضب:

-لو رآك أبوك تبكي مثل النساء، لكسر يدك الثانية.. ماذا حصل حتى تبكي هكذا؟

ولا أكفُ. كان الالم اكثر مما احتمل، ولم تجد امي غير تلك القصة التي كرّرتها على مسامعي مرات كثيرة..

-أصيب المرحوم والدك مرة، انكسرت رجله عند الساق، أصيب برأسه عدة اصابات، ومع ذلك قتل اثنين، ومنع الآخرين من ان يتقدموا.. لو كان سليما لقتلهم كلهم. تصور انه جبر رجله وركب الحصان وحده، وعاد الى البيت. ماذا يقوّل عنك اذا رآك تبكي هكذا؟

أمي التي تنام تحت التراب الآن، تركت لي انيسة تقودني في الدهاليز اللعينة. ظننتها وهي تتحدث عن العالم الخارجي، تتحدث عن الجنة. كانت تسرف في وصف حديقة البيت، وانا اتذكرها من سنوات طويلة: خديقة صغيرة، لها سور من أحجار مصفوفة بعلو نصف القامة، ولان ارضها تستقبل المياه القذرة والصابون، تحولت الى سبخة لا تنبت فيها غير تلك النباتات الشيطانية والتي تتحمل الحرارة والبرد ومياه الغسيل. أتذكر تلك الحديقة جيدا، ولا اعتقد ان من الممكن ان

تتحول خلال فترة غيابي الى شيء مختلف، لكن انيسة تصرّ وهي تتحدث عن الحديقة:

-عباد الشمس يا رجب.. أطول من رجل على حصان.. المداد، الريحان، الآس.

-وماذا أيضا يا انيسة؟

-لو تراها يا رجب.. انها الآن غير الحديقة التي تعرفها!

-وهل بدأت تزرعين فيها القمح والشعير؟

-أتمزح؟ آه لو تراها!

-لا أمزح، مجرد اسئلة.

-وغرفتك، كل اسبوع انظفها بالصابون، وهي الآن حاضرة، نظيفة، يلعب فيها الهواء والشمس.

-وأي شيء آخر في عالم الحرية يا انيسة؟

-كل شيء تغير، الشوارع غير الشوارع، البيوت غير البيوت، الحدائق، الاضواء، اشياء كثيرة تغيرت!

-وماذا ايضا يا أنيسة؟

وتضحك وهي تجيب:

-وانت يا رجب تغيرت كثيرا. كبرت عشر سنين، عشرين سنة، من يراك الآن لا يعرفك: الشيب، التجاعيد.

وتتغير نبرة صوتها وتتقلص الابتسامة وهي تضيف:

-الله يلعن السجن ويومه، قلنا حين تخرجت من الجامعة سعادتنا بدأت، لكن ما مرَّ شهر حتى تحول الفرح الى مأتم!

لو ظلت أمي، لظللت شاباً وصامداً، لو ظلت هدى لظللت أقوى وأشد، لكن جسدي هو الذي عذبني، لم يتركني ارتاح يوماً واحداً. حاربت جسدي فترة طويلة، جاملته، سألته ان يقف الى جانبي، لكن شيئا من الخارج ظل يغزوني دون رحمة.

انيسة تقترب وتبتعد. ترتب الغرفة، ترتب بقايا ملابسي. سمعتها وهي تفتح حقيبة، ثم حين فتحت الخزانة.. أي شيء في هذه الحقيبة المسلولة؟ بقايا ثياب، بقايا يأبى حتى المتسولون ان يمدوا اليها أيديهم.. لو تركتها في السجن لكانت تنفع احدا، أما في العالم، خارج السجن، فانها تثير الشفقة! ولكن لمن اتركها؟ هل يقبل احد من الاصدقاء ان يمد يده اليها؟ لم تكن ملوثة بنظرهم فقط، كانت تحمل رائحة جيفة، ربما كانوا احرقوها لو تركتها.

اصنعي ما تريدين انيسة بهذه الخرق.. لا أريدها، لن ألبسها بعد اليوم، أريد أن أتخلص من كل شيء له علاقة بالماضي. اذا لم تمزقيها فسوف أحرقها، يجب أن أحرق كل ما له علاقة بالماضي.. وأي ماض اريد ان احرق؟

السادسة.. تلك الساعة اللئيمة التي جعلت نهايتي حقيقية مؤكدة، نهائية. قبل ذلك كنت رجلا وبعد ذلك اصبحت شيئا آخر.. لم يحتمل التوقيع الا ثانية صغيرة.. حصل الامر بسرعة، اضطربت يدي واضطرب التوقيع، نهاية التوقيع طويلة، مشوشة. آه لو توقفت في تلك الثانية، آه لو توقفت!

٢

ظل نور الغرفة يتأرجح على الستارة وانا انظر اليها بصبر نافد، كنت اريد ان اتأكد من نومه قبل ان أنام. انتظرت حتى سمعت أنفاس حامد تغرق في هذه الدورة الازلية من الاطمئنان، جررت نفسي بهدوء، وانزلقت الى الصالة.

كان السكون يغطي الدار كلها، الاولاد نائمون منذ ساعات، وفي الخارج شيء يشبه الريح الصغيرة، كنت ارى آثارها من الاهتزازات اللينة للستائر، ومن صرير باب قن الدجاج. لم أكن اتصور ان الايام تنقضي خفيفة راكضة هكذا.. انقّضت تماما.. مر اسبوعان لم اره خلالهما كما تمنيت. غدا يسافر، لا.. اليوم، لم تبق سوى ساعات قليلة وابدأ الانتظار من جديد. قال لحامد بصرامة، يريدني ان اسمع الكلمات تماما:

ـ اذا انقضى شهران ولم اعد، فمعنى ذلك ان اقامتي طويلة، اذا وجدت هناك عملا مناسبا بقيت!

لم تكن هذه الفكرة تخطر على بالي، سمعتها مرات كثيرة، لكن قبل هذه الليلة لم أكن متأكدة أنه يعنيها، كانت كلماته واضحة، وان بدا فيها شيء غريب، ثم يعود اليها بطريقة اخرى.

في هذه الليلة لست متأكدة من شيء، حتى السفر كان من الممكن ان يتخلى عنه. هل أطلب منه أن يبقى؟ ولكن كنت أعرف أن أية كلمة جديدة تسبب له عذاباً لا تحتمله صحته. ليذهب. الحل الوحيد ان يذهب. وأنا سأتعلم الانتظار من جديد.. انتظرته خمس سنين حتى عاد.. واليوم يمكن ان انتظره، انه لا يعني كلماته تماماً، هل يبقى؟ واي عمل يستطيع ان يعمل؟

قبل ان ينام حامد بكيت وأنا ألح عليه لكي نقنعه بأن يترك فكرة العمل، قلت:

سنبيع البيت ونرسل له ما يحتاجه، له اكثر من نصف البيت ومن حقه ان يبيعه.

ان رجب الآن ليس رجب الذي اعرفه.. تغير كثيرا. رفض استقبال احد من أصدقائه، كان فظا وهو يصرخ في وجه عادل، ويطلب منه أن يقول للذين جاءوا بأنه غائب ولن يعود قبل منتصف الليل.. وعمتي، آه لشد ما غضبت، لاول مرة رأيتها تبكي بهذا الشكل. امسكها من كتفها وهزها بقوة يريد ان يوقعها على الارض، لم تكن تدري ان زغرودة فرح يمكن ان تسبب له مثل هذا الغضب؟ ظنت اول الامر انه يداعبها، لكن عندما توالت هزاته القاسية خافت، وتوقفت. نظرت اليه بتساؤل واستغراب، فلما رأته غاضبا والكلمات تتطاير من فمه، تراجعت وهي تنظر اليّ تسألني بعينيها، لم اكن اعرف ما ينبغي ان افعل، اقتربت منها، احتضنتها حتى اذا رأت دموعي، انخرطت في البكاء، أما هو فقد دخل الى الغرفة وارتج الباب وراءه صاخبا عنيفا.

قالت عمتي بعد ان ابتعدنا كثيرا عن الغرفة، وجلسنا في طرف الحديقة، عند الباب:

ـوالله يا ابنتي لم اصدق، كان كل يوم بسنة، كنت اريد أن أفرح به سبعة أيام. ومسحت دموعها وهي تقول بصوت مكسور: أرأيت ما فعل؟

قلت لعمتي اشياء كثيرة لاقنعها، لكن قبل ان يحل المساء كانت تعود الى القرية، والدموع تملأ عينيها، ورجب رفض أن يخرج الى الغداء. ورفض أن يقول كلمة. ظل يدخن ويشرب القهوة، ولما جاء حامد ودخل غرفته رأى بقايا دموع في عينيه!

انتهى ذلك كله.

اقتربت من باب الغرفة ووضعت اذني. كان السكون الاخرس يغرق الدار. ظننته نائما وانه نسي الضوء فلم يطفئه. انتظرت لحظة، ثم شققت الباب بهدوء ومددت رأسي، كان يجلس في السرير مثل كرة، وما كاد يـراني حتى انتفض. شعرت أن ملامح وجهه تنخفض دفعة واحدة، تصبح غاضبة. أردت أن أتراجع، لكنه كان قد رآني، تقدمت لاوضح له واعتذر.. ولم اجد سوى الضوء حجة.. قلت:

ـظننتك نسيت الضوء يا رجب!

وهز رأسه دون أن يجيب. كان وجهه حزيناً وغاضباً، ودخان السيجارة يتصاعد ويتلوى، حتى ظننت وأنا أتنشق الهواء، ان عدداً لا يحصى من السجائر يشتعل في نفس الوقت، فيجعل الرؤية مضطربة، والتنفس ثقيلاً. قلت بلهجة متوسلة:

- يجب ان تنام يا رجب. نم ساعة، ساعتين، حتى تستيقظ نشيطاً وتستطيع ان تسافر!

ورأيته يسحب سيجارة جديدة ويشعلها من السيجارة التي في يده. حتى اذا انتهى، اطفأ الأولى، ودون ان يعدل جلسته، قال وهو منحن:

- اتعرفين يا انيسة ان حياة السجن أفضل؟.

كنت انتظر كلمات مجنونة مثل هذه التي يقولها رجب الآن. لقد تأكدت ظنوني، بدأ يقول الكلمات التي اخاف منها، والتي حاربتها خلال الأيام الماضية. لم اكن أصدق ان حنيناً مثل هذا يمكن أن يعاوده. سألته وأنا أقترب وانظر اليه، لكي أتأكد ان عيونه تعني الكلمات التي يقول:

- وهل يزعجك شيء يا رجب حتى تقول مثل هذا الكلام؟.

ولم يجب. ظل يهز رأسه بلوعة مميتة، حتى ظننت ان الدموع ستنفجر من عينيه. لم اكن احب بكاءه فقد تمزقت روحي وأنا أراه.

في هذه اللحظة يجب أن أحارب، لكي تبقى صورته مثلما كانت قبل السجن.

بدأت الدموع صغيرة خجولة في عينيه في اليوم الأول... ولكن لا يكاد يوم جديد يأتي حتى أرى حزنه يتحول الى غمامة سوداء تفرد ظلها على البيت كله.

جلست بخوف على حافة السرير. كنت مستعدة لأن احتمل كل شيء حتى انتزع العذاب الذي يموج في داخله، ويدفعه في كل وقت الى العصبية والبكاء. قلت وأنا أشد يده وأمسكها:

- رجب.. برحمة امي، اكاد اموت من صمتك.. قل يا رجب، هل رأيت شيئاً، أو سمعت شيئاً ازعجك؟.

وبنفس الطريقة المدمرة الكاوية، هز رأسه دلالة النفي. كنت أريده أن

يقول. لم تبق إلا ساعات قليلة ويرحل، واذا لم يتكلم الآن، فقد لا يتكلم أبداً. ضغطت على يده، وسألته من جديد:

ـ الدنيا لا تستأهل ان تعذب نفسك بهذا الشكل، ما الذي يعذبك؟.

هز رأسه وكتفيه، وعبرت ملامحه الحزينة عن شيء. لم يكن يريد ان يتكلم. احسست، أنه لو تكلم، فسوف يتعذب اكثر.. ومع ذلك لم أتركه، اعتقدت ان عذاب لحظة، بكاء لحظة، قد يخلصه. القيت رأسي على ركبتيه، وقلت له بتوسل:

ـ ارحمني يا رجب، لقد اسودت الدنيا في عيني، واذا لم تقل لي، اذا لم تتكلم، فسوف أقتل نفسي.

وسمعت صوته، بدا لي كأني اسمعه لأول مرة، كان صوتاً مبحوحاً يائساً:

ـ هذه الطريقة تعذبني اكثر يا أنيسة!

ـ اية طريقة؟ ما يعذبك؟.

ـ لا شيء، تأكدي انه لا شيء.

ـ وهذا الصمت والعصبية؟.

ـ ماذا تريدينني ان افعل؟.

ـ تكلم، أنا أختك وأريد أن أساعدك، قل لي ما في قلبك، انت تعرف ان الانسان اذا تكلم يرتاح. ما الذي يعذبك؟.

ـ ماذا تريدينني أن أقول يا انيسة؟.

ـ قل، قل أي شيء، المهم أن لا تترك شيئاً في قلبك.

وضحك بيأس، كان يريد أن يسيطر عليَّ ويعذبني، حتى اذا تلاشت الضحكة، قال وملامح وجهه تعربد بالحزن:

ـ وماذا تقولين اذا لم يبق لي قلب؟

وجلست مقابله على السرير. جلست مثل جلسته. ولا أعرف لماذا طلبت أن يشعل لي سيجارة.

ضحك هذه المرة مثل طفل، لكن بحزن أيضاً، وسألني وهو يسحب سيجارتين من العلبة:

- نبدأ السهرة من أولها؟.

واشعل السيجارة ومدها اليّ، ثم قال بنفس اللهجة:

- الا تعرفين أنني سأسافر في الصباح ويجب أن أنام؟.

وضحك وهو يراني ادخن. لأول مرة أراه يضحك. ربما كانت طريقتي في التدخين هي السبب!

اشعل سيجارته وقال:

- ابلعي الدخان.. ابلعيه، لا فائدة في أن تحصريه في حلقك ثم تتركيه!

وعب نفساً، وتابع:

- أنظري اليّ... لقد بلعت الدخان، وبعد لحظة اخرجه من فمي وأنفي.. انظري!.

ان رجب الذي أراه الآن، هو نفس الطفل الذي عرفته قبل اكثر من عشرين سنة. نفس الشاب الدامي الوجه الذي كان يعود من المظاهرات.. وعندما أراه الآن يعلمني التدخين، أتذكر كيف علم أمي. كانت أمي في البداية قاسية، شتمته اكثر من مرة، رمت السجائر في المرحاض، ولكنها تغيرت بعد أن أدركت أن طريقتها لا تجدي. بدأت تحذره، وتذكر له قصصاً كثيرة، حتى كان يوم اصبحا يجلسان عند أول المساء في الحديقة، على كرسيين واطئين ويدخنان. ضحك عليها كثيراً حين رآها تدخن بطريقة النفخ كما كان يسميها، ولم تمض فترة حتى اصبحت امي تشتري علبة سجائر، كل ثلاثة أيام، ثم لم تعد تكفيها العلبة اكثر من يومين، ولما سجن رجب لم تكن تفعل شيئاً سوى التدخين والبكاء...

قلت لرجب، أحاول ألا أذكره بكل شيء:

- يبدو أنني سأتعلم التدخين...

رد عليّ وقد عاد لملامحه الحزن:

- الأفضل أن لا تتعلمي!

- وانت.. لماذا تدخن بهذا الشكل؟.

- قريباً سوف أترك التدخين.. اشعر ان التدخين يتعبني، وأنت يجب أن لا

تتعلمي مثل امي!

التقط رجب الخيط. رفرفت صورة امي فوقنا. رفرفت مثل طائر كبير، تصطك اجنحته في الهواء. وتغير كل شيء في لحظة. قال يريد ان يجرني:

- امي كانت تدخن كثيراً... اتتذكرين؟.

- أتذكر.

حاولت أن أهرب، قلت اتذكر ولم أرد أن أقول شيئاً آخر، لكن رجب لاحقني، كأنه يريد أن نتحدث عنها، وعنها فقط. سألني:

- هل كانت تدخن كثيراً لما كنت في السجن؟.

- مثل قبل، اكثر قليلاً!

- نفس السجائر؟.

- نفسها.

- كم سيجارة كانت تدخن؟.

- علبة في اليوم!

وهز رأسه دلالة الاستغراب، كأنه يريدني أن لا أكف عن ذكر كل شيء، ولما وجد أن دفاعي الوحيد هو الصمت، سألني:

- وهل استمرت تدخن حتى اثناء المرض؟

- أوصاها الطبيب ان تنقطع، قالت له أنها لا تستطيع، وعندما وجدها مصرة طلب منها أن لا تدخن اكثر من سيجارتين الى ثلاث سجائر.

- وماذا فعلت؟.

حاولت أن ابتسم لكي اجعل الحديث عنها أقرب الى ذكرى بعيدة، ذكرى لا تولد حزناً من أي نوع.

قلت وقد تغيرت نبرة صوتي فأصبحت عالية ولها رنين:

- تصور. كل محاولاتي في اخفاء السجائر فشلت. كنت أمنعها. كنت ابعد

السجائر عن البيت كله، ولكن دائماً تجد طريقة. . تفتش عن السجائر حتى تجدها، تبعث ولداً لكي يشتري لها علبة سجائر دون أن أعرف. . وتضعها تحت وسادتها. . عرفت كل الأماكن التي كانت تخبىء فيها السجائر، ومع ذلك ظلت تدخن!

ـ ظلت تدخن كثيراً؟.

ـ ليس أقل من عشر سجائر!

ـ عشر سجائر في اليوم؟

ـ كانت تتوسل، كانت تستغل وجود الزوار، وبعض الأحيان تبكي وتتذكر السجن ورجب، واجد نفسي مضطرة لأن اعطيها سيجارة من اجل ان تكف عن البكاء وتنسى.

ـوظلت تدخن حتى اللحظة الاخيرة؟

ـفي اليومين الاخيرين لم تعد تستطيع. . انهارت تماما، اما قبل ذلك فقد ظلت تدخن رغم وصايا الطبيب، ورغم كل المحاولات لمنعها.

ـ وكيف ماتت امي يا انيسة؟

لا استطيع ان اتحدث عن موت امي بحياد. مهما حاولت لا استطيع. كنت امتلىء تصميما على الا اتحدث مع رجب عن موتها، رغم انه في اليوم الاول، قبل ان ننام، قال لي انه يريد زيارة قبرها في الصباح التالي، حاولت صرفه عن الفكرة، لكن شبح امي ظل يلاحقنا نحن الاثنين طوال هذه الايام، اقام معنا في البيت، وما يزال حتى الان. حاولنا كثيرا، كل بطريقته، ان نتحدث عن الامر، وان لا نتحدث بنفس الوقت. حاولنا ذلك كثيرا، اما الان، فاننا نواجه المشكلة، وهذه المرة دفعة واحدة!

في اليوم الثاني، بعد ان غادر رجب السجن، ذهبنا معا الى المقبرة. قال لي بعد ان وقفنا لحظات فوق القبر، ورأى دموعي، قال بعصبية:

ـارجعي الان يا انيسة.

ولما رآني واقفة لا اتحرك، ورأى دموعي، قال لي مرة اخرى:

ـارجعي الى البيت، وانا سأبقى هنا بعض الوقت، سأزور قبر ابي وقبر خالي.

ونتيجة لالحاحه عدت، رأيته وانا اخرج من المقبرة يتابعني بنظراته ليتأكد، ولا اعرف اي شيء فعل.

لكن عند الظهر، لما عاد، رأيته شاحبا، عصبياً، وتمنيت لو اني لم امتثل لكلماته وبقيت معه.

والآن يريد ان ينكأ الجروح كلها مرة واحدة، قلت له وانا افكر بطريقة لا تجعلني انهار امامه واغرق في بحر من الدموع:

ـلقد مضى على موتها ثلاث سنوات، ونسيت!

امسك بكتفي وهزني. كانت يده حنونة دافئة، والسيجارة في فمه تهتز، سألني وهو يغمض احدى عينيه، ربما من اثر الدخان، وبصوت غامض متداخل:

ـانت تنسين يا انيسة؟

حاولت أن أبتسم وأجبته:

ـنسيت يا رجب!

تراجع فجأة. اسند ظهره الى السرير ومد قدمه اليسرى على طولها، ورأيته يحاول ابعاد نظراته عني.. رجب لا يخطىء في معرفتي.. ان ابتسامات صغيرة، وبطريقة معينة، هي النذر الاخيرة قبل الانفجار. كان يعرف اني احتمل كثيرا، لكن فجأة ينتهي كل شيء، أسقط، أصبح مثل طفلة صغيرة لا يمكن لاحد ان يمنعها او يوقفها. رآني اكثر من مرة ابكي ذلك البكاء الصاخب المجنون، والآن، تراجع وغير جلسته، كان يحاول ان يسحب الذكرى كلها.

كنت أريد البكاء، كانت لديّ عشرات الأسباب، وتصورت اني اذا تركت لنفسي الحرية في البكاء فقد انقذ رجب أيضاً. كنا، نحن الاثنان، بحاجة الى أن نغتسل بالبكاء، ولا يهم السبب الذي نبكي من اجله، فقد كانت قلوبنا تمتلىء بالأحزان لدرجة ان اي شيء يكفي ليكون سبباً.

عندما سقط رماد السيجارة على الوسادة، انتفض ، نفضه بعصبية، وهو ينظر اليَّ وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه. قال:

ـ ما دمت نسيت كيف ماتت العجوز فإنك كبرت كثيراً، وربما نسيت كل شيء!.

ـ لست صغيرة يا رجب، عمري الآن يزيد على الأربعين.

ـ وهل ينسى الناس ويخرفون في هذه السن؟.

ـ المهم يا رجب، انت لا تعرف كم تحملت وكم تعذبت!

وهز رأسه هذه المرة. هل أتركه يفلت ويبقى يتعذب؟ لماذا لا نبكي معاً، ومن اجل امي هذه المرة، لكي يغسل نفسه ويعود إنساناً آخر؟.

قلت وأنا أغير جلستي فوق السرير، أتراجع واستند الى الحافة الواطئة:

ـ لا يمكن أن أنسى شيئاً يا رجب. . أتذكر كل شيء كما لو أني أراه الآن، وهل تتصور انني انسى امي وموتها بهذه السرعة؟.

تغيرت ملامح وجهه، وبدا بعينيه المتسعتين، اكثر رغبة في ان يسمع. التقط بسرعة سيجارتين من علبة جديدة، وقال يسألني دون ان يقطع عليّ افكاري:

ـ سيجارة؟.

ورفعت اليه وجهاً رافضاً، وربما كان متعباً ومتحفزاً في ذات الوقت. تركته يشعل سيجارته وينفث نفساً او أكثر قبل أن أبدأ تلك القصة الحزينة.

ـ أتعرف كيف ماتت أمي يا رجب؟ لماذا ماتت؟.

رأيت في نظراته اشعاعاً غاضباً، ينفذ الى أعماقي، تابعت قبل أن يجيب:

ـ لقد قتلوها يا رجب!

ودفنت رأسي في الفراش وأخذت ابكي. لا أتذكر اني بكيت هكذا في حياتي كلها. في لحظة تجمعت آلاف المواكب الحزينة، وضغطت على رأسي بقوة، حتى تصورت ان رأسي سينفجر، لكن والدموع تنزف من عيني بغزارة، رأيت المواكب الحزينة تتفكك، تتباعد، ثم تبتعد، وظلت صورة امي وهي تعود في ذلك اليوم، عند العصر، الصورة الوحيدة المليئة بالأسى.

لما رفعني ومسح دموعي، احسست انه استغل لحظات بكائي، وأنا أدفن رأسي في الفراش، وبكى هو الآخر. كانت عيناه حمراوين، لكن لم يكن فيهما دموع، وكان وجهه محتقناً من الألم وشديد الاصفرار، أما السيجارة فقد ظلت وحدها على المنفضة تتابع بدخانها مشهداً يائساً. قلت له وفي صوتي بقايا دموع

مضطربة:

ـ هم الذين قتلوها يا رجب، لولاهم لكانت حية الى الآن!

ـ كيف؟ من قتلها؟.

ـ لا أعرف، لو لم يقتلوها، لرأيتها الآن أمامك!

ـ اجلسي يا انيسة، لا احتمل اكثر، أكاد اختنق.

ـ قبل موتها بعشرة أيام.. كان يوم خميس، ذهبت مع امهات ونساء المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية. لا أعرف من الذي اقنعها بالفكرة، لكن خلال أيام لم تهدأ ولم تتعب وهي تنتقل من بيت لبيت، حتى تجمع عدداً من النساء، ويوم الخميس ذهبن لمقابلة الوزير. لم يسمح لهن بالدخول، أو بمقابلته. ولا أعرف من اقترحت أن لا يتركن المكان حتى يصلن الى نتيجة. كشفن عن رؤوسهن، ونفشن شعورهن، وبدأن بالصراخ والعويل، وقد صممت كل واحدة منهن ان تموت... انت تعرف موقف الشرطة، بدأوا بالضرب، بالصراخ، لكن لا فائدة. ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه. ويبدو ان الضربة التي تلقتها على أضلاعها عجلت في نهايتها.

قبضوا عليها وقبضوا على عشرات أخريات، وفي النظارة كانوا وحوشاً، ضربوها، أهانوها، شتموها.. وأبقوها حتى اليوم التالي، بعد أن عرفوا اسمها وجاءت تراجع من أجل من. عادت الى البيت عصر يوم الجمعة وبدا لي كل شيء منتهياً.

أصابتها الحمى منذ تلك الليلة، وكانت صحتها تزداد سوءاً، وتنهار كل يوم، ولم تتكلم إلا قليلاً، كانت تشتم وتدخن، وبعض الاحيان تبكي، أحضر حامد ثلاثة أطباء، أعطاها الأول ابراً، والثاني طلب اجراء تحاليل لها ثم اقترح ان تنقل الى المستشفى، اما الثالث، فقد وصل بعد أن ماتت بخمس دقائق...

كانت لا تذكر في الأيام الأخيرة إلا رجب. قالوا لها في النظارة ان رجب سيموت قبلها، وأنهم سيضاعفون مدة محكوميته، وأن رجب سيأكل ضرباً لا يحتمله حمار.

وفي اليومين الأخيرين، عندما كانت تصحو من الغيبوبة، كانت ترفع يديها الى السماء وتقول: «اللهم قو رجب، وأعم عنه عيون الظلاّم». وتشتم.

هم قتلوها يا رجب، وأنا منذ ذلك الوقت خفت، وحزنت عليك اكثر من حزني على امي. خفت أن يقتلوك!

وبكى رجب. كان يجب ان يبكي من اجل قضية محددة، مفهومة. أفهم بكاءه الآن، اما في الأيام الماضية فقد كان غامضاً، لم أكن أعرف لماذا يصمت ولماذا يبكي.

تركته يفعل ما يشاء. كانت الدموع مثل سيول صغيرة تتدفق، وتتساقط من عينيه على خديه. لم يرفع يديه ليمسحها، ليمنعها، تركها تسيل، ولم أتصور في حياتي أن الرجال يملكون هذا المقدار من الدموع.

في لحظة سكون، وأنا أحاول مسح دموعي، وانظر اليه بعيون جديدة، سمعت صرخة جعلتني ارتجف، قال بصوت حاد يشبه سقوط الحجارة:

- انت مجرمة يا انيسة، لماذا لم تقولي لي هذا وأنا في السجن؟.

- وما تستطيع ان تفعل يا رجب؟.

- لماذا لم تقولي؟ لماذا؟.

- كانت أحزانك تكفيك!

- لكن لماذا لم تقولي لي؟

- لا أعرف، تصورت اني لو قلت لك فسوف ازيدهمومك وحزنك.

- كنت بحاجة لذلك.

- انتهت تلك الايام يا رجب، يجب ان ننسى.

- ننسى؟.

- وهل نستطيع ان نفعل شيئاً آخر؟.

وضرب وجهه، وضرب جبهته. كانت صرخاته حادة مزقت صمت الليل، وكانت ضرباته مثل سكاكين تنغرز في القلب. هجمت عليه اريد منعه، دفعني بقوة، وضرب رأسه بالجدار، ولا أعرف ان كان حامد أفاق على الصرخات ام على ضربات رأسه.. رأيته فجأة ينتصب وسط الغرفة، وقد ارتاع وجهه لدرجة اني تصورته إنساناً آخر.

كان يجب ان نبقى وحدنا. فأي أنسان لا يستطيع ان يفهم مشاعر تلك اللحظة، حتى حامد، زوجي، الذي اعرفه، منذ ثلاثة عشر عاماً، بدا لي غريباً، وكدت أصرخ في وجهه لكي يخرج.. لكن رجب وهو يضرب رأسه بالجدار، وصرخاته المتشنجة المتدفقة من الألم الممض، لم تترك لي حرية التصرف.. رأيت حامد يهجم عليه، يمسكه من كتفيه ويهزه بقوة. ولا أعرف كيف بدأ الحديث من جديد.. أو متى.

في وقت ما، سمعت حامد، يقول بصوت قاس:

- يجب ان تناموا... لستم صغاراً لكي تتصرفوا بهذه الطريقة!

حين أطفأ رجب السيجارة، وتمدّد في الفراش، قال لي حامد بصوت حاد:

- انهضي يا عاقلة..

هل نام رجب بعد ذلك؟ لم يشعل الضوء، ولم نسمع صوتاً، لكن شيئاً في داخلي قال لي انه لم ينم. ظللت طوال الساعات الأخيرة مفتوحة العينين في الظلمة، انتظر.. كنت انتظر سماع صوته أو سماع طلق ناري رغم انه لا توجد في البيت كله اسلحة. كنت أتوقع صوت ارتطام رأسه بالجدار. عندما رأيته يضرب رأسه هكذا، خفت كثيراً، تصورت في لحظة خاطفة ان رجب اكتشف الطريقة التي سيقتل بها نفسه.. سيقف في اول الغرفة، ويركض بسرعة نحو الجدار المقابل ويضرب رأسه.. ان ضربة واحدة من هذا النوع تكفي لأن ينتهي.

لما انتظمت دورة النوم الأزلية، وأصبحت انفاس حامد منتظمة، عدت اتذكر من جديد: امي تقف في وجه الباب تمنعهم من الدخول. جاءوا عند الفجر، قبل الفجر بقليل، سمعنا صوت امي، كانت تصرخ في وجوههم، لكن دفعوها بقوة ودخلوا. قبضوا على حامد أول الأمر ، ظنوه رجب، لكن الهمسة الصغيرة التي وصلت الى اذن قائد المفرزة من احد العناصر، جعلته عصبياً اكثر مما تصورنا.. دفع حامد في صدره، وصرخ في وجهه:

- اين الحقير رجب؟.

وقلبوا البيت كله، لكن رجب كان قد استعد قبل ذلك بثلاثة أيام، واختفى. تركوا في البيت اثنين. كان الاثنان يتغيران كل بضع ساعات، وكانا يجلسان، اغلب الوقت، في الصالة، في مواجهة الباب. كانا يقفزان مثل الذئاب اذا سمعا خطوات

تضرب، يفتح احدهما الباب، والثاني يشهر مسدسه ويقف في الناحية الثانية. افزع الصغار وابكوهما، اما نظراتهما الى الكبار فكانت اتهامات مباشرة حاقدة. كانت عيونهما من نار، وطلباتهما لا تحتمل التأخير أو المناقشة. باختصار قلبا حياتنا كلها خلال تلك الايام الكئيبة ، لم نكن نستطيع ان نتجول أو أن نتحرك، وفي اليوم الرابع، عندما وصل رجب بعد الغروب قبضا عليه.

قبضوا قبل ذلك على خالد وأدمون. كانوا فرحين بخالد وكانوا ينتظرونه منذ فترة طويلة، واعتبروا صيده أثمن صيد في تلك الفترة. اما رجب فقد تملكه الغضب حين رآهم أمامه، انقضّ بشراسة، اخذ يضرب ويشتم.. لكن لم يقاوم طويلاً، سقط بعد ضربة على رأسه، بكعب المسدس، وظهرت أصابع حمراء منتفخة على وجهه، اما صرخات امي واظافرها وهي تدافع عن رجب فقد ذهبت أدراج الرياح.. دفعوها بقوة، قالوا لها كلمات لم تستطع ان تنساها الى ان ماتت. قال لها القصير الذي ضرب رجب بكعب مسدسه، كان يعربد من الغضب والتعب:

ـ ابعدي يا قذرة، لولا انك قحبة، لما خلفت ابن الحرام هذا!.

بعد فترة قصيرة من القبض عليه، رجع الذي ذهب لاستدعاء العناصر، اما الآخر، فقد ظل مستنداً الى الجدار وبيده المسدس. كان عصبياً وخائفاً، امرنا أن نبقى في اماكننا، وهدد بأن يطلق النار على أي واحد يتحرك من مكانه.

لما اخذوا رجب، ولولت امي وركضت وراءهم. تجمع الناس في الزقاق، لكن احدهم وقف وهو يرفع مسدسه وهدد كل من يتقدم. حتى امي، لم تستطع ان تتابع، امسكها الرجل أول الأمر، ثم تدخل الناس في الزقاق، وقالوا لها كلمات أقرب الى الخشونة.

• وبدأت امي تدور.. كانت تخرج من الفجر ولا تعود إلا بعد الغروب. لم تترك مركزاً إلا وذهبت اليه، لكن دائمًا ينتظرها نفس الجواب:

ـ ليس عندنا احد بهذا الاسم!

كانت تريد ان تتأكد من شيء واحد: ان رجب لا يزال حياً. لم تكن تتمنى اكثر من ذلك، ولم يقل لها احد تلك الكلمة اللعينة. ظلت تبكي طوال وجودها في البيت ودموعها تسبقها:

ـ انيسة... ماذا تقولين لو ذهبت الى الحاج مصطفى الغزاوي، انه يعرف

اناساً كثيرين، ويمكن ان يساعدنا؟ قبل طلوع الشمس سأذهب الى بيت مدير الشرطة، سوف أقبل يده، اريد ان يطمئنني ان رجب ما يزال حياً. الكلب أبو سعدي لم يشأ أن يتطلع في وجهي، قال لزوجته ان لا علاقة له بالأمر، ويجب ألا أسأله مرة اخرى.

وحامد.. استعان بكل الناس الذين يعرفهم. اصبح عصبياً دائم الصمت، فإذا سألته صرخ في وجهي، اما اذا سألته امي فكانت تبدو عليه علامات الضيق ويردد بعض الكلمات التي اصبحت تثير امي اكثر مما تطمئنها.

أربعة شهور كاملة ولا أحد يعرف عن رجب شيئاً. لبست امي طرحة سوداء وعصبت جبينها بشريط أسود. عافت نفسها الأكل وقالت بيأس مميت: «قتلوه.. أربعة شهور وهم يضربونه، لو كان جملاً لقتلوه». وأثر السهر والقلق على صحتها، تحولت الى شبح، لا تعرف للراحة طعماً. واذا كانت في البيت تشق الباب وتتطلع الى الشارع، لعل أحداً يأتي ويقول لها كلمة، فإذا يئست جلست في الركن صامتة، لا تكلم احداً. اما كلماتها وهي تنبه على الجميع ان يتركوا لها فتح الباب اذا دقه احد، فقد حفظها الصغار وظلوا يرددونها فترة طويلة.

ويوماً بعد آخر بدأت تتعوّد، ولكن رافق العادة ذلك الغضب الذي يتحول الى ثورة لأبسط الأمور. كانت تصرخ في وجوه الصغار، تبعدهم عنها بغلظة، وتغضب اذا ضحكوا بصوت عالٍ، وتغضب اذا ضجوا ولعبوا. لم تعد تطيق ان ترى احداً يضحك، قالت لي مرة، لما رأتني اضحك:

- لم يبق إلا أن تحنيّ رجليك.. مات رجب وعليك الآن ان تفرحي وترقصي!

ندمت كثيراً على تلك الضحكة حين رأيت أمي تبكي. ولم تكف عن البكاء إلّا بعد فترة طويلة، وظلت أياماً لا تتكلم معي!

ظلت أمي هكذا، حتى كان يوم رجعت فيه وتغيرت تماماً.. قالت وهي ما تزال في حوش الدار قبل ان تدخل:

- انيسة.. يا أنيسة، رجب عايش، رجب حي.

وحدثتني كيف ذهبت الى السجن، وظلت هناك ساعات طويلة، حتى اذا رأت ذلك الشرطي الذي يشبه ابن عمتي محمود، كما قالت، هجمت عليه، تريد

أن تقبل قدميه، ورجته ان يساعدها فقط في معرفة ما اذا كان رجب داخل السجن. . رق قلبه وقال أنه سيتأكد من ذلك حالما يعود الى السجن، في الثانية بعد الظهر. . وانتظرت من الثامنة والنصف حتى الرابعة، وكانت اكبر بشرى في حياتها حين قال لها انه في السجن.

ظلت طوال الليل تكرر القصة وكل مرة تضيف اليها تفاصيل جديدة، لكن القلق بدأ يساورها من جديد. ماذا لو كان يكذب عليها؟ ماذا لو كان في السجن شخص آخر بنفس الاسم؟ ماذا لو أخطأ في السؤال؟ كانت تريد ان تتأكد، فكرت طويلاً تلك الليلة ، وقبل طلوع الشمس هيأت صرّة صغيرة وضعت فيها ملابس وبعض الأكل وذهبت!

وظلت تعود كل يوم وهي تحمل نفس الصرة. كانت تبقي الملابس، اما الأكل فتخرجه، لتهييء غيره لليوم التالي.

رجب اكثر من أخ بالنسبة لي، رغم السنين العشر التي تفصلنا. اتذكره عندما كان طفلاً، واتذكره، وهو معصوب الرأس، بعد المظاهرات. اتذكر ضحكاته وُصرخاته وغضبه. لكن رجب الذي يرقد في الغرفة المجاورة انسان آخر. كبر كثيراً في الشهور الأخيرة. . لم أتصور الانسان يمكن أن يكبر بهذه السرعة، ولكني رأيته بعيني. . وهو يكبر كل أسبوع.

لما رأيته قبل شهرين تشبثت بالباب الحديدي وبدأت أبكي بصوت عال. تصورت اني لن اراه بعد ذلك. كانت عيناه تغوران في وجه معروق أصفر، كأنه قام لتوه من مرض خطير، وأنه سيستأنف المرض، وبشكل أشد بعد أن أتركه. مددت يدي الى وجهه أتلمسه، ولم يفعل مثل المرات السابقة، ترك يدي ترتاح على وجهه، ولما رفع اليَّ عينيه مرة اخرى رأيته كما لم أره من قبل.

كنت ألوم امي كثيراً، وأنا أراها كالنحلة تحوم في البيت والأزقة طوال النهار، كانت تقضي وقتها أمام باب السجن، وعندما تريد أن تستريح تذهب لأم سجين آخر وتبدءان معاً الندب والذكرى. قلت لها مرة وبتحريض من حامد بعد أن ملَّ الجو الكئيب:

ـ سافري عند عمتي ، هناك يمكن ان تستريحي!

نظرت اليَّ بمرارة ولم تجب أول الأمر، ولما رأيتها صامتة ونظراتها أقرب الى

اللوم، قلت:

- رجب ليس أول رجل يسجن، ولن يكون الأخير، ولو عرف انك تفعلين هذا كل يوم لغضب.

صرخت وكان صوتها غاضباً وحزيناً:

- وماذا فعلت؟ هل سرقت؟ هل نهبت؟.

- لا.. ولكن الدوران في الشوارع، ماذا يفيد أن تظلي هكذا؟.

- اسمعي يا انيسة، لا تتدخل في اموري ابداً، انا كبيرة وأعرف ماذا يجب ان افعل!

- ولكن الناس يتكلمون...

- عن أي شيء؟.

- يقولون أم أسعد جنت، طوال الليل والنهار دايرة على كعبها.

- لم أقم بعمل مخجل أبداً.

- ابقي في البيت، ويوم الزيارة زوري رجب، وهذا هو الشيء المعقول.

- والشيء غير المعقول؟.

- ان تكوني بهذا الشكل!

- سأظل بهذا الشكل مهما قال الناس واذا لم يعجبك ارحلي انت وزوجك!

وظللنا فترة لا نتكلم. جاء حامد ذات يوم، قلقاً مضطرباً، ولما ألححت في السؤال قال لي أن ثلاثة سجناء قتلوا، لأنهم حاولوا الفرار، وأضاف وهو يبتسم بحزن: هكذا كتبت الجريدة! كانت تأكل، كانت تجلس على الأرض وأمامها صحن معدني لم تغيره منذ وقت طويل، وقد وضعت قطعة اللحم جانباً على قطعة من الخبز، لعلها تأخذها لرجب. رغم اننا كنا في يوم الأربعاء، أي قبل الزيارة بيومين! لما رأتني توقفت عن الأكل، تطلعت اليَّ باستغراب، وتساؤل، رغم محاولتي ان ابدو هادئة. نحّت الصحن جانباً ونظرت اليّ، وقبل أن تسألني قامت بحذر، حملت السلة ولم تنس أن تلتقط قطعة اللحم وتمضي!

وفي المساء ظلت ساعات طويلة تلح عليَّ لأقول لها ما سمعت. قلت لها كل شيء، وأكدت ان الحادث وقع في السجن الصحراوي البعيد، فلم تقتنع، وأيقظت حامد، بعد منتصف الليل والدموع في عينيها لتطلب منه الذهاب معها الى مدير الشرطة في تلك الساعة المتأخرة.. والحَّ عليها حامد كي تؤجل الأمر الى الصباح، ولما يئست فتحت باب البيت وجلست على العتبة حتى الصباح!

كنت أتصور أن ما تفعله أمي يسيء الينا كلنا، والى رجب بشكل خاص. كنت اعتبر موقف رجب خاطئاً منذ البداية. اذ ما فائدة العمل الذي يقوم به؟ وهل يستحق هذي السنين الطويلة التي يقضيها في السجن؟ وامي، ماذا يجدي ان تذهب من بيت لآخر والسجناء في سجنهم بعد أن صدر عليهم الحكم؟.

كنت أتصور الأمر خطأ، لكن ظلت تصوراتي تنام في صدري، لم أقلها لأحد، حتى حامد وهو يسخر من السياسة، كان يضطرني ان أدافع عن موقف رجب، وقد أدى ذلك الى خصومات كثيرة.. اما مع أمي فقد كان الأمر مختلفاً تماماً، إذ أحسست ان كلمة واحدة أو التفاتة تصدر عني، تسيء إلى رجب فإن ذلك يمكن أن يدفعها الى الجنون. آخر مرة بعد صدور الحكم بشهور، قالت لي:

- اسمعي يا أنيسة، اذا سمعت كلمة واحدة عن رجب فلن تراني عينك، سأرحل.

بعد وفاتها تغير كل شيء. ندمت كثيراً على تلك الأفكار التي كانت تنطح رأسي بين فترة واخرى، وندمت أكثر على الكلمات التي قلتها، بل تصورت ان موقفي ساعد على موتها بهذه السرعة.

منذ أن ماتت، قررت ان اكون لرجب اكثر من أخت. اصبحت أمه واخته في نفس الوقت، وتحملت من أجل ذلك اكثر مما تحتمل امرأة في مثل سني.. حتى حين كنت اسافر الى تلك القرية الملعونة، على أطراف الصحراء، كنت أواجه احتمال الطلاق من حامد. وكنت لا أتكلم عن التصرفات التي أتعرض لها: بصقت في وجه اثنين من الشرطة عندما اسمعاني كلمات بذيئة، ونزعت حذائي اكثر من مرة وهددت المخبر بالضرب، اما الانتظار والجلوس على باب السجن، فقد تعودته تماماً وبدأت اجد لذة حين اسمع قصص الامهات والزوجات عن الابناء والأزواج، واصبح لديّ شيء يمكن أن أرويه عن رجب!

بعد فترة من الزمن اصبحت بنظر النساء امرأة لها ميزة تفوق الكثيرات. كيف

ان رجب حكم احدى عشرة سنة، وظل معلقاً سبعة أيام بلياليها في السقف، وأنه تعرض لعذاب لا يحتمله انسان. كانت النسوة يستمعن اليّ بخوف ممزوج بالاستغراب والتقدير، وكنت لا أمل أبداً من اعادة هذه القصص، التي كان لها أن تنهي بكاء امرأة عجوز، أو بنت صغيرة، بصورة خارقة. كنت أقول لهن: كل ما تسمعنه من الشرطة كذب، فالشرطة تقول هكذا كي [illegible]. ولو صح ما يقولونه فإن الرجال قادرون على الاحتمال اكثر مما نتصور.. ماذا تظنن؟ اخي رجب اسماعيل، ظل ثلاثة شهور وسبعة أيام في المنفردة.. كان ينام ويأكل، دون أن يرى انساناً أو يسمع صوت انسان، ليس هذا فقط، رأيته مباشرة بعد هذه الفترة كان اكثر شجاعة وأقوى من ذي قبل!

نفس القصص التي كانت ترددها امي بدأت أرددها، وكأني سمعتها من لسان رجب مباشرة، لم يقلها احد، بل رأيتها بعيني واصبحت مقتنعة بكل كلمة، وكانت النساء في أغلب الاحيان يسألنني عن أدق الأمور وأصعبها.

لكنني لم استطع ممارسة هذا الدور حتى النهاية. لما رأيت رجب قبل شهرين مريضاً، ونوبات الاغماء تتكرر، وجدت نفسي احارب نفسي اكثر مما أريد ان احاربه. قال طبيب السجن، وهو من نفس قرية حامد:

ـ يجب ان تفعلوا شيئاً من اجله وبسرعة.. اذا تأخرتم خسرتم الرجل!

لما قال لي حامد ذلك أصابني الخوف.. تصورت ان رجب لن يموت فقط، وانما سينتهي معه كل شيء. اسودت الدنيا في عيني، وبدأت أحاول. نسيت كلمات امي التي ظلت ترددها لكل من يسألها، حتى قبل ان تموت بأيام قليلة.

قالت مرة لعمتي، وهما تتحاوران:

ـ ماذا تظنين يا حسيبة.. رأس مال رجب شرفه، اذا فقده فقد كل شيء.. ثم أنا أعرفه، الله يسلمه، عنيد ورأسه مثل الصوان.

قالت امي هذه الكلمات عشرات المرات، كانت ترددها لنفسها، حتى لو لم يسألها احد، كانت تقولها امامي وأمام حامد لكي تحارب تلك الافكار التي تدور في رؤوسنا، حتى لو لم نقلها.

في يوم ماطر، عند أول المساء، دخلت مبللة ترتجف، ظننتها أول الأمر ترتجف من البرد، لكن ما كادت تجلس قريباً من النار، حتى خرج صوتها غاضباً:

ـ الله يقطع هذي الآم... هذه ليست أماً، هذه مزبلة، نكون جالسين بانتظار أن يسمحوا لنا أو أن يأخذوا الأكل، وما أن يظهر آمر الحرس، ويبدأ ينادي على الاسماء، حتى تولول والدموع على خديها قناطير. قبل دقيقة كانت امرأة عاقلة، تحكي وتنتظر، لكن حين تدخل على ابنها تسبقها أصواتها.. تبكي، تولول، تصرخ.. هذه الأم تقتل...

وتصمت أمي ريثما تجفف شعرها على طرف النار، بعد أن تفرده. تنظر اليّ لترى آثار كلماتها، ثم تتابع، وهي ترخي الجديلة الثانية وتقلبها:

ـ ام.. ما أحقر مثل هذه الأم، اليوم خرج ابنها، خرج بعد ان اعترف على جماعته ووقع.

وتتطلع اليّ، كانت نظراتها تبدو حانقة، اكثر من كلماتها، وكنت أتصور ان أمي تقاوم قوة خفية، تعاودها بين فترة وأخرى على شكل خوف أو رغبات غامضة. لكن كانت تخاف منا اكثر مما تخاف من نفسها.

نسيت كلمات امي تماماً لما رأيت رجب ذلك اليوم. وعندما جاءت كلمات الطبيب، تصورت اني لن أراه مرة اخرى، وقررت ان اخترق مقاومته.

تقلب حامد، ضرب بيده طرف السرير، كأنه يقاوم قوة تحاصره، لما استقر في الفراش من جديد، انتزعت نفسي، مشيت على اطراف أصابعي، حتى اذا اقتربت من باب غرفة رجب، انصت..

كان يقطع السكون صوت اسنان تصطك.. رجب نائم اذن. اتذكر صريف الاسنان، تلك العادة التي لم يتخل عنها ابداً. كانت تسأله امي ان كان قد رأى احلاماً، كان يحاول ان يتذكر، وأغلب الاحيان لا يستطيع، حتى اذا سألها عن سبب سؤالها، اجابته وتلك الابتسامة تملأ وجهها:

ـ قلت لنفسي ستفتت اسنانك، وكان صوتها عالياً وهي تصطك.

تعود رجب على السؤال. كان وجهه يتقلص وهو يحاول التذكر، لكنه لا يتذكر أو على الأقل، لم يكن يتحدث عن احلامه.

تطلعت الى الساعة الموضوعة على طرف الشباك، كان فسفورها يشع مثل حبات صغيرة راكضة. استغربت ان الساعة بلغت الثالثة والنصف. في السادسة يغادر رجب، يسافر، وقد لا أراه مرة اخرى.

لم يبق إلا ثلاث ساعات، ساعتان، وتنتهي تلك الأيام التي كونت حياتن معاً. لم تكن حياة حلوة.. كانت صعبة، ومع ذلك احبها اكثر من أية أيام أخرى. خلال سجنه كنت انتظر الجمعة، وكأني طفلة صغيرة.. ماذا انتظر بعد الآن؟.

ان شيئاً في داخلنا تمزق، احسست بذلك ونحن نمد أيدينا الى الطعام في المساء الأول بعد ان خرج رجب من السجن.

كان الجو ثقيلاً.. رجب صامت أغلب الوقت، لا ينظر الى احد، والمرح الذي حاول حامد أن يخلقه لم يجد على شفتي رجب إلا ابتسامات شاحبة، كانت ابتسامات حزينة وتغيب بسرعة، ويحل مكانها صمت ثقيل، ينذر بأخطار كبيرة.

تجنبنا الحديث عن السجن. لم نسأله إلا أسئلة عادية لا تثير ذكرى، وتجنب اكثر منا أن يتحدث. وفي كل المرات التي جلسنا فيها معاً، كان يحاول ان يظل صامتاً، لكن رغبتي في ان أخرجه من صمته دفعتني لأن أهذي واتحدث في امور كثيرة غير مترابطة. كان يسمع ولا يجيب. حتى اسئلته، كانت من ذلك النوع الذي لا أعرف كيف يتذكرها.. الآن تبدو لي الأمور اكثر وضوحاً.. كنت اجيب عن تساؤلاته الصغيرة بسرعة، لم أكن اتصور انها تعني اكثر من تساؤلات.

سألني عن جارنا الأسود.. قلت له مات. سألني عن تمام الخادمة العجوز، قلت له ماتت. سألني عن أم جعفر، قلت له أنها ماتت قبل دخوله السجن، ولم يستغرب اجاباتي.

في وقت ما، وأنا أدور حوله ملهوفة وكأني معصوبة العينين، أريد أن أفعل شيئاً، لابعاد الكآبة الثقيلة التي تخيم على الدار، والتي سرت عدواها الى الأولاد، فأخذوا يلزمون الصمت أغلب الاحيان، أو يذهبون الى الخارج ليلعبوا، حاولت أن أذكره بأيام لعبه، وحين كنا في المدرسة... رأيته مرة واحدة يضحك ضحكة صغيرة فرحة، لكنه زمها بسرعة، وبدا على وجهه ما يشبه الندم!

قبل ثلاثة أيام، وكنت أسير امامه في الحديقة، خلف الدار، أريد أن أريه الأزهار الجديدة، وشجرة المانوليا التي كبرت، سألني دون تمهيد عن هدى!

ما زال الجرح في قلبه ينز. لم ينسها، ولم تغب عن فكره، كان سؤاله متلهفاً ومباشراً، قال لي وعيناه الى الأرض:

ـ ما اخبار هدى، يا انيسة؟ هل ترينها؟ ألم تسأل عني؟.

حاولت كثيراً تجنب كل ما يذكره بها. لم اذكر عنها شيئاً، ولم أعطه بعد الرسالة التي تركتها، وأوصتني ألا يقرأها إلا بعد ان يترك السجن، قلت لنفسي، وأنا أحارب الافكار التي تدفع بطيفها: «اصبحت الآن بعيدة، والاحسن أن ينساها، أما الرسالة فسوف أتصرف فيها بشكل ما».

أعرف هدى، كانت تريد ان توضح له شيئاً ما. قالت لي عندما أغلقت الرسالة ودفعتها اليَّ مع تلك الدمعة الراجية «احفظي سري».. ولم أشأ إلا احترام هذه الرغبة، كنت أريد في ذلك الوقت ان أترك لرجب ذكرى مضيئة، أما الآن، وأنا أراه حزيناً لهذه الدرجة، فقد تصورت ان قراءة مثل هذه الرسالة قد تتعبه، وتولد في نفسه احزاناً جديدة، وصممت أن اكتم امرها.

قلت له، وأنا لا أزال أسير أمامه وعيناي تتيهان في الأفق البعيد، احاول ان اتخيلها بالصورة التي يحبها رجب:

ـ لن أقول لك، هذه المرة، ان هدى ماتت، لا.. انها لا تزال حية. وبيتها لا يبعد كثيراً من هنا، ولكن هدى تغيرت، تغيرت كثيراً. اصبحت الآن سمينة، أسمن مما تتصور، وتذهب الى حفلات الاستقبال، وتتحدث بمناسبة وبدون مناسبة عن زوجها!

ـ الم تسأل عني أبداً يا أنيسة؟.

ـ في البداية كانت تسأل، لكن منذ سنة، أو اكثر، لم أرها إلا مرة أو مرتين.. ولم تسألني...

وأضفت وأنا أحاول تخفيف اثر كلماتي:

ـ عندما رأيتها لم تكن وحيدة، ولم أستطع أن أراها على انفراد.. ربما كان هذا هو السبب الذي منعها من السؤال!

ظل صامتاً يسير. لا أعرف عالم الرجال إلا من خلال رجب وحامد! وحتى هذا العالم، لا يبدو لي واحداً أو متشابهاً. وحين اتذكر هدى الآن، اتصور انها حاولت كثيراً. كانت تبكي. كانت تقضي عندنا ساعات طويلة، ولا تفعل شيئاً إلا البكاء. سألتني مثل طفلة صغيرة: «هل أهرب يا انيسة؟ لا أطيق أن اتزوج غير رجب». لكن رجب كان بعيداً ومستحيلاً، وأهلها كانوا يلاحقونها ويحاصرونها، ولم تكن تستطيع ان تتخلص.

حاربت شبحها، عندما كان يسألني عنها وهو سجين. قلت له أشياء لم تحصل، ولكن ماذا أستطيع؟.

ومع الايام تغيرت هدى.. تغيرت فعلاً هذه المرة. لم تعد تسأل، لم تعد تبكي، خلقت لنفسها عالماً جديداً، وبدأت تصبح جزءاً منه. اما الرسالة التي تركتها لرجب، فقد حاولت بعد سنة من زواجها أن تستردها. الحت كثيراً، رجتني ودموع الخوف تملأ عينيها، قالت ان زوجها سيقتلها لو عرف بذلك.. وحين قلت لها اني احرقت أوراق رجب كلها، وأول ما أحرقت رسالتها، بدت غاضبة وشاكة.. وكانت كلماتي تلومها اكثر مما تقنعها، وأنا أقول: كل العالم القديم احترق ولا أريد أن نتحدث عن الأمر من جديد!

قلت لرجب.. وأنا امسك بيده لكي اكتشف عالمه الداخلي:

ـ امي زرعت لك هذه الشجرة، زرعتها بعد شهرين من سجنك.

قال بتساؤ ل لذيذ:

ـ شجرة حور!

ـ نعم شجرة حور، وقالت عندما يخرج رجب من السجن سيكون كبيراً شامخاً مثلها!

ولأول مرة رأيت وجه رجب يتقلص من الألم، ثم تركني بسرعة. ارتكى على حائط الدار باستسلام يائس، وبعد لحظة صمت مدمرة بكى. كان بكاء متوجعاً، أقرب الى النشيج.

تراءى لي في فترة من الزمن ان الحديقة التي حدثته عنها حين كان سجيناً، ستخلق في نفسه الفرح، ولكنني الآن وأنا أشير الى الاشجار واحدثه عنها تصورت انني اقتله.

تركته يبكي. لم أفهم اول الأمر. ظننت ان ذكرى امي هي التي دفعته لهذا البكاء، لكن لما استعدت الكلمات وجدتها حادة، نازفة بالمرارة..

قبل ان ينتهي ذلك اليوم، رأيت رجب والعرق المريض يغسله تماماً، كان يحاول قطع الشجرة، وبعد ان تعب، عاونه حامد. لم نسأله سبباً، ولم نحتج على ما يفعله، تركنا له ان يتصرف دون كلمة احتجاج واحدة، اما حامد، فقد قلت وأنا

اقنعه بالحاح لكي يساعده:

- بعض الناس يتوهمون خصومهم بالأشياء المادية.. رجب يتصور هذه الشجرة عدواً.. لا نريد ان نناقشه.. المهم أن تساعده!

ساعده حامد بصمت. ظلا يعملان معاً، وعندما هوت الشجرة، تداعى جزء من السور. وفي محاولة يائسة، للاعتذار، قال رجب بطريقة مرتبكة:

- سأبني غداً هذا السور بنفسي.

فرحت عندما سقطت الشجرة، اما حامد فقد أغرق بالضحك بعد ان استراح، واخذ ينظر الى رجب تلك النظرة التي تمتلىء بالمودة، وكانت ابتسامة ظافرة على وجهه عندما قال له:

- مثلما قرأنا في القصص... هذه الشجرة هي رمز للماضي.. والآن بعد أن انتهت وسقطت سقط معها الماضي وانتهى، ماذا تقول يا رجب؟

قال رجب بكلمات بطيئة اقرب الى الغموض:

- هذا النوع من الاشجار، النوع الضامر، الطويل، يولد في نفسي حزناً، ومن أيام بعيدة وأنا أكره الحور والسرو، انها اشجار كئيبة!

حاول حامد أن يتحدث عن الاشجار، عن الماضي، لكن رجب الصامت أول الأمر، ثم الذي نهض فجأة وبشكل عصبي، جعله يتوقف، وكأنه احس بخطئه!

بعد ذلك اليوم، ظل رجب في غرفته، لم يغادرها إلا قليلاً. أما السور الذي قال انه سيبنيه، فقد طلب مني في صباح اليوم التالي أن أفتش عن رجل ليقوم بهذا العمل، تقبلت الأمر بهدوء، ولم أكن لأحتج على أي تصرف. كنت أريده ان يفعل ما يريحه، فلو بناه لما قلت كلمة واحدة، والآن وهو يسألني أن افتش عمن يبنيه قلت وأنا أتظاهر بالمرح:

- أنت تهدم وحامد يبني... وحتى اذا لم يبنه حامد، فسوف نفتح للحديقة باباً آخر.

وهز كتفيه دلالة الاستخفاف، وعاد الى غرفته، وأغلق الباب وراءه!

الآن.. مرة أخرى نسير في الحديقة، ورجب يسألني عن هدى.. ماذا أقول

له غير هذه الكلمات الميتة؟ ان هدى في ذاكرته هي تلك المرأة التي تقفز مثل غزال، تضحك، تغني، وبعض الأحيان يحمر وجهها من الانفعال، اذا اختلفت معه حول أمر من أمور السياسة، التي لم تكن تفقه منها إلا القليل!

رفع حامد رأسه في الظلمة. كان يريد ان يتأكد ان كنت قد نمت، أغمضت عيني بسرعة، ثم بعد برهة صغيرة، وكرد فعل لحركته، استدرت الى الناحية الثانية، وتظاهرت بالنوم!

ربما تجاوزت الآن الرابعة.. سيضيء رجب النور، قال لي في الليلة الماضية ونحن نطلب اليه أن ينام مبكراً:

ـ سأضع الأشياء التي استعملها في الحقيبة الصغيرة، سأرتبها بنفسي لأعرف مكانها.

وحاول أن يغير لهجته ليدخل الطمأنينة الى نفسي، تابع وهو يضرب كتفي بمودة:

ـ سأنهض مبكراً لأحلق وأرتب الأشياء.

سينهض رجب.. ربما نهض الآن، لم يضيء النور، لكن لا يمكن أن يستمر نائماً...

في الايام الماضية راقبته بدقة.. كان ينهض مبكراً، ولا أعرف أين يذهب، خفت كثيراً لما رأيته في اليوم الثاني يخرج وتعمدت أن أنتظره.

يا إلهي كم تغير رجب، لم يعد ذاك الذي اعرفه، الذي عشت معه. انه الآن انسان آخر. هل مات رجب ذاك؟ هل تركه في السجن؟ والانسان.. هل يمكن أن يتغيّر بهذا المقدار؟ الصوت المشبع بالثقة والمودة، تراجع ليحل مكانه صوت هامس يخنقه البلغم والسعال، العيون الضاحكة، التي كانت تسميها أمي عيون اللصوص، انطفأت تماماً، عيونه الآن مثل مرايا مجللة بالبخار، لا ترى أبداً، تتطلع، لكن لا ترى. آه لو تركني رجب اتطلع الى جسده. هل يمكن أن يتغير الجسد ايضاً؟

قلت له والأطياف والأفكار تتراكض في رأسي بسرعة مجنونة:

ـ السجن غيرك؟.

ـ لا.. لم أتغير، واذا تغيرت، فنحو الأحسن!

ـ السجن يغير الانسان الى الأسوأ، ألا ترى كم كبرت؟ كم تعبت!

ـ ولكن لم أعد أعتمد على احد.. تعلمت أشياء كثيرة: غسيل الملابس، الصحون، ولا تستغربي يا انيسة اذا قلت لك أني اصبحت اشطر من امرأة في خياطة الأزرار والرقع.

ـ وتعلمت ان تغتسل وحدك؟.

ـ في البداية كنت احك ظهري بالجدار، لكن تعلمت ان امسك الليفة من الناحيتين وأفرك.

لو أرى جسده لأتأكد من الجروح في الساقين، والكتف، ألا تزال جراحك التي اتذكرها في مكانها؟ ألم تتغير؟.

لا يريدني ان ارى جسده كي لا أكتشف الآثار التي قالوا انها في أجساد السجناء مثل الخرائط، ولكن ألا تتغير تلك الآثار؟ سمعت قصصاً كثيرة عن السجناء الذين يفاخرون وهم يشيرون الى آثار التعذيب... الورم في الأرجل، العلامات الزرقاء على الظهور، كانوا ينظرون الى العلامات بدهشة يمازجها الشعور باللذة، كأنهم يكتشفونها لأول مرة. نظرت الى جسد رجب قبل أيام، كان يمد ذراعه في كم القميص، تقدمت منه دون أن أشعر، ووضعت أصبعي على كتفه قريباً من الصدر، أتحسس نتوءاً متورماً.. رفع ذراعه بسرعة، يريد أن ينتهي من ارتداء قميصه، ولما رأى السؤال في عيني قال:

ـ لا تظني ان كل شيء من السجن.. هذا مكان الجرح عندما سقطت عن شجرة الجوز.. الا تتذكرين؟.

اتذكر ان ذراعه كسرت، ولكن لا أتذكر ورماً أو علامة، وحتى لا يترك الفرصة لأسأله قال:

ـ لا يتركون علامات.. ولا يحبون ان يكون السجين مشوهاً، حتى لو اعترف فإنهم يحتفظون به الى ان يشفى!

ـ هل ضربوك كثيراً يا رجب؟.

وبعصبية رد، كأنه فوجىء بالسؤال، ولا يطيق ان يتحدث:

ـ لا.

ـ والاخبار التي سمعناها؟

ـ كذب.. كلها كذب.

لم استطع أن أصدقه، تمنيت لو أرى جسده، لو رأيته بنظرة خاطفة، اقرأ فيه كل شيء: الآثار، التغيرات، الكبر، ولكن رجب يعتبر جسده، منذ وقت بعيد، سراً، ولا يبيح لأحد أن ينظر اليه. اتذكر عندما سمع قصة ذلك الرجل الذي سكن بعيداً من بيت خالتي، والذي كان يحلو له أن يتعرى من أغلب ملابسه ويصعد الى السطح،، عندما سمع رجب أن أولاد الحي ضربوه وأرغموه على أن يترك البيت، قال لأمي وهي تتحدث عنه:

ـ الحيوانات تقرف من النظر اليه، ماذا يظن؟ هل يتصور ان النساء يتراكضن عليه ويرتمين تحت أقدامه؟.

ولم يعلق أحد على تلك القصة، لكن رجب قال لمنعم، ابن خالتي، بعد أيام وهو يسأله عن الرجل:

ـ لو كنت مكانك، لأركبته حماراً بالمقلوب وجعلته يسير في الشوارع! ألا يخجل من كرشه؟ من مؤخرته التي تزيد عن خنزير؟.

ان شيئاً في جسد رجب يسبب له الخوف، لست متأكدة، لكن لما سألت حامد عن شبابه وحاولت أن أقارن، تبين لي أن الاثنين يختلفان، فحامد لا ينسى أبداً القصص التي تؤكد قوته، كان يكررها بلا ملل: «ثلاثة كانوا.. وكنت وحيداً لم يكن معي سلاح، لكن تظاهرت ان شيئاً في جيبي، ضربت الأول فسقط على الأرض، ضربت الثاني على وجهه، وسال منه الدم، وبعد الضربة الثانية كانت اثنتان من أسنانه الأمامية في فمه وعندما بصق الدم، سقطت الى الأرض.. اما الثالث فقد بقي متفرجاً أول الأمر، ثم هرب».

سمعت هذه القصة من حامد عدة مرات، وسمعت غيرها.. رجب لا يجب ان يمتحن جسده. كان يعتمد على خفته، ومهمته ان يبدي براعته في امور يتصور ان الآخرين لا يستطيعونها.. كان ماهراً بالكرة، بالركض.. اما جسده فأقرب الى الضمور، وظل كذلك فترة طويلة، حتى حين أصبح كبيراً، وبدأ يعود من المظاهرات دامي الوجه، متورم الشفة، فإنني أعتقد انه كان يعتمد على براعته اكثر مما يعتمد على قوته!

قلت أول أمس وأنا أضع في صحنه قطعة اخرى من الدجاج:

ـ عادل يأكل اكثر منك، لماذا لا تأكل؟.

رد عليّ بكلمات غاضبة، وهو يضرب على بطنه دلالة الشبع:

ـ اصبح الأكل مضجراً بالنسبة لي. ومع ذلك أكلت كثيراً!

ربما يريد ان يعذب نفسه بشكل ما. بدأت أعتاد عليه من جديد، لكن رجب لم يعد ذاك الذي اعرفه. بعد ساعة يرحل، وهناك، من سيعد له طعامه؟ وهل سيأكل؟ انه الآن معنا ويهرب من الأكل، ماذا سيفعل اذا ظل وحيداً؟ لن أنسى ان اكتب اليه، سأوصيه دائمًا ان يهتم بصحته، لقد أفسده السجن اللعين، وهو الآن بحاجة الى عناية زائدة، لكي يعوض السنين الخمس التي لم يأكل خلالها مرة واحدة مثل انسان.. لقد قال ان أكل السجن لذيذ، لا أصدق أبداً، عندما رأى وجهي ساخراً قال بأصرار:

ـ الجوع أحسن معلم.. قبل السجن كان لي مزاج خاص: هذا طيب، هذا أحبه، هذا لا أحبه.. في السجن كنت آكل أي شيء.. ولكي لا أعلّق، قال:

ـ حشو مصرانه، المهم ان يأكل أي شيء، فقط لكي لا يجوع، ومع ذلك كان الأكل لذيذاً.

والنوم.. هل استيقظ رجب؟ بقيت له ساعة، ويرحل، ان النوم عدوه في هذه الأيام. لا أعرف متى ينام ومتى يستيقظ! كان الضوء يلعب في انحاء الغرفة اغلب الساعات، ولما سمعت أقدامه عند الفجر، في اليوم الثالث بعد الخروج من السجن، استغربت كثيراً.. اتذكر اني رأيت ضوء غرفته بعد ان استيقظت للمرة الثانية، تلك الليلة. كان النوم يطفو على عيني بلذة، ظننته أول الأمر قام ليشرب، وأنه سيعود، لكن لما سمعت الباب الخارجي يغلق وراءه اضطربت. اين يذهب في مثل هذه الساعة المبكرة؟ تركته، ولم أسأله في اليوم الأول، لكن عندما سمعت الباب في اليوم التالي، وفي نفس الموعد، تقريباً، قلت في نفسي: رجب يعرض نفسه لمخاطرة جديدة.

انتظرته حتى عاد.. تظاهرت اني لم أسمعه عندما ذهب، ابديت دهشة كبيرة وأنا أراه يدخل. فتح الباب بهدوء وانزلق، لما رآني أمامه تراجع وبدت في وجهه آثار غضب وحيرة.

قلت له وأنا أضغط على الكلمات لكي أجعل لها وقعاً مشجعاً:

ـ خرجت الى الهواء لكي تحارب الأرق.. يبدو انك لم تتعود على الحياة الجديدة!

قال باضطراب:

ـ نمت مبكراً، ولم استطع البقاء في الفراش اكثر، فخرجت؟.

ـ تعودتم ان تستيقظوا مبكرين؟.

ـ ليس قبل السادسة!

ـ ولكن الساعة الآن أقل، كم الساعة الآن؟.

قال وهو يتجه الى غرفته، لكي اكف عن الثرثرة:

ـ حوالى السادسة، ربما اكثر قليلاً!

ـ هل أصنع لك قهوة يا رجب ام تريد ان تنام ثانية؟.

ـ سأنام!

رجب يفعل أشياء غامضة، الى أين خرج؟ ماذا فعل؟ أريد أن أعرف، لكن لو احس اني اراقبه، لو سألته، فإنه لن يرحب بمثل هذه الأسئلة، ولن يغفر لي! لم تتغير عاداته في السجن، والأسئلة تولد في نفسه مرارة، لا تلبث أن تصبح عصبية متهورة...

كان يقول لأمي إذا سألته:

ـ اذا كنت تحبينني فلا تسألي.. اصبحت كبيراً وأعرف كيف اتصرف، لا تخافي ابداً!

وعندما تحاول أن تتوسل اليه، أو تشعره بأنها لم تستطع النوم، لأنها قلقة وخائفة، كان يقول:

ـ نامي، واذا جئت ولم أرك نائمة، فسوف أتأخر أكثر. سأنام خارج البيت.

حاولت معه مرات كثيرة، ولما فشلت، تركته. ونفس الأمر حصل بالنسبة لما يقوم به من أعمال. لم تتجرأ أن تسأله، بعد تلك الليلة التي رد عليها بطريقة

جعلتها عصبية أول الأمر ثم ذهبت الى فراشها وأخذت تبكي! قالت له مرة:

ـ يا بني لو تترك السياسة، انت ترى بعينيك كيف اخذوا ابن النداوي، كيف حبسوا مجدي، ماذا تفيد السياسة يا بني؟.

قال لها بغضب:

ـ هذه قضايا اكبر منك فلا تتدخلي، انا كبير وأعرف كيف أتصرف.

ـ ولكن ترى بعينيك؟.

ـ ماذا أرى؟.

ـ كل يوم يحبسون واحداً.. كل يوم يقتلون واحداً... ماذا أفعل اذا حبسوك؟. اذا قتلوك؟.

ـ اطمئني، اذا حبسوا فسوف يحبسونني فقط، اما انت فلن يقتربوا منك!

ـ وهل تتصور اني احتمل الحياة يوماً واحداً بعد أن يحبسوك؟.

ـ لماذا لا تحتملين؟.

ـ أموت، أقتل نفسي؟.

ـ ما شاء الله، كنت أظن أن لي أماً أقوى من الرجال، كنت أتصور أني اذا ذهبت الى السجن، اذهب وأنا واثق، وأنا مطمئن، لا دموع ولا صراخ، انت الان وقبل ان اسجن تهددين، تريدين أن تجعلي مني امرأة؟ ان أتحول الى رجل مخصي؟.

لا أعرف ما الذي دفعني لأن أتدخل. لو ظلت المناقشة بينهما لانتهت دون نتائج. لكن عندما قلت لأمي بلهجة باردة، أقرب الى التأنيب، ان تكف عن التدخل في شؤونه، ردت عليَّ بعصبية:

ـ انت لست أماً ولا تعرفين شعور الأمهات، اذا سجن فلن تركضي في الشوارع، ولن تسهري الليل. ماذا استطيع ان افعل؟.

قلت لها بنفس اللهجة:

ـ رجب امامك الآن، وقبل ان يسجن يجب الا تتحدثي عن السجن.

ـ بعدما يموت تريدين أن أوصيه؟.

قال رجب بعصبية كي ينهي المناقشة:

- اتركوا الموضوع، واذا سجنت فأنا أتحمل النتائج!

- لكن يا ابني انا أم وأنت تعرف قلب الأم.

- اذا كانت كل أم تقول الكلمات التي تقولينها فلن يتحرك احد، وسوف نموت في المزابل.

- ولكنك تعرض نفسك للهلاك يا ابني.

- انا كبير وأعرف ما يجب ان افعل!

قلت وأنا أفهم رجب ، وأريده أن يهدأ:

- امي اتركيه كما يشاء.

- الى الجحيم، ليفعل ما يشاء، وأنا لن أتدخل ولا شأن لي!

قال رجب غاضباً:

- اذهب الى جهنم ولا أريد أن يذهب معي احداً!

- لو كان ابوك حياً ورآك بهذا الشكل، تعرض نفسك للخطر، لعرف كيف يربيك!

- الحمد لله انه ميت، وحتى لو لم يكن ميتاً، فأنا أعرف كيف أتصرف.

- هل تقول شيئاً اذا منعك من العمل في السياسة؟.

- ربما لن يمنعني. . راح ذاك الوقت الذي كان يستطيع فيه احد أن يمنعني!

- يا ابني يجب ان تسمع كلمتي.

- انت خرفة ولا تعرفين شيئاً.

قالت بعصبية جامحة، وكأن الحرج الذي أصابها لم يترك لها فرصة لكي تفكر بهدوء:

- مائة جهنم، وأكون مجنونة اذا سألت عنك!

- مائة جهنم، وأنا لا أريد من أحد أن يسأل عني!

ذهبت غاضبة الى فراشها، لكن ما كادت تستقر في الفراش، حتى بدأت تبكي، كان بكاؤها هادئاً أول الأمر، ثم تحول الى نشيج، ولم يفعل رجب شيئاً. ذهبت اليها، وظللت أتكلم معها ساعة، قلت لها أشياء كثيرة، ولم ترد عليّ بكلمة واحدة، حتى اذا هدأت، نامت دون أن تبدل ملابسها!

منذ ذلك الوقت تجنبت سؤال رجب عن أشياء كثيرة. كنت أحاول أن أضعه في جو معين كي يتكلم، فإذا تكلم وحده، أو تهيأ، أدفعه تدريجياً لما أريد، وأغلب الاحيان أرى على وجهه ما يشبه الندم، اذا تحدث في امور لا يجدر أن يقولها لامرأة أو لانسان غريب!

ومنذ ذلك الوقت، عرفت ان رجب لا يضيق بالاسئلة فقط بل يكرهها، وتدفعه لأن يتصرف بقسوة ليست من طبيعته.

سأله جارنا ذات يوم، وكان جاراً جديداً، ظل يسكن بالقرب منا الى ان ماتت زوجته في السنة الماضية، وكان يكبر رجب بقليل. سأله حين كان يزورنا لأول مرة عن أصل العائلة، وعن عداد أفرادها وعن مصدر دخلها. اجاب رجب عن اسئلته بضيق، حتى اذا سأله عن مساحة الأرض التي نملكها في القرية، وما اذا كنا نستثمرها مباشرة أو عن طريق أقاربنا، نظر اليه رجب نظرة حائرة وقاسية وسمعته يقول بعصبية:

- لي أخت واحدة ومتزوجة، وأنا لا أريد أن أتزوج في الوقت الحاضر!

فلما استغرب الرجل، وبدت على وجهه علامات التساؤل والحيرة، قال له رجب:

- يا سيدي، لا حاجة لمثل هذه الأسئلة، وأعتقد ان احداً لا يسألها إلا اذا كان يريد ان يصاهر!

حاول الرجل ان يعتذر، لكن ظل هذا اللقاء مطبوعاً في ذاكـرة رجب، كذكرى حزينة تثير في نفسه الكراهية، ولم يجد كلمات كثيرة يقولها لأمي، حين الحت عليه أن يرد الزيارة لجارنا، قال لها بحزم:

- لا أريد زيارته، أما التحقيق فسوف يأتي دوره، لا تخافي!

ولما استغربت أمي رده، قلت لها بعد أن خرج كيف ان ذلك الجار أثار رجب بالأسئلة.

وصمتت أمي دون أن تقول شيئاً!

يجب ان استيقظ، سأتذكر كل شيء عن رجب فيما بعد، الآن أريد أن أراه، أن اتملى من وجهه في الساعة الأخيرة، قد لا يعود، وحتى لو عاد فلن يكون ذلك في وقت قريب.

لما دفعت الباب بهدوء، رأيت رجب ينحني فوق الحقيبة الصغيرة. تقدمت على أطراف أصابعي لكي لا يراني، حتى اذا اصبحت قريبة جداً، رأيته يضع مجموعة من الأوراق!

أتذكر الدفتر الأسود.. وهذه الأوراق اللعينة. خفت وتصورت ان الغضب سينفجر دفعة واحدة، وسيغرقنا في بحر من الحقد الأصم. انها نفس الأوراق، نفس الدفتر، لقد اعطاها لأمي، وكان شديد الحرص على أن يبقيها سرية، وبعيدة، بحيث لا تصلها يد. أتذكر ان صمتاً مرتاباً كان يخيم على الغرفة، في ذلك اليوم، رأيت امي تجفل وتضع الأوراق بسرعة تحت الفراش حين دخلت، تراجعت وأنا اتظاهر اني لم أر شيئاً، وقبل أن تموت امي، قالت، وهي تشير الى المدخنة، في الغرفة العليا، الصغيرة:

ـ انيسة، امانتي الوحيدة ان تحفظي هذه الأوراق لرجب، لا أعرف ما فيها لكنه ائتمنني عليها كثيراً.

لم أجب. ظلت الأوراق في مكانها فترة طويلة، لكن الشيطان الثاوي في قلب كل انسان، ارتعش ذات يوم في قلبي، ولا أعرف كيف امتدت يدي الى الأوراق.

لا أستطيع ان اقول كل شيء، لأني لم أقرأها كلها، وحتى لو قرأتها، فربما كان من المضني أن أتكلم.. لم تكن أوراقاً خطيرة، ولا تعني احداً غير رجب، ولو وقعت في يد أي انسان فلن يجد فيها ما يجده رجب.. انها دون كلمات كبيرة، عالمه الصغير، أفكاره، احلامه.. حبه وجنونه، وفيها بعض الشتائم، هذا ما أريد أن أتذكره.

لما رآني ارتجف، نظر اليّ بحقد، كأنه يرتكب عملاً فظيعاً، ولكي أبعد أفكاره وأوحي له بالثقة قلت:

ـ أأصنع القهوة الآن أو بعد أن تحلق؟.

رد وابتسامة شاحبة تتخلل كلماته:

- لا يهم. . الآن أو في أي وقت.

- وهل انتهيت من ترتيب أغراضك؟.

- تقريباً!

- ألم تنس شيئاً؟ حاول أن تتذكر.

ودون أن يحاول، قال بعصبية:

- لم أنس شيئاً.

ارتمى على مقعد قريب. دفع الحقيبة برجله لكي يبعدها، قال لي وهو يمد اليّ سيجارة:

- اتتذكرين ما كانت تقول امي عن السيجارة الأولى!

هززت رأسي دون أن اجيب، كنت أريده ان يقول، لأنه يتذكر امي من جوانب لم أستطع أبداً أن أتذكرها، فلما رآني صامتة، قال:

- «السيجارة الاولى سم، أقوى من السم، ضع سيجارة في ماء وأتركها حتى تحلّ، وأنظر الى لون الماء بعد ذلك، انه اصفر قاتم، هذا هو السم». أما كيف عرفت السم، من قال لها أن لونه هكذا، فلم تجب أبداً. كانت تردد هذه القصة كلما رأتني أدخن قبل الأكل، وكانت تحاول أن تسرق مني السيجارة، تركض لكي تعطيني شيئاً آكله. . أتتذكرين ذلك؟.

هززت رأسي. ورأيت ملامح وجهه تعتكر وتتداخل، حتى لتصبح قاسية، قال:

- لذلك سأدخن وحدي، لن أعطيك سيجارة مثلما فعلت في الليلة الماضية.

قلت وأنا أحاول تقليد أمي لأدخل على قلبه بهجة الذكرى في الساعة الأخيرة:

- وكيف تدخن قبل أن تأكل يا رجب؟ ألا تعرف أن السيجارة الاولى سم، أقوى من السم؟.

- السجن يعوِّد. . والسيجارة الأولى الآن تجعل لحلقي استمرار طعم المرارة، التي احتاجها.

ـ لماذا تقول هذا يا رجب؟.

ـ وهل ما قلته شيء سيّىء؟

ـ تغيرت حتى طريقتك في الكلام!

* سحب عدة انفاس، وهو غارق في ذكريات بعيدة ومتناقضة، هذا ما أحسسته من حركاته العصبية ومن وجهه الذي كان يتغير في كل لحظة، وكأنه يصارع قوى عديدة. فجأة، رأيته يعتدل في جلسته، يسحب قدمه التي كانت مثل مخلوق زائد في أرض الغرفة، ويقول:

ـ ما زلت حائراً يا أنيسة.. هذا الدفتر الذي تركته عند أمي، والذي أخذته منك، وأشار الى الحقيبة، لا أعرف أن كان يجب ان آخذه معي، أم أحرقه قبل السفر.. اذا اخذته قد يفتشونني ويجدونه، وهذا فضيحة جديدة، فضيحة من نوع آخر: رجب عاشق، رجب يكتب اشعاراً، رجب يحلم. سوف ينشرون كل شيء كي يضحك عليَّ الجميع، خاصة اصدقائي، وقد تصل الجريدة الى السجن: الى عصمت وامجد.. والآخرين، سوف تتأكد كل الأفكار التي قالوها عني... واذا لم آخذه معي، واذا احرقته، قد أندم، فيه بقايا اشياء أريد ان احتفظ بها كذكرى.

كان يتدفق وهو يتكلم، كأنه يتحدث الى نفسه، لم يكن يرى أحداً، ولم يكن يسألني، كانت كلماته محاولة اخيرة لاقناع نفسه. قلت:

ـ اتركه عندي يا رجب، وعندما تعود سوف تتصرف به كيفما تشاء.

ـ ولكني أحبه يا أنيسة، وقد فكرت فيه كثيراً وأنا سجين.

ـ أعتقد أنك قرأته في هذه الأيام، وتذكرت كل ما فيه، ولا حاجة لأن تعرض نفسك لأخطار جديدة، أليس من الأفضل أن تتركه؟.

ـ قد يكون من الأفضل ان احرقه، ماذا تقولين؟.

ـ اتركه عندي الآن. سأضعه في مكان أمين، ولن تمتد اليه يد حتى تعود!

ـ قولي لي الصدق يا انيسة، هل قرأت هذه الأوراق؟

كيف اجيبه؟ هل أقول اني قرأت بعض الصفحات؟، هل أنكر؟ لا أستطيع ان اقول كلمة ولا أندم عليها. اذا قلت قرأتها فسوف يغضب، اتذكر صمته عندما دخلت عليهما، حين أعطاه لأمي. اذا قلت لم أقرأها، فلن يصدقني، ستفضحني

عيوني. انه يسأل بعض الأحيان بعينيه، تكون عيناه مركزتين عليّ تماماً، وبشكل مدمر يرى ما يجول في رأسي من أفكار، حتى لو لم أقل كلمة واحدة. قلت وأنا أغامر بكل شيء:

ـ قرأت بعض الأوراق يا رجب، لأني خفت من الشرطة، خفت أنه اذا جرى تفتيش جديد وعثروا على الأوراق، ان يخلقوا لك المتاعب، قرأت لكي أتأكد أن هذه الأوراق لا علاقة لها بالسياسة!

ـ وأي شيء قرأت؟.

أمسكت يديه بكلتا يدي، احاول ان اقنعه ليصدق، قلت:

ـ صدقني يا رجب اني لا أتذكر. . كنت أريد أن أعرف فقط.

ـ وأي شيء عرفت؟.

قلت ضاحكة وأنا أهزه لكي يقوم:

ـ لن أفشي أسرارك لأحد، تأكد من هذا تماماً.

ـ حتى لو ضربوك؟.

ـ حتى لو ضربوني،

ـ لو استعملوا الكهرباء؟.

ـ لو استعملوا أي شيء.

ـ تكذبين.

ـ اكذب؟.

ـ نعم تكذبين. . الانسان يقول انه لن يقول شيئاً، اما اذا بدأوا يضربونه، اذا ابتعملوا أساليبهم، فإنه سيقرر في تلك اللحظات. . وكيف يقرر؟ ان جسده هو الذي يقرر، الارادة في تلك اللحظات تموت، تخبو، والجسد وحده هو الذي يفعل كل شيء!

ـ وهل تحملت كثيراً قبل أن تقول يا رجب؟.

بصق على الأرض، وقام.

كنت أتمنى لو تكلم، لو قال شيئاً فإن صورة رجب ستبدو أكثر وضوحاً بالنسبة لي، ولكنه الآن يرحل، وترحل معه أسراره، هل قال رجب شيئاً؟ هل تحمل كثيراً قبل أن يقول؟.

ماذا كان شعوره بعد أن رآهم يعيدون عليه الكلمات التي قالها جسده، وهو يتلوى تحت كلماتهم وكرابيجهم؟.

كان من الواجب ان ارغم رجب على ان يقول شيئاً، لكن يبدو هذا مستحيلاً الآن.. لماذا لم أسأله في الأيام الماضية؟ لماذا تركته .وراء الستائر في غرفته العجوز يعلك ذكرياته وحده؟ ان الانسان مهما كان قوياً، لا يعادل ذبابة اذا كان وحيداً! رجب كان وحيداً، هو الذي اختار ان يكون كذلك، لكن لماذا يختار ويقرر وحده؟.

والأوراق.. والدفاتر، أأتركها له؟ أأحتفظ بهذه الذكرى وأبيح لنفسي كل الحق في أن أقرأ الكلمات وأتذكر رجب عندما كتبها؟.

رأيته وهو ينهض ويضرب الحقيبة بحقد، ربما كان يضرب الأوراق، الماضي، لحظات تعبة! قلت وأنا أحاول أن أعيده:

ـ ماذا قلت.. هل ستترك الأوراق أو تأخذها معك؟.

ـ لا أعرف، قبل أن أغادر البيت بدقيقة واحدة سأقرر!

ـ الأفضل أن تقرر هذه اللحظة، ونحن الآن وحدنا، أما اذا كان معنا حامد والاولاد فقد يكون صعباً ان تترك الأوراق... اذا رأوها فسوف يسألون، ولن أستطيع ان احتفظ بها سرية كما فعلت في الفترة الماضية!

ـ لا تخافي يا انيسة.. اذا قررت أن أبقيها هنا، فسوف أقول لك أن تحرقيها، لأني لست بحاجة لها بعد ذلك!

ـ الأفضل أن لا تأخذها.. لو تتركها الآن، سأحتفظ بها حتى تعود!

ـ لا أعرف!

كنت أصنع القهوة لما اخذ يحلق، كان الصمت ممتداً مثل جسر من الموت، لم أكن أسمع تمزق صوت الماء وهو يتقلب في الوعاء ويغلي، تذكرت الأوراق من جديد، وكنت أضع القهوة في الماء الغالي وأتذكر:

مجموعات من الأوراق مطوية بعناية، ودفتر أسود له غلاف مقوى، وصفحات كثيرة، حاولت أن أتذكر. . .

مذكرات ثلاثة شهور، انتهت قبل السجن بفترة طويلة، وخلال الشهور الاخيرة لم يكتب شيئاً رغم الأوراق البيضاء. بعد المذكرات اشعار، ثلث الدفتر أو أكثر قليلاً.

كان عنوان الاشعار «عربدات صغيرة وحزينة» أما القسم الأخير فقد وضع له عنواناً ثم شطبه، كان العنوان الأول: «افكار من أجل الحرية» وبعد أن شطب هذا العنوان كتب تحته «بلا عنوان»!

ماذا قرأت؟ هل أتذكر الكلمات واللحظات العنيفة التي مرت تحت عيني؟

انسفحت القهوة.. رأيته هذه المرة يقف ورائي ، ويضحك. لقد تبادلنا الادوار الآن.. قبل قليل كنت أتابع حركاته وهو يرتب الحقيبة الصغيرة، لم يرني أول الأمر، وعندما التقت عيوننا اجفل، وبدا حائراً وغاضباً.. والآن، منذ متى يقف ورائي ويراقبني؟ كانت يدي ترتفع وتنخفض بوعاء القهوة دون وعي، حتى اذا قربتها من النار اكثر مما ينبغي، انسفحت، انطفأت النار واستيقظت.. ورأيته يضحك!

قال لي ينقذني من الحرج:

ـ لقد نسيت كيف تحضر القهوة.. لم نشرب طوال سنوات، لكن أستطيع أن أصلحها الآن بعد أن أفسدتها!

ولم أتركه. أضفت من جديد ملعقة من البن وقليلاً من السكر.

• لم يتغير رجب وحده.. تغيرنا كلنا، وإلا كيف أفسر هذا الولع، هذا الارتجاف في اليد والخفقة في الصدر؟ كيف أفسر تصرفاتي كلها؟ لم أعد كما كنت.. اختاً وأماً... انني اتعذب الآن. ولا أعرف كيف ستنقضي هذه الساعة الباقية، أخاف أن نبقى وحيدين. اخاف على نفسي، وأخاف عليه اكثر. ماذا لو عاد الى البكاء مثلما فعل في الليلة السابقة! ماذا لو بكيت؟ ان هذا الجو المشحون دائماً يهدد بالانفجار كل لحظة، يمكن أن يتحول في ثانية الى عويل مجنون، الى هستيريا من البكاء لا يوقفها أحد!

واذا لم نبك فماذا نستطيع ان نفعل؟ هل أدور حوله لأنظر اليه واحفظ

تفاصيل وجهه وحركاته قبل أن يرحل؟ هل أشغل نفسي بأشياء تافهة لكي لا أجلس في مواجهته وأنظر اليه؟ أكاد أفقد سيطرتي على نفسي!

كنت طوال الفترة الماضية أخاف ان أكون وحيدة مع رجب. أجلت مرات كثيرة الأفكار والكلمات التي كنت أريد أن أقولها. الآن، وأنا أراه يلتقط فنجان القهوة ويشرب منه رشفات بينما كان يسير نحو الصالة، سيطرت عليّ رغبة جامحة لأن أمنعه من السفر. ولأول مرة أرى في حركته فرح طائر مهاجر. كان رشيقاً، وخطواته ترقص، أما أصابع يده عندما أطبقت على الفنجان والصحن معاً بطريقة محكمة، فقد بدت لذيذة تنهش الانسان من الداخل. قلت لنفسي وأنا أضرب الأرض بحقد: «لماذا يعود رجب في هذه اللحظة الى أيام الطفولة؟».

لما جلسنا على مقعدين متقابلين، سألته بصوت هامس:

ـ ألا تؤجل سفرك يا رجب؟.

كانت الابتسامة على وجهه غطاء رقيقاً للتصميم المعذب. هز رأسه كما لو انه يترنم بالرفض، ولم يقل كلمة واحدة. وخيم علينا الصمت.

كانت عيونه تتراكض في كل الأنحاء، لئلا تتوقف لحظة واحدة، وتلتقي بعيني. اية افكار كانت تحوم في رأسه؟ أية رغبة تسيطر عليه؟ لو طلبت منه أن يبقى، لما وافق، سيحمل حقيبته بعد قليل ويلوح بيده ويسافر، سيسافر وفي حلقه تلك الشهقة الموجعة! ما دام الأمر هكذا يجب ان أبدو متماسكة قوية، لأقل له كلمات لذيذة يتذكرها حتى وقت بعيد. قلت:

ـ لا أقصد أن تؤجل سفرك تماماً، كنت أريدك أن تعدني!

ـ اعدك؟ بأي شيء؟.

ـ ان تعود وان تكتب!

ـ سأكتب، سأكتب كثيراً.

ـ رسالة في الاسبوع؟.

ـ ربما...

ـ اذا لم يكن كل اسبوع، ففي كل اسبوعين مرة.

- سأحاول.

- هذا وعد يا رجب!

- سأكتب دائماً، لن أقول لك كل أسبوع أو أسبوعين، لكن سأكتب عندما اكون قادراً.

- قادراً؟.

- اذا رأيت ان في الكتابة راحة. اما اذا لم اكتب فمعنى ذلك اني ابحث عن الراحة، أطاردها ولن يكون لديّ وقت لكي اكتب!

- معنى هذا ان اتعذب وانتظر. اذا انقطعت رسائلك فسوف اعرف انك في حالة صعبة، وعليّ فوق ذلك ان انتظر! أليس كذلك؟.

- رحلة صغيرة يا انيسة، ولا أعرف لماذا نحب ان نتحدث بهذه الطريقة عن الرسائل والفراق والعذاب. ألم تتعودي عليّ؟ ألم يعودك السجن كيف يجب أن تصبري وتتحملي؟.

- ولكن انتهت أيام السجن ، وحتى عندما كنت سجيناً كنت أحسك قريباً.. اما الآن!...

- السجن يا أنيسة في داخل الانسان، أتمنى ألا أحمل سجني أينما ذهبت، ان مجرد تصور هذا عذاب يدفع بالانسان الى الانتحار!

تنحنح حامد، ليشعرنا انه اقترب. كان يحس بغريزته ان لحظات مثل هذه تجعلنا اقرب الى الحلم، وكان يحرص أن يترك لنا الاستمتاع أو العذاب، دون ان يتدخل.. ان الرجل الغريب، أياً كان، زوجاً أو صديقاً، تبقى بينه وبين الايام البعيدة سدود من الغيوم السوداء، الايام التي كونت طفولتنا وحياتنا الأولى، ولا يستطيع ان يخترقها إلا بعد فترة طويلة من الحياة المشتركة والعذاب، حتى اذا صارت ماضياً، اتسعت آفاق الرؤية وبانت الحياة كلها وكأنها مقاطع من الحجار الصلبة المتداخلة.

تنبهت وحامد يدخل. كان وجهه متعباً من أثر النوم القلق، ترك أصابعه تتخلل شعره، بطريقة عصبية محرجة قال:

- أحلام الليل أقسى من عذاب النهار!

جلس حامد، لم نسأله ولم يتكلم. احرجه الصمت، نظر اليَّ طويلاً وفي عينيه ذلك التساؤ ل الممض والذي يحمل لوماً اكثر من التساؤ ل، حتى إذا رآني لا أتحرك، قال:

- وأنا..؟ أين قهوتي؟.

انتفضت، اغمضت عيني اكثر من مرة، كأني أفيق من حلم، لما رأيت حامد يبتسم، ابتسمت له ونهضت!

انقضت الفترة الباقية كما ينقضي حلم لذيذ...

عند السابعة، وضع رجب الحقيبة الكبيرة عند الباب من الداخل، وعلق الحقيبة الصغيرة في كتفه أول الأمر، ثم تركها تسقط وبدأ يدور في البيت ليلقي عليه آخر نظراته.

كان يدور بحركة أقرب الى من يفتش عن شيء ضائع. كان يخرج من غرفة لأخرى، ينظر الى الجدران، الى النوافذ، الى وجوهنا. كانت نظراته متسائلة. لم يكن يتكلم، لم يكن يتذكر، كان يبحث، ولا يريد معونة من أي نوع، حتى قال له حامد:

- لم يبق لنا وقت، يجب ان نتحرك.

انتفض، هجم على الصغار مثل ديك مبلول، حمل رامز وليلى على صدره، قبلهما بجنون كأنه لن يراهما بعد اليوم، وظل ينقل نظراته بينهما يريد ان يتشرب وجهيهما، حتى اذا احس بجسم عادل وخالد يحتكان به قرفص، وضع رامز وليلى على ساقيه، تاركاً لهما أن يتشبثا بعنقه، وأمسك خالد من كتفيه، وهزه محاولاً أن يمنحه قوة أو أن يدمره، ثم التفت الى عادل وضربه في بطنه.. وقال له بلهجة آمرة:

- لن تكذب بعد اليوم.. اذا سألك احد عني فستقول انه سافر.. وأكون قد سافرت بالفعل، أليس كذلك؟.

وهز عادل رأسه دلالة الموافقة ولم يتكلم. اما خالد فظل يدور حوله كأنه يراه لأول مرة.

وددت لو تنتهي الحياة في هذه اللحظة. شعرت بالحزن كبيراً كثيفاً مثل يد

قاسية تنتزع أمعائي، ولكني صممت ان ابقى قوية، كنت أريد لرجب ان يتذكر وجوهنا الضاحكة، لتكون له زاداً في الغربة. اما حامد فكان وهو يرقب المشهد، راضياً ومحرجاً في نفس الوقت.

قال حامد يخاطب رجب من خلال الصغار:

ـ أتركوا خالكم يا أولاد.. لا تؤخروه.

ظللت الوحيدة التي يجب ان يفعل رجب شيئاً من أجلها. هل يهز يدي وينسحب بسرعة لكي ينقذ نفسه، هل أركض الى غرفتي ولا أرى في عينيه دمعة محبوسة يخاف أن تنطلق في اللحظة الاخيرة؟.

تمنيت لو ان امي تراه للحظة واحدة ثم تموت. لو كانت موجودة الآن لحملت عنا اللحظة الثقيلة المشحونة بالخطر، لجنبتنا الدموع وآلاف المشاعر المضغوطة، والتي تتجمع في سيول صغيرة، لتصب في تلك النقطة الضعيفة.

لقد رحلت حين كان يجب ان تبقى. رحلت دون عودة، وهي الآن ترقبنا، ترقب أيدينا، عيوننا، لهاثنا، خفقات قلوبنا، ترقب لتعرف كيف نتصرف، كيف نواجه لحظات ضعفنا المدمرة، كانت لا تحب أن تبكي أمامه. أوصتني آلاف المرات أن أحبس دموعي، حتى لو اختنقت ولا أبكي امامه. كانت تقول «البكاء يهد اكبر الرجال، وأقسى ضربة توجه لرجل ان يرى امه أو اخته تبكي امامه». لن أبكي الآن.. لن ابكي. سأدفن وجهي في صدره وأقبله، وبعد أن يغيب سأبكي، سأبكي وحدي، لن اترك له في غربته ذكرى دموعي، وكأنها نجوم سوداء تتساقط عليه لتضغط على قلبه. سأضحك، لكن فكيّ لا يطاوعاني، احسهما ثقيلين متصلبين، سأبتسم، الانسان يستطيع ان يبتسم، والابتسامة ارادة حتى لو كانت حزينة!

التقط رجب الحقيبة مثل قط.. وبسرعة لم افطن لها سحبني من يدي الى الغرفة القريبة. تصورت الدفتر الأسود والأوراق.. كان رجب يفكر طوال الوقت، كان يصارع ولكنه في النهاية قرر شيئاً!

دخلت وراءه وبتلك الرشاقة الخائفة المضمحلة من ذاكرتي، والتي نسيتها لفرط ما ابتعد بها الزمن، رأيت يد رجب تدخل الى جيبه. كنت أنتظر شيئاً. ماذا خبأ في هذه الساعة الاخيرة؟ وأي حزن ستولدها هديته؟.

بيد مرتجفة اعطاني مغلفاً مفتوحاً. . قال لي قبل ان اقرأ الكلمات المكتوبة على ظهره:

ـ ما زلت متردداً هل أعطيك الأوراق كلها أم لا. . هل أترك هذه الآن؟.

كان يريد أن يسأل. ان يتكلم، لكن عيون الصغار وحامد المترصدة، قطعت عليه كل شيء. . .

قلت له احاول تخليصه، من الاحراج:

ـ اتركه كله لي، وسوف أفعل الشيء المناسب.

وباستسلام يائس خفض عينيه. لم تنته المأساة بعد، ما زال يصارع نفسه: الأوراق، الدفتر.

قلت والرغبة تسيطر عليّ في أن يبقي الأوراق عندي:

ـ اعطني الأوراق يا رجب، سأحتفظ بها حتى تعود!

ان اقوى الناس واكثرهم قدرة على التصرف، يفقدون في لحظات معينة قدرتهم على ان يتصرفوا منفردين. يجب ان يكون احد الى جانبهم لكي يقول لهم ما يجب ان يفعلوا. رأيت رجبْ ينحني على الحقيبة، وبمرارة يسحب الدفتر والأوراق ويضعها بكلتا يديه على كفيّ المفتوحتين. ودون ان التفت الى الباب المفتوح والى النظرات المنصبة علي، رفعت طرف الفراش، مثلما فعلت امي تماماً قبل اكثر من خمس سنين، ووضعتها هناك، وضعتها بصمت دون كلمة، ولكن بخوف أيضاً.

الخطوة الأخيرة قبل الرحيل. . دفعني بيد رقيقة امامه، حتى اذا اصبحنا عند الباب، قبلني، قبل شعري، وقبل وجنتي. كان لا يريد أن يتركني. وأنا كنت استجيب له ولا أفعل إلا تلك الحركات الصغيرة، والتي تشبه ردود الفعل لحركاته.

تمنيت لو أتلاشى. كنت اختنق بدموعي، وأتعذب. لو أن دمعة واحدة انفجرت الى الخارج لجعلت روحي تتنفس وتحاول ان تتملى منه قبل أن يرحل، لكن كنت مسلوبة، اجاهد مثل حيوان مخنوق لكي التقط الهواء.

لما خرج، كانت امطار بداية الشتاء الصغيرة الناعمة تنزلق بهدوء اخرس على اوراق الشجر. وكانت الأقدام على ممشى الحديقة، تترك علامات حزينة باهتة. . ظل الأولاد يركضون وراءهما، حتى غابا في الشارع. اما أنا فقد ظللت عند الباب التقط بقلبي صورته التي بدأت تغيب. . وبدأت أبكي!



اهتزي اشيلوس. اهتزي اكثر، تحولي الى حوت، اذا اصبحت حوتاً، انتفضي فجأة، اقلبي البشر، وعندما يطفون حواليك موتى، ممسوخي الوجوه، التقطيهم واحداً بعد آخر: ازدردي المخلوقات التائهة، والذكريات، ولحظات السقوط، أتسمعين اشيلوس ما أقوله لك؟ يجب أن تسمعي كل الكلمات، اذا سمعتِها جيداً سيزول الندم، ستنقضي لحظة التردد، وتفعلين..

اشيلوس باخرة الركاب اليونانية تبحر الآن عبر المتوسط، اذا انقطع المطر، وظل البحر مثلما هو الآن، غاضباً كرجل وقور، فعند الغروب سنصل الى البيريه، البيريه أول خصلة من ارض اليونان، لن أتوقف فيها أكثر مما تتوقف الباخرة، لا أريد يونان معذبة، سأحيي رجالها من بعيد، وأواصل الرحيل، قالوا ان الحرية في أرض اخرى، أبعد من اليونان، يمكن ان يعيش فيها الانسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحذيتهم.. سأرحل الى تلك البلاد.

اشيلوس، كفي عن الدعابة السمجة، اهتزي كما أقول لك، اهتزي مثل راقصة شرقية عذبتها ذكرى أيام الجوع، وتريد بأردافها أن تضرب العالم، ان تنتقم! هلْ تريدين أن أقول لك كل شيء يا اشيلوس؟ لا تلعبي هذه اللعبة، لا تفكري ان نخون بعضنا.. بقيت لي خمسة أيام يا اشيلوس، سأشد على الدرابزون كآخر تحية يمكن ان يوجهها اليك انسان راحل، لن يراك مرة اخرى!

أمس في شمس خريفية كابية كنت أضرب الحاجز على ظهر اشيلوس، وأقول لنفسي بصوت عال، يمكن ان يسمعه انسان على مسافة أمتار! لم اكن خائفاً، ربما لأول مرة في حياتي لا اشعر بالخوف. قلت لشيء ما، للبحر، للحاجز، للشمس، لا يهم لمن قلت:

ـ أريد أن أنسى. ان أتوقف نهائياً عن استعادة تلك الايام البائسة. الذكرى حيوان قارض، حيوان يزحف في الدماء، وأنت أيها الحيوان ألا تخاف من دمائي الملوثة؟ أقول لك كصديق: الدماء التي احملها الآن في عروقي يفتتها الروماتيزم، لا تغرق في هذه الدماء، فتش عن غيرها.. أتسمع ما أقول لك؟.

انا الآن املك جسدي، استطيع ان القيه في البحر، لا أحد له سلطان عليه مثلي، كانوا يستطيعون ذلك، فعلوا اشياء كثيرة، لكنهم الآن لا يستطيعون، أصبحت بعيداً، في كل ثانية ابتعد، أنجو، وحتى لو أرادوا الآن أن يفعلوا شيئاً، فلن يكون أمامهم إلا طريقة واحدة: أن يطلقوا عليّ الرصاص، وحتى لو أرادوا ذلك فيجب ان يفعلوا ذلك من بعد ، لن امكنهم أبداً ان يلمسوا جسدي مرة اخرى... اهتزي يا أشيلوس وابتعدي.. أنا أبتعد، ابتعد!

هل يمكن أن أتصالح مع نفسي بشكل ما؟ أريد أن أتفق مع هذه النفس، أعرف أن كل شيء فيَّ خبا، تمزق، لكن يمكن للانسان ان يعقد صلحاً مع أيامه الاخيرة، هذا ما أريد الوصول له.

الباخرة، منذ ثلاثة أيام، توفر لي جواً من الحرية، لكنها حرية لا تصل حدود أن أغني، تمنيت امس أن أغني بأعلى صوتي، كان المهاجرون يغنون أغنيات حزينة، كانوا يغنون ويتوعدون القدر بأن يعودوا. كنت أريد الغناء دون أن أتوعد احداً. لم يبق احد إلّا وغنى. لماذا تركت نفسي تذوي وراء السارية ولم أغن؟ الآن استطيع، الايام الخمسة الباقية تتيح لي الغناء طوال الليل. كانت أغنياتهم تهدر. كانت تختلط بالدماء، بالصراخ، كانوا يحبون ان يقوموا بالعمل، وصوت آلة التسجيل يمزق الصمت الثقيل!

كيف ادعو الناس لكي يخرجوا الى ظهر الباخرة ويسمعوا غنائي؟ حصل الأمر صدْفة، الشمس هي التي ولدت فيهم رغبة الغناء.. كانت الشمس خريفية دافئة وحزينة، كان الرجال والنساء على ظهر الباخرة، ناحية المؤخرة، وفجأة بدأ الغناء.

العرب الذاهبون الى فنزويلا والأرغواي.. والى اماكن بعيدة لم يسمع احد باسمها، غنوا. كانت أغنياتهم حزينة، تحمل مرارة الملح الذي فسد.. والملح اذا فسد لا يمكن ان يصلحه احد. ولم يغن العرب وحدهم، غنى ثوار المناطق الفقيرة المغتصبة. غنى مكسيكي وهو يعزف على قيثاره. وفي وحدة عاطفية شديدة البوح، غنى هندي وباكستاني معاً! هل كانا يعبران عن شيء ما؟ أكانا يعرفان بعضهما قبل

الغناء؟ وهل عرفا نفسيهما اكثر بعد ان غنيّا معاً.

كنت أقف وراء السارية، ورغبة الغناء في حلقي مثل دمل أريده أن ينفقىء، لكن لذة العذاب، غير المقدسة، جعلت السارية كبيرة مثل اشباحهم وقررت أن أصمت. الصمت دواء، تعلمت ان اتجرع هذا الدواء في كل الأوقات، وكنت أشفى!

هذا القدر من الحرية، فوق اشيلوس الهادرة في الليل والنهار، يكفيني زاداً لسنين. اشيلوس يا صديقتي.. يا صديقتي، انت لم تري السجن، لو رأيته يوماً لتغير صوتك، كانوا يريدون صوتاً، مجرد صوت، يصرخون: «قل كلمة يا ابن القحبة».. واصمت، لا أقول شيئاً.. ويضربون. لو عرفت السجن يا أشيلوس لتعلمت كيف تصمتين. لو توقف صوتك دفعة واحدة، فإن الرعب سيشلهم، سيموتون. «قل أي شيء يا ابن العاهرة، اشتم.. أما أن تظل صامتاً مثل الجدار، فسوف تغرق في البول حتى تموت». ولا أجد شيئاً، أي شيء لأقوله، وأصمت.

سأنظم لك اشعاراً يا أشيلوس، وأريد أن أغني. لا أحد الآن على ظهر الباخرة، إنهم يتكومون في الصالة وفي البار. يتعودون على الأيام القادمة تماماً مثلما تعودت على أيام ماضية.. هكذا بدأت المسألة..

بدأت المسألة أول الأمر في الهواء الى جانب حقول القمح أو تحت ظلال الاشجار، كانت تترافق الكلمات مع الشتائم والضحكات، ثم اصبحت الكلمات لا تقال إلا في الغرف المغلقة المليئة بالدخان، كانت كلمات تمتلىء بمقدار مجنون من الثقة والدخان، حتى اصبحت في النهاية همساً من تحت الأبواب أو دقات على الجدران.

الانسان يتعلم.. وأنت يا أشيلوس تريدين أن تعلمي البشر، احصريهم في الصالة والبار لتمتلىء رئاتهم بالدخان والكلمات.. في البيريه سينزل قسم من البشر، وبعد ساعات يرحل الآخرون على ظهر الماء الى مكان آخر، ثم الى مكان ثالث.

لو تابعت الكتابة، لو وضعت لعيني حواجز مثل تلك التي يضعونها للبغال كي لا تضل، لو غنيت أو صرخت.. هل ترضين يا أشيلوس؟ ولكن من أنت أيتها الخنزيرة الملساء كي استجديك؟.

كانت لهم شعور طويلة، فوق أيديهم حتى الأصابع، وكانت لهم شعور في صدورهم، أما رؤوسهم فقد تعودت أن تترك لشعورهم الحرية في أن تنزلق، ساعات الغضب.

«الا تعرف اين ذهب نجم؟ خد، خد». الزبد يتطاير حول أفواههم كما يتطاير حولك يا أشيلوس. العيون تنتفخ من الدهشة والغضب. «يجب ان تتكلم يا قوّاد.. سأعلمك كيف تقول كل شيء. لن تعيش هذه المرة»! كان جسدي يرتعش، يتمزق، يتحول الى كلب لا يتوقف عواؤه.. «والآن ماذا تقول؟ ألا تعرف اين نجم؟».

قل لهم شيئاً يا رجب، اكذب عليهم، لا لن أقول كلمة واحدة. اصرخ وقد احتقن وجهي واحس عيني تخرجان: «اسألوني عن نفسي يا كلاب».

«أخيراً بدأت تتكلم.. من أنت يا م[1].. حتى نسألك عن نفسك، نريد هادي، نريد نجم، اين يختبىء هادي، قل لنا يا ابن القحبة!» واصمت. لو عرفت السجن يا أشيلوس يوماً واحداً، لعرفت الصمت، لتحولت الى صوت ينتفض في الشمس ويأكل الحشرات التي تحوّم فوقه.. سيأتي يوم تقفين في ميناء مهجور مثل سجين قال كل ما عنده، ولم يكتف احد. سيغادرك كل شيء، حتى الجرذان، واذا هبت ريح تميلين على هذا الكتف، ذاك الكتف وتغرقين .. لم يتركوا لك فرصة لكي تغرقي في البحر الكبير، في اعماق المياه الخضراء، سوف يجرونك حتى تصلين الى ميناء مهجور، وهناك يجردونك من ثيابك، من الذكريات، ويتركونك وحدك تموتين.. لا تنسي ما أقوله لك يا أشيلوس!

آه.. ما ألذ أن يموت الانسان وهو قوي. كانوا خائفين لدرجة الرعب عندما مات هادي، لم يصرخوا في وجوهنا مثلما كانوا يفعلون. صمتوا.. نحن الذين سألناهم. صرخ زيد في وجوههم: «اين هادي أيها القتلة؟ لا تظنوا ان دم هادي يذهب دون ثمن». لم يقولوا شيئاً.. ظلوا ينظرون الينا بصمت والخوف يمزق احشاءهم.

ظلوا خائفين فترة طويلة.. كنا نسمع أصواتهم الخائفة، خطواتهم وهي تنتقل بحذر.. لماذا يخافون ما دام هادي قد مات؟ وهل يخاف القاتل لهذه الدرجة؟ كان هادي قوياً وكبيراً. كانوا يخافون منه في كل وقت.

كان يضحك مثل طفل وهو يقول لنا: «لا تخافوا منهم أبداً. انهم أنذال، وضعاء كلهم وجبناء.. كانوا يقولون: اعترف يا هادي ولا أحد يمد يده عليك، قل

---

(١) كلمة قبيحة.

من معك يا هادي وثمن الاعتراف الحرية، يجب ان تعترف» ولا يسمعون مني كلمة واحدة.

لما تعبوا من هذا الأسلوب، بدأوا يجربون أساليبهم الأخرى: السجائر الاجنبية، فناجين الشاي، المعاملة الجيدة.. وبعد اسبوع: ماذا تقول يا هادي، هل حان الوقت الذي تقول لنا فيه كلمتين وتخرج؟ وأصمت...

وتعبوا ايضاً.. وبعد ذلك هل تعرفون ماذا حصل؟ الانسان أيها الأصدقاء، أقوى من الصخر، يحتمل كل شيء... جربوا الضرب، التعليق، الكهرباء، جربوا المنفردة والمرحاض، جربوا الأضواء وأصوات التعذيب والغناء.. وأقول لهم: لن تصلوا يا أنذال إلى ظفر هادي ولن تظفروا بشيء!

كان صمته يعذبهم. وتعلمنا الدرس قبل أن يقبضوا علينا!

من أين جاءت هذه الطفلة؟ لها وجه الاطفال وجرأتهم، وفيها عنادهم، قالت لي أمس ونحن نتكىء على حاجز السفينة، بعد أن انتهى الغناء:

- انت من بلدة... اليس كذلك؟.

قلت لها أداعبها، ولم احس انها انثى كبيرة، الا بعد ان رفعت صدرها عن الحاجز:

- كيف عرفت؟.

- عرفت!

- ولكن كيف؟.

- الشكل لا يخفى، قدرت، وأنت، الآن، تؤكد!

- لم أقل شيئاً!

- ولكن من طريقة السؤال، من الكلمات، عرفت اني لم اخطىء!

هكذا بدأ بيننا الحوار امس. لم أرها قبل ذلك، ومنذ ساعات وأنا أتجنب الصعود الى الصالة لكي لا أراها. لا أفكر الآن بأي شيء، ولم أعد أحب أن أتحدث مع انسان. قال الرجل الذي انضم الينا بسرعة، بعد ان عرف اننا من نفس بلده، وهو يضغط على حروف الكلمات لتبدو واضحة:

ـ الذي لا يعرف لغة اجنبية ويسافر وحيداً يكون مثل الضائع.

قال الكلمات وظل واقفاً الى جانبنا، كأنه يريد رداً على كلمات ليس لها رد. قلت له لكي أوفر على الصغيرة:

ـ الى اين تسافر؟.

ـ الى ايطاليا!

ـ لفترة طويلة؟

ـ شهر! وأنتما؟.

ـ أنا أسافر الى فرنسا، ولفترة طويلة!

ـ وأنت؟.

ـ الى بريطانيا.. للدراسة!

عرفت اذن انها تسافر الى بريطانيا، وأنها طالبة، لم أسألها من قبل، وبعد ذلك تحدثنا مثل طيور عصبية، عن البحر والغناء والسفر. كان البحر في بداية الغضب، قلنا ذلك. وكان الغناء قد انتهى ، قلنا كان الغناء رائعاً.. أما السفر، فقد بدأنا نتحدث، لما وقف الرجل الى جانبنا، ودون أن نسأله تبرع وقال كل شيء:

ـ حظي جيد. اغلب المرات التي سافرت فيها، يسر لي الله اناساً طيبين، شباباً يعرفون اللغات، وقضينا في الباخرة وفي ايطاليا فترات جيدة، السفر للذي يسافر أول مرة صعب، لا يعرف الانسان كيف يتصرف، والطليان، اذا رأوا واحداً لا يعرف لغتهم، سرقوه، ضحكوا عليه.. انهم خبثاء!

قالت له الطفلة التي لم أعرف اسمها أبداً:

ـ سافرت كثيراً واصبحت تعرف كل شيء!

ـ لكن اللغة، اللغة يا آنسة مصيبة كبيرة.

ـ ألم تتعلم شيئاً من السفر؟.

ـ كلمات ، أقل من عشر كلمات: مرحباً، شكراً، مع السلامة.. مثل هذه الكلمات.

- ولكني لا أعرف اللغة الايطالية!

- المهم لغة أجنبية، أية لغة، العربية بعد بيروت لا تفيد شيئاً، حتى هؤلاء اليونانيون الذين قضوا فترة طويلة في مصر، ويعرفون اللغة العربية، لا يحبون ان يتحدثوا بها بعد أن تغادر الباخرة بيروت!

تركتهما يتكلمان. بدأ يتحدث عن ايطاليا، عن الطبيعة الجميلة والشوارع، واتذكر ان آخر كلمات سمعتها وأنا أبتعد:

- اذا رغبت يا آنسة، فسوف يكون لي الشرف ان اطلعك. . .

وذابت الكلمة في الهواء قبل أن تصل اذني، ليس لديّ شيء يمكن أن أقوله لهذه الطفلة، سأكون مضجراً لدرجة الألم. لماذا أخرج الى الصالة؟ لماذا أفسد عليهما الأفكار المضيئة التي تشتعل في رأسيهما وهما يتجولان في روما. . أو في أماكن اخرى! اذا رأتني على ظهر الباخرة وسألتني، فماذا أقول لها؟ أشيلوس أنت لا تسألين، تسمعين ولا تجيبين. لقد امتلأت روحي بالأسئلة حتى لا أطيق الآن أن يسألني احد. لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف أي شيء!

ولكن بعد ايطاليا سنقضي يومين وثلاثة أيام، كيف أواجه هذه المرأة الطفلة بعد أن تتدرب على يد هذا المتألق الجامح؟ يمكن أن أرابط في غرفتي أطول فترة. يمكن ان اتجنب لقاءها، ويمكن أن أظل صامتاً كما فعلت من قبل. ولن تتعب لتجد صديقاً. الجميع يفتشون عن أصدقاء. انا الوحيد الذي لا أريد. يكفي ما رأيت وما عرفت. الآن أشيلوس، الحديد الصلب، الخشب المثقل بالملوحة والمطر، الزبد المتطاير، الايام الصعبة التي تنتظر عندما تموتين، يا أشيلوس، حين تهرم اركانك وتتداعى، أي مصير سيواجهك؟ أشيلوس وحدها التي أريد أن أتحدث معها، ووحدها يمكن أن تسمعني. . اشيلوس تسمع ولا تسأل!

«دون أن نسألك. احك كل شيء ، يجب ان تعترف، الأفضل أن تعترف. لماذا تصمت مثل النعجة؟ هل أنت خائف؟ كما قلت لك اذا اعترفت لا أحد يمد يده، اما اذا لم تعترف الآن فسوف اجعلك تعترف مثل كلب. أتعرف كيف يعوي الكلب، ستعوي اكثر منه».

قلت لهم وقلبي يرتجف:

- ماذا تريدون أن أقول؟.

ـ ابدأ من يوم ما جئت من . . .[1] امك.

ـ تعرفون كل شيء عني!

ـ نريد أن نسمع منك.

ـ اسألوا.

ـ امرك يا بك، سوف نسأل وأنت تجيب، لكن اذا كذبت بكلمة واحدة، فلا تلم إلا نفسك.

كان يوم اثنين، أول يوم بعد عيد الفطر. قبضوا عليّ قبل نهاية دوام يوم الخميس. كانوا يتراكضون، لم ينظروا إليَّ طويلاً، قال نوري وهو يصرخ مثل ثور:

ـ هذا بعهدتك ، جديد، وأريدك أن تعتني به!

امسك بي حاتم، آمر الحرس، مثل قط أجرب. امسك بكتفي وقال بلهجة آمرة:

ـ افتح السرداب يا عبد.

دفعني امامه. صرخت بتحد:

ـ أنا مريض بالقلب، ولا أستطيع ان انزل الى القبو!

اتذكر اني رأيت الباب يفتح، ثم رأيت بقعة الدم وقد غطت مساحة واسعة من أرض القبو. لا أعرف كيف نزلت الدرجات العشر. حصل ذلك في لمح البصر ، ضربني حاتم على وجهي بظهر يده، وفي اللحظة التالية احسست برجل تضربني على ظهري، وأهوي ، لم يدم ذلك وقتاً طويلاً، حصل بسرعة!

كان القبو صغيراً لدرجة ان ثلاثة اشخاص لا يمكن ان يناموا فيه، اما الجدران والسقف، فقد كانت متقاربة لزجة، والنافذة الصغيرة، والتي تشبه شقاً، كانت تستقبل ضوءاً باهتاً، ينزلق اليها من ارض الحوش.

ما أن أفقت من الصدمة الأولى، حتى بدأت أصرخ. شتمت، قلت بأعلى صوتي: أيها الأنذال. انفتح باب القبو. كان الضوء في الخارج زاهياً فواحاً، وكان طلاء الجدار المواجه، له صفرة لذيذة. فرحت لما رأيت الباب ينفتح. لقد استجابوا

---

(١) كلمة قسحة.

لصراخي، ولن يقولوا شيئاً لسجين اضطرته المعاملة القاسية لأن يشتم.

قال لي رجل لم استطع أن أتبين وجهه، لأن الضوء وراءه كان يطغى ويعطيه ظلاً أسود:

ـ اخرس يا ابن الكلب، واذا سمعت صوتك مرة اخرى يا ابن القحبة العن اجداد اجدادك؟.

اي شيطان حرك لساني في تلك اللحظة؟ أية افكار دارت في رأسي؟ لا أدري. قلت له بصوت أردته ان يكون صلباً:

ـ انا مريض، ولن أبقى في القبو!

ـ مريض.. سوف تشفى الآن.

اوقعني خرطوم الماء المندفع من أعلى. وخلال فترة قصيرة كنت أعوم في بركة من المياه، وذهبت كلماتي التي حاولت ان تكون قاسية، في جوف المياه المتدفقة، حتى اذا تعب قال:

ـ هذه المرة ماء، اذا سمعت صوتك مرة اخرى اغرقتك في البول!

لم أنم.. ظللت طوال الليل ارتجف، حاولت كثيراً، فكرت كثيراً بطرق لا حصر لها من أجل أن أتخلص من الماء، لكن ذهبت محاولتي وأفكاري دون جدوى. فتحوا لي الباب في اليوم التالي. خرجت لفترة، دقوا عليَّ باب المرحاض مرتين أو ثلاثاً، ولم أستطع أن أفعل شيئاً. شعرت بحقد لا يوصف، بصقت على أرض المرحاض مرات كثيرة، لكن الألم في رأسي كان قوياً لدرجة اني لم استطع أن أفكر. لما رجعت رأيت رغيفاً من الخبز وقطعة صغيرة لا تزيد على قطعة نقود معدنية من الجبن، كنت جائعاً، لم أتذوق شيئاً، منذ صباح اليوم السابق.

كنت أريد النوم، بعد أن شبعت. كان طعم الخبز لذيذاً، أكلت على مهل وقد جعلت قطعة الجبن آخر شيء أضعه في فمي. بدا لي النوم، في تلك اللحظة، أجمل لذة يمكن لانسان أن يمارسها. وقفت في الزاوية، احاول أن استند الى الجدار وأنام، ولكن رجليّ وهما تلامسان الماء البارد، جعلتا النوم مستحيلاً. رفعت ساقاً وتركت الأخرى في الماء، بدلت ساقاً بالثانية، ولكن النوم كان لا يأتي!

لا أعرف كيف خطرت لي فكرة وجود مصرف للمياه. بدأت أتلمس الأرض

شبراً شبراً، لعلي أجد ذلك المصرف اللعين، بدت الأرض صلبة متجانسة لدرجة ان قطرة ماء واحدة لا يمكن أن تنفذ. فكرت ان أصرخ، ان استغيث، قدرت ان الحارس الآن لن يكون هو نفسه الذي وجه لي خراطيم الماء. . . قلت في نفسي: لا يمكن أن يكونوا جميعهم قساة بنفس الدرجة، وهذا الحارس الذي ألمح حذاءه بين فترة وأخرى، من الشق المستطيل الملتصق بالسقف، لا بد وأن يكون احسن من ذاك.

لا يمكن أن يشق الصراخ طريقي لقلوب هؤلاء الرجال. يجب أن أدق باب القبو بهدوء، حتى اذا اقتربوا مني، اذا سألوني، رجوتهم أن يخلصوني من الماء، لكي أنام ساعة واحدة. كانت ساعة واحدة تكفيني. قلت لنفسي بتصميم: لا يمكن أن أرجو أحداً، سأجلس على درجة من درجات القبو وأنام. لمت نفسي كثيراً لأني لم أفكر بهذا الأمر من قبل، وصممت ألا أترك شيئاً إلا وأفكر فيه.

بدأت من أولى الدرجات، كانت ضيقة، صغيرة، لا تتيح للانسان أن يجلس، وكانت حوافها محطمة في اكثر من موضع، حتى ان تفكيري قادني الى أن هذه الدرجات حطمت بشكل مقصود لكي لا ينام عليها أحد!

بدأت بالدرجة الأولى. . كانت اكثر الدرجات ضيقاً. تركتها ونزلت الى الثانية، كان احد جوانب الثانية مكسوراً بحيث لا يمكن الجلوس عليها ابداً، اما الثالثة فكانت مريحة للغاية. جلست فوقها، كانت لا تتسع لي إلا اذا جلست، لو حاولت أن أنام يجب ان أمد رجلي لكي تتجاوز درجتين أو ثلاثاً. . مددت رجلي، شعرت بألم في ظهري، شعرت بألم رأسي يزداد، تركت رأسي يرتاح على الدرجة العليا، استدرت لأنام على جنبي، استدرت الى الناحية الثانية. كان السقف، أو الظلام يغطي كل شيء، حتى ان فكرة الموت طغت عليّ لدرجة لم استطع أن أنام. طردت الافكار، وحاولت من جديد. قلت بتصميم لا حدود له: لا يوجد غير هذا المكان ويجب أن أنام. أغمضت عيني، لكن فكرة أن أتخلص من المياه عاودتني من جديد. وفكرت في البحث عن مصرف، أو الدق على الباب، وفكرت بالصراخ. ثم فكرت ان اقول للحارس كلمات حلوة، وأذكره بالعيد لعله يرق لي ويساعدني. . وطردت كل الافكار. قلت وأنا أحاصر الألم الذي احسه ينبع في كل مكان من جسدي: انت يا رجب لا تزال في يومك الأول، لم تر شيئاً، فإذا بدأت تضعف منذ الآن، فسوف تسقط مثل جيفة. اصمد. تحمل. . ورفاقك ألم ينزلوا قبلك الى هذا القبو؟ ألم يحتملوا وينامو، ثم خرجوا أقوياء؟ ولكن كيف يستطيع الانسان أن ينام؟ أين؟.

آه. . ما أشد روعة أدراج القبو! استغرب الآن كيف ترددت في أن أنام عليها. هل كنت أحمق لهذه الدرجة؟ وهل يريد الانسان مكاناً أفضل من تلك الادراج لكي ينام؟.

بدأت الضجة منذ وقت مبكر صباح الاثنين. سمعت أصوات البشر ووقع اقدامهم الكثيرة. كنت أرتجف من الخوف، كنت اتابع الخطوات حتى تبتعد. تصورت كل خطوة تضغط على اعصابي، تناديني. حاولت أن أجسد في رأسي اشكالاً للبشر من خطواتهم: هذه خطوات رجل ثقيل، هذه لرجل نحيف، هذه لشرطي، وإلا لماذا تبدو ثقيلة بليدة هكذا؟ وهذه اليست خطوات الضابط؟ ولكن الضباط لا يمرون قريباً من القبو، لا يقتربون منه، تكفي اشارة صغيرة لكي ينتقل كل شيء عندهم. . وهذه الخطوات لماذا تبدو بطيئة متعثرة؟ موقوف؟ وهل بدأوا في هذا الوقت المبكر؟.

ان لهؤلاء البشر عالمهم الخاص. يجب ألا أتدخل، لأتركهم، لأكتشف كل شيء بنفسي، أما التفكير فيجب ان اوفر كل ذرة من اجل ان اظل متماسكاً، ان اجيب عن الأسئلة دون خوف. وهل يسأل هؤلاء الناس؟ هل يتكلمون مثل باقي المخلوقات؟.

في احدى الجلسات قال هادي، وهو ينظر في وجوهنا بصرامة:

ـ يجب ان تعرفوا منذ البداية، الطريق طويل وصعب، من يجد نفسه غير قادر فليقل الآن، لن نلوم احداً اذا تخلى الآن، اما بعد التوقيف والسجن، فأي اعتراف، أي انهيار، سوف يجعل من المعترف والمنهار خائناً. . . أتسمعون ما أقول لكم؟.

خرجت الكلمات من أفواهنا صلبة. ظننا ان هادي لا يثق بنا بالمقدار الكافي. كنا نريد ان نبرهن له كيف نكون رجالاً، لا نعترف ولا نهار. لم يستمع الى الكلمات التي قلناها، اكتسب وجهه حزناً مخيفاً وهو يقول:

ـ الآن لا نستطيع ان نحكم على احد، السجن هو المحك الوحيد، ولكن ليس معنى كلامي ان نحوم حول السجن مثلما تحوم الفراشات حول النار. . لا. . السجن آخر شيء يجب أن يقع لأي واحد منكم، احذروا كثيراً، اعملوا كل شيء من أجل أن لا تقعوا في ايدي البوليس. . واذا وقع الانسان فيجب ان يثبت انه رجل ويعرف كيف يتحمّل!

كان ذلك منذ وقت بعيد، أتذكر ان ريحاً عصفت خارج النافذة، ولا أتذكر ان

كانت ريح الخريف أم ريح الشتاء. وبمجرد مرور هذه الذكرى الآن، احس أن كلمات هادي لم تكن واضحة بالمقدار الذي يدفع الانسان لأن يقرر في الوقت المناسب. كانت الرياح أقوى من كلمات هادي وأشد قسوة!

قلت لهم وأنا أتلوى من الألم:

ـ لا أعرف هادي ولم تره عيني!

ـ تتصور ان ما تعاني منه ألماً؟ سوف ترى بعينك كيف تأخذنا وتشير الى البيت الذي يختبىء فيه، دون أن نسألك.. لن يطول صمتك؟.

ـ ولكني لا أعرف إنساناً بهذا الاسم؟.

ـ هذا ليس اسم انسان، انه وحش، أتعرف وحشاً بهذا الاسم؟.

ـ قلت لكم لا أعرف أحداً!

قال لنا هادي ذات مرة، وكنا ثلاثة:

ـ لا تصدقوا.. ان أكبر قوة على الأرض، لا يمكنها ارغام الانسان على الاعتراف.. اقصد اذا أراد الانسان. بعض الناس يموت ولا يعترف. القضية متوقفة على الارادة، وعلى البداية اذا قرر الانسان أن لا يعترف، اذا صمم، وتحمل لحظات العذاب الأولى، يصبح كل شيء بعد ذلك سهلاً.

الارادة.. كنت أتصور ان بعض الكلمات لا تعني شيئاً أبداً.. وأنت يا أشيلوس الهرة، هل تريدين شيئاً؟ في القمرة البعيدة، في المقدمة، يجلس رجل يتجاوز الأربعين، له لحية صغيرة رمادية.. هو الذي يريد كل شيء.. يقول لك اسرعي، توقفي، انحرفي في هذه الناحية أو تلك، ذاك هو الذي يريد، وأنت ايتها الرائعة، ايتها البقرة الثقيلة، لا تفعلين شيئاً سوى انتظار ان يقول لك.

كنت أتصور ان الجسد يسقط، ينخر، يفقد القدرة على الاحتمال، وكنت أتصور الانسان اذا وصل الى هذه المرحلة، يجب أن يستسلم.. هذا ما تصورته في البداية، ولذلك كنت امتحن جسدي. ضربت رأسي بالحائط مرات كثيرة، ضربت ساقي اليمنى بطرف حذائي الأيسر.. سقطت من الألم، تصورت ان ضربة مثل هذه سوف تدفعني للاعتراف، لكن التعذيب، أمواج البحر، هبات الرياح، هذا العناد الأخرق الذي تعبر من خلاله الطبيعة عن وجودها.. والملاح، الذي يعرف ارتفاع

الأمواج، أتجاه الرياح، ويعرف خراقة الطبيعة، يستطيع ان ينجو، أن يستدير هذه الناحية أو تلك وينجو، لتصبح الطبيعة في النهاية ذكرى حزينة!

الحقيقة كلها أقولها لك ايتها الهرة.

قال لنا هادي، وقد استبد به الغضب لدرجة تصورت انه سيبكي:

ـ قلت لهذا القذر مرات كثيرة ان يسافر، عرفت انه سيضعف ويعترف، وفي كل مرة يتذرع بأوهى الحجج ليبقى. كنا نريده ونخاف منه. كنا نريد ثقافته وقدرته في الكتابة، وكنا نخاف ان يسقط في أيدي البوليس وينهار.

قبل أيام وجهنا له امراً بالسفر.. قال: اعطوني مهلة ثلاثة أيام لكي استعد، قبضوا عليه في اليوم الثاني، وقبل أن يمضي اسبوع، كان توقيعه في الجريدة.. لقد تحولت ارادته الى كلمات، وحتى الكلمات كان يتخلص منها بكتابتها على الورق، كان يكتب لنا، والآن يكتب لهم!

ـ قل لنا أين هادي ولا نريد منك شيئاً آخر.

ـ ولكني لا أعرف انساناً بهذا الاسم.

ـ ألا تعرفه...

ـ لا...

كل شيء في أشيلوس يذكر بتلك الأيام. نزلت أمس الى العنابر. الوقود والمؤن ورجال لا تظهر منهم سوى اشكال غامضة تتحرك في الدهاليز نصف المضاءة. كنت أرى وجهي في عيونهم. الغضب. الحقد. الشتائم. هل يحتوي الانسان على هذا المقدار كله من القسوة والشتائم؟.

مددوني على طاولة، كنت عارياً تماماً، وجهي باتجاه الأرض، ورأسي يترنح من الضربات، لا أعرف أي عدد من السجائر اطفأوا في ظهري، على رقبتي، داخل اذني وبين اليتي، كانوا يضحكون أول الأمر، وأنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقي الطليقتين. رفست مرتين أو ثلاث مرات، ولما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجلي بقوة، وبدأوا يصرخون: «اعترف.. اعترف يا ابن الزنا».

اتذكر اني قلت لهم: لا أعرف شيئاً، ولن أقول لكم يا كلاب!

انهالت عليّ آلاف الضربات بالكرابيج والأحذية. ضربوني بأحذيتهم على وجهي

المتدلي، قفز واحد منهم فوق كتفي، وكانت يداي مربوطتين وراء ظهري. شعرت ان عظامي تتمزق ورقبتي تسقط مثل خرقة.. وصرخت:

- لا أعرف.. لا أعرف شيئاً!

ارتفع صوت الغناء، وضعوا عصا غليظة بين اليتي، ضحكوا وأنا أتلوى، بصقوا عليّ، أحسست بماء ساخن فوق ظهري.. هل كانت دمائي تنفجر في مكان ما وتترنح بسخونتها؟ هل كانت قطرات من البول؟ هل كانت شيئاً آخر!؟.

«أتتصورون ان الانسان اذا قال شيئاً ينتهي الأمر؟ لا، الكلمة الأولى بداية لسلسلة من الاعترافات.. وأي تأخر في الاعتراف، في الاجابة، يثيرهم أكثر من الصمت. لا أقول لكم هذا الكلام إلا عن تجربة.. جربت نفسي، ورأيت الذين جربوا العكس. الخرزة الأولى وبعدها ينفرط كل شيء!»

قال هادي هذه الكلمات ونحن نتذكر وجه ناجي، بعد أن قرأنا اعترافاته، وكنا نسير الى جانب النهر، كان الصمت فسيحاً مثل حقل لا نهاية له، وكان الخوف ينعقد فوق رؤوسنا ظلاً حزيناً. قلت له ذلك اليوم:

- هل تتصور ان اعتراف سعد الدين كان نتيجة التعذيب؟.

- لا أريد التصور. سعد الدين اعترف، واعترافه نتيجة الخوف.. الخوف من التعذيب، أو من التعذيب ذاته. عندما يخاف الانسان يفقد السيطرة على نفسه.

- والاعترافات الاخرى.. هل ضربوه من أجل أن يحصلوا عليها؟.

- اذا بدأت الخيانة لا تنتهي. الشيء له بداية، أما النهاية فلا يعرفها أحد!

- لم أكن أتصور أن سعد سيعترف!

- وقد يأتي يوم يتبين لنا أن سعد الدين لم يضرب، لم يمس.

- أتقصد انه متعاون معهم منذ البداية؟.

- فقد ارادة المقاومة. كان يلذ له أن يسأل كل من دخل السجن عن كل شيء، كان يسأل عن أدق التفاصيل وأصغرها. «متى استدعوك أول مرة؟» «كم كان عددهم؟» «ما أشكالهم؟» «هل جلست؟» «نمت؟»«ومتى انتهى التعذيب؟، قبل الفجر أم بعده؟» كانت اسئلة سعد الدين تحيرني، لماذا يسأل بهذا الشكل؟ ربما ارتسمت في رأسه الصورة قبل أن يسألوه كلمة واحدة، ولكي يتجنب التعذيب قال لهم كل شيء!

ـ كيف يمكن للانسان ان يعترف حتى قبل ان يضرب؟.

ـ مثلما قلت، الضرب لا يغير ارادة الانسان، وربما كان العكس هو الأصح. بمجرد ما تمتد اليَّ يد امتلىء تصميمًا ان لا أقول كلمة واحدة، ومع كل ضربة جديدة ازداد بعداً عن السقوط. . الانسان ارادة قبل كل شيء!

ـ باعوك يا رجب، اعترفوا عليك، لم يتركوا كلمة إلا وقالوها، وأنت الى متى؟ ألا تعترف؟ ألا تنتقم لنفسك؟!

ـ ليس لدي شيء. .

كانت الاغنية تتحدث عن القمر. اتذكر بعض الكلمات، عندما رأيت يده تمتد الى مفتاح الصوت احسست برجفة تسري في دمي.

هل يخافون أحداً؟ لماذا اذن يرفعون صوت آلة التسجيل؟ وهذه الأغاني التي تتحدث عن القمر والبحر، ألا تنتهي؟ لن اسمع هذه الأغاني. سأحطم الراديو دون رحمة اذا سمعتها، لا أطيق.

امس فوق ظهر الباخرة كانوا يغنون بشكل مختلف. كانت أفواهم وهي تصرخ بتلك الآهات، تحمل معنى ألم الانسان. رأيت دموعهم المتحجرة في عيونهم، أما الأغاني التي كانوا يغنونها فإنها تذكر بالعالم السفلي، عالم الدماء والقطط.

ظللت صامتاً. الاغنية تتموج مثل السياط في دمي. قال لي ببرودة كاوية:

ـ اخلع ملابسك كلها، كلها، قطعة وراء اخرى، ولا تتأخر!

حاولت مرات كثيرة أن أتمرد. ظلوا ينظرون اليَّ بسخرية، وكانوا يضحكون. ولكن في النهاية تعودت أن استفزهم. اذا قالوا اخلع ملابسك، اخلعها. اذا قالوا انبطح على وجهك افعل وكأني أقوم بواجب يومي. اذا قالوا اقعد مثل سعدان، كنت أجلس واضعاً يدي حول ركبتي. كان شيء واحد يملأ عقلي في كل وقت: ان اظل جداراً، جداراً صامتاً. أن لا أقول الا ما أريد.

ـ رجب. . هذه المرة لا نريد أن نضربك، ماذا تقول؟.

ـ تعودت وليس عندي شيء أقوله!

ـ ألا تخاف؟.

ـ انتم تعرفون! .

ـ والله يا ابن القحبة سأجعلك عبرة، سوف تتكلم هذه المرة.

قالت الطفلة التي رأيتها امس، وهي تستند على الحاجز بجانبي:

ـ كانت الحفلة رائعة. . الغناء والمزمار، ما رأيك؟.

كانت الحفلة تبدأ في الثانية عشرة ليلاً، في الواحدة، وتمتد حتى الخامسة، حتى السادسة. متى ينام هؤلاء الناس؟ هل ينامون فعلاً؟ ولماذا في هذه الأوقات بالذات؟ كانوا يضربون الباب بأرجلهم الثقيلة، يصرخون في الظلمة، وكل دقيقة تأخير، كل كلمة احتجاج، وحتى النظرة كان يقابلها في الطريق عقاب.

ـ عصبوا عينيه. . وضعوا رأسه في الكيس.

يمكن للانسان ان يحتمل كل شيء. حتى الضربات التائهة التي لا يعرف من أين تأتي، يمكن للجسد أن يتحداها. . سقطت مرات كثيرة من الضربات. كنت أظل على الأرض، لكي أتعبهم وهم يرفعونني، كنت أتباطأ اثناء الوقوف لكي أدمر اعصابهم. . وتتوالى الضربات. بالأيدي، بالأحذية، بالعصي. كانوا يضربونني على وجهي، ثم مباشرة على ساقي. يضربونني لكمات على بطني، فاذا شددت عضلات بطني تحسباً للضربات التي ستأتي، اسمع وشيشاً في اذني، ثم احس لهباً ينفجر من خصيتي!

ـ ألا تعترف؟.

ـ ماذا تريدونني أن أقول؟.

ـ قل كل شيء في بطنك يا ابن القحبة!

وأبدأ:

ـ ١، ٢، ٣، ٤، .

وقبل أن أصل الى الخمسة احس الأرض رخوة، وأحسها تدور. كانوا في البداية يتضايقون من أية كلمة أقولها. وقررت أن أصمت. بدأت المح في وجوههم آثار الصمت: دامية مفزعة.

ـ قل كل شيء. . اصرخ، اشتم، أما أن تبقى صامتاً. . فهذا لن نسمح به ابداً.

ـ القطط يا محمد.

وضعوني في كيس كبير، ادخلوه في رأسي، وقبل أن يربطوه من أسفل، ادخلوا قطتين.. هل يمكن للانسان ان يتحول الى عدو للحيوان؟ والقطط ماذا تريد مني؟ كانت يداي مربوطتين الى الخلف، كنت مستلقياً على وجهي أول الأمر، وكلما ضربوا القطط وبدأت تنهشني، وحاولت أن أنقلب على جانبي، احس برجل ثقيلة فوق كتفي، على وجهي، وأحس الأظافر تنغرز في كل ناحية من جسدي. لما فكوا الكيس، كنت أريد أن أرى القطط، كنت أريد أن أحفظ صور أعدائي الجدد. تراكضت القطط المذعورة، كأنها خرجت من الجحيم. كنت دامي الوجه وأحسست بالنزف من عيني اليسرى.

ضحكوا كثيراً.. لما رأوا دمائي.. استلقى نوري على ظهره، كان يضحك من الفرح واللذة، وبعد أن مسح عينيه من آثار الدموع، قال لي:

ـ ما رأيك بهذه الحفلة؟ ألا تعترف؟.

لم استطع أن أجيب. كان جسمي يلتهب. يتمزق من الألم. لا أعرف هل حركت كتفي، أم تصورت ذلك، قال لي وهو يجرني ناحية الباب:

ـ عندي آلاف الوسائل التي تجعلك تتكلم مثل ببغاء.. هل تتكلم، أم تريد أن تجرب؟.

كنت في ذلك الوقت مستعداً لأي شيء، ليفعل نوري مايريد، سوف أقتله بصمتي، يجب أن أعاقبه بالطريقة التي تقتله.

أمسك أصابعي بقوة، ودفعها بين شقي الباب وبدأ يغلقه بهدوء. لما صرخت بصقٍ في وجهي، قال بتشفٍ:

ـ هل رأيت؟ هذه واحدة من ألف!

ـ لا تتعب نفسك يا نوري.. لن تظفر بكلمة.

كان يجب أن أظل صامتاً!

ـ والله يا ابن الكلب، يا..[1] سأجعلك تتكلم في نومك...

---

(١) كلمة قبيحة جداً.

ـ حاول!

هل كانت تلك أقسى الليالي؟ أطولها؟ جرب نوري كل الوسائل، وضعني خلف درفة الباب المفتوحة، وضرب الدرفة بقوة أول مرة. احسست رأسي ينفجر، شعرت أن اضلاعي تخرج من عيني، ولم يسألني شيئاً، بدأ يغلق الباب بهدوء، وشعرت أن اضلاعي تتكسر، لم أعد اقوى على التنفس، شهقت عدة مرات من الألم ومن الرغبة في ان اعب الهواء قبل أن انتهي.

ـ هذه بداية . . ماذا تقول؟.

لم يكن ينتظر جواباً، كان يريدني أن أمر على جميع وسائل التعذيب قبل أن يسألني. قال لي:

ـ سأجعلك هذه الليلة اعجوبة. . لا أريد منك كلمة واحدة، وسأرفض غداً، وبعد غد، استقبالك، لا أريدك ان تتكلم من الألم، أريدك أن تقول كل شيء وأنت مرتاح تماماً!

لو طلب مني ان انزع ملابسي تلك الليلة، لما فعلت. قررت دخول الرهان مع نوري حتى نهايته، ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا الرهان. قال لعبد:

ـ انزع ملابسه. . وحضر الحبل.

كانت مقاومة بائسة أقرب الى العبث، بعد دقيقة أو دقيقتين وجدت ملابسي كومة الى جانبي وأنفاس عبد تلهث في ظهري، وهو يشد الحبل حول يدي. ماذا يستطيع هذا الخنزير أن يفعل؟ البكارة؟ أن يدعو عشرة من حراسه ويفعلوا ما يشاؤون. . . هذا أقصى ما يستطيع. . سمعت القصة أكثر من مرة. هددني نوري أكثر من مرة، قررت أن أموت تلك الليلة. ليفعل نوري أي شيء. لم أعد أطيق أن أظل حياً يوماً واحداً.

أية روح أبالسة يمكن أن تعيش في الانسان؟ لا أريد أن أتصور أي وصف، أية كلمة لأقول أن نوري هو كذلك.

أمسك مثل طبيب بخصيتي. بدأ يضغط بهدوء أول الأمر، ثم شدهما بعنف الى اسفل، احسست بروحي تخرج من حلقي، لا يمكن لانسان احتمال هذا الألم كله. . تركهما. .

احسست بهما ثقيلتين، متدليتين كأنهما أجزاء زائدة غريبة، وبدأ يتسرب الألم الى امعائي حاداً مثل سيخ النار. . لا أعرف من أين أتى بذلك الدبوس الكبير، كان أكبر دبوس رأيته في حياتي. . أشعل عود ثقاب، اشعل سيجارة ووضع الدبوس فوقها. تمنيت في تلك اللحظة لو يغرسه في قلبي. . لو فعل لأنتهى كل شيء. لكن ابليس المجنون العابث لا يريد أن يقتلني. . من جديد رأيته يمسك خصيتي ويغرز الدبوس الأحمر. . أي إله يمكن أن يكون في هذا الكون ويرى؟.

الانسان هو الاله. . بصقت في وجهه من الالم والتحدي. كنت أريد أن أفعل أي شيء قبل أن أموت. لقد فعل نوري كل شيء، ألا أستطيع أن أرد عليه مرة واحدة؟.

أحسست بجراحي تزغرد من الفرح لما رأيت البصقة تنحدر بهدوء من عينه الى خده، قريباً من الأنف. أذهلته المفاجأة، لم يستطع أن يفعل شيئاً أول الأمر، ثم لما احس بالبصقة تقترب من فمه، مسحها بظهر يده. كان مجنوناً في تلك اللحظة. ضربني بحذائه على وجهي، ما تزال العلامة باقية حتى الآن، ضربني على بطني، ضربني بيديه وقدميه، حتى تعب، كان الآخرون يتابعون دون ان يقولوا كلمة، لكن عندما جلس ، هز رأسه بطريقة معينة، تأكدت بعدها ان حياتي انتهت. انقض عليَّ عبد وأبو خيري، انقضا مثل وحوش مجنونة، وكأنهما ينتظران تلك الاشارة. . اتذكر ان وجهي اصطدم بالحائط وبدأت الدماء تغسلني، ولا أتذكر بعد ذلك إلا ويداي مربوطتان بالسقف وأتدلى!

أشيلوس، يا بقرة بيضاء مقطوعة السيقان، ألا تعرفين كم مرة يموت الانسان وكم مرة يولد؟ التفتي الى الشاطىء الشرقي، لتغرز دموعك في الأماكن المظلمة، وانظري. . بقايا البشر. . الضحايا والجلادين. . بقايا البشر!.

احذري يا أشيلوس ان عدت يوماً للشاطىء الشرقي. . سيجدون لك سرداباً أصغر من القبر، وهناك يجب أن تقاومي الجنون والوحدة، لقد جنت المخلوقات هناك. . القطط مجنونة لا تقترب من البشر، لا تهرهر مثل قطط المناطق الأخرى، تجفل من الخطوة، من قطعة الخبز، ونداء الحرية عندها أقوى من نداء الجوع. . لقد جنت القطط تماماً، والبشر المجانين يلاحقون القطط، يقبضون عليها، يدخلونها في الأكياس مع البشر، يضربونها ويضربون البشر، تموء، تصرخ، تمزق بمخالبها كل شيء!

ليست القطط وحدها المجنونة يا أشيلوس: الكلاب والعصافير جنت أيضاً.

آه لشد ما هم منحدرون. منحدرون وجبناء. أليس لهم أخوة؟ زوجات؟ واطفالهم، هل تعرف هذه الأيدي ان تحمل الاطفال مثل باقات الورود وتداعبها؟ لا أصدق أن يداً مثل هذه اعدت لشيء غير ان تضرب وتضرب وتضرب.

السويدية التي تحمل من شاطىء المتوسط الشرقي ثلاثة كناريات صفراء في قفص كبير، ابتسمت لي امس لما رأتني انظر الى طيورها بدهشة. ظلت تراقبني من بعيد، ولم تقل شيئاً.. هل هذه الطيور شبيهة بتلك التي كان نوري يعلقها في غرفته؟ الألوان، المناقير، خفقات الاجنحة، تكاد تكون نفسها، ربما كانت هذه أبناء لتلك، نعم يمكن أن تكون.

كان نوري قصيراً، واسع العينين، شفته السفلى ثقيلة مرتخية، أما الأذنان فقد اكتسبتا حمرة معربدة.. كان اذا خلع سترته وبان كرشه بدا أقصر، أما إذا رفع اكمام القميص، حتى الساعد، فإن الشعر الاسود الغزير يتدفق كشلال على يديه، وكان بهاتين اليدين القصيرتين ينثر الحبوب في قفص الطيور، وكان بهاتين اليدين يغمس رأسي في الماء، فأحس اثقالاً لا حدود لها تجثم فوقي، حتى اذا كدت اختنق، جر شعري بقوة ثور، وقبل ان اشهق شهقتي الثانية احس من جديد ثقل الماء رصاصياً كاوياً وهو يضرب وجهي مرة أخرى!

اشيلوس، هل تقولين لهذه السويدية التي تنام الآن في فراش دافىء وتحلم بطيورها، إني اكره كل الطيور، وان نظرات الأمس كانت تشفياً ملعوناً؟ هل تقولين لها يا أشيلوس؟.

كانت الطيور تغرد إذا دخلنا، كانت تنتقل من طرف القفص الى الطرف لآخر، وتنظر الينا بسخرية، تلتقط الحب وتقفز، كانت هكذا، حتى ونحن نضرب. لتفت مرة وانا ملقى على الأرض ويداي معصوبتان تحت ظهري.. كنت أتمزق من لألم، كنت أريد ان ابكي، رأيتها ما تزال تقفز، هل كانت تقفز من الخوف، من فرح؟ كانت تقفز، تغرد... نوري يحب طيوره، يطعمها بيديه، يقف طويلاً يتأمل شها الأصفر، مناقيرها التي تنغمس في فنجان الماء الأبيض، كانت ابتسامة شديدة مرح تطفو على وجهه وهو يرقبها.

- اكتب يا ابن القحبة.. غير خطك كيفما تشاء، سأعرف كيف التقطك مثل

جرذ. . لا تنقري، خذي الحب دون ان تنقري. . اتركيه يأكل، ابتعدي أنت، هل أنت حاضر؟ اكتب!

كل شيء له رائحة القيء. . الكناري، عبد الطويل والذي تشابه يده سمكة كبيرة ثقيلة، حاتم المعروق الوجه، نوري بالضحكة المدوية، عندما يسخر، عندما يتحدى، حتى دمائي قبل أن تجف كانت لها رائحة القيء.

وأنت يا اشيلوس، الا تسألين هذه السويدية مرة أخرى، لماذا الاقفاص الكبيرة؟ كنارياتها الصفراء المتبجحة، توضع كلها وعشرات مثلها في ركن من القفص، وهذا الفضاء اللامتناهي الباقي من القفص، ماذا تفعل به؟.

لما وضعنا في تلك الغرفه، شعرت اني أولد من جديد. . منذ سبعة شهور لم أر انساناً غير هؤلاء القتلة. كنت في القبو احارب الجنون. امسكت مرة نملة سوداء كبيرة، قدمت لها رغيفي كله، وضعت امامها قدح الماء، وقلت لها بصوت حاسم مليء بالرغبة:

ـ لن اتركك الآن. ستبقين هنا ثلاثة أيام، انت ضيفي، بعد ثلاثة ايام يمكن أن نتحدث.

لما رأيتها تبتعد عن رغيف الخبز، حملتها من جديد ووضعتها فوقه. بدأت تنزلق، تريد أن تبتعد. صرخت:

ـ ألا تعرفين العادة ايتها النملة المقدسة، يا ضيف الله؟ الضيافة ثلاثة أيام. قولي عني ما تشائين. . قولي نوري أو عبد، قولي جلاد وكافر، قولي، فأنا لا أسمع إلا ما أريد.

لم احتمل ان احبس النملة عندما اصبحت قريبة من الشق، قلت لها وأنا أراها تتسلق الحافة:

ـ يجب أن لا تبقي وحيدة. . لو ظللت هنا لكنت صديقك، احذري ان تقتربي ناحية الجنوب، هناك لا يعرفون معنى الصداقة، وليس لهم أصدقاء. . . اذا ضقت من قبوي، فاذهبي هذه الناحية، ناحية الشمال. . هناك تجدين الاصدقاء!

سألتني الصغيرة وهي تقترب مني:

ـ هل أصابك الدوار؟ لم نرك منذ الصباح؟.

قلت وأنا أسحب عيني عن وجهها اللذيذ:

ـ اشعر بالغثيان، لكن ما زلت احتمل.

ـ يبدو انك معتاد؟.

ـ لما كنت صغيراً كنت أقضي ساعات طويلة مع خالي في البحيرة نصطاد السمك.

ـ والبحر، ألم تركب سفينة قبل هذه المرة؟.

ـ هذه أول مرة.. وأنت؟.

ـ أول مرة!

ـ هل تشعرين بالدوار؟.

ـ لم أنم طوال الليل، اخطأت اذ لم استعمل الدواء.. تصورت اني احتمل، لكن اليوم لم آكل إلا قليلاً واخذت حبة دواء!

ـ وكيف تشعرين الآن؟.

ـ اشعر اني مرتاحة، سأنام باكراً.

انعقدت عند الغروب حلقة للرقص. بعد ساعتين نصل البيريه. اشيلوس البقرة البيضاء المقطوعة السيقان، تعاند البحر، تقهره، لم تتأخر في رحلتها إلا مثلما يتأخر حاتم في فتح باب القبو، كنت اسمع مفاتيحه، كنت أنتظر، وبعد أن يعالج الباب ينفتح، كانت تداهمني اشعة الضوء المغروسة فوق الباب، ولا أرى إلا ظلالاً.

حفلة الرقص مجنونة. الطفلة بعيون مليئة بالدهشة، انسحب في ظلال المساء بعيداً، اصبح تحت السماء.. مطر صغير مغزول من القطن، ولا تراه العين إلا في شبح الاضواء المنثورة على السفينة. أشيلوس تجاهد لكي تصل، تعذبها لحظات الانتظار الباقية، تفترس نفسها بشكل ما، تحقيقاً لرغبات مبهمة.

الاقفاص الكبيرة.. الدوار، النوم الباكر، وأي شيء آخر؟.

كنا أربعة عشر رجلاً.. أربعة عشر. نعم أربعة عشر. الغرفة لا يمكن أن تستقبلنا إلا وقوفاً، وقوفاً تماماً. كانت الاجساد متراصة، رائحة العرق، رائحة الافواه، الشعور الطويلة، الاظافر السوداء من بقع الدم المتخثرة تحتها، على هذه

المسافات المتناهية الدقة لا يمكن للانسان ان يرى شيئاً. . طرف الوجه قطعة لحم صمّاء لا تعني وجهاً أو جزءاً من وجه، الأنف كتلة كبيرة تنتفخ وتتقلص في محاولة لأن تسحب الهواء، والشفاه رغم كل شيء تنفرج عن أسنان يخيم على أقسامها السفلى سواد الدخان، ويخيم على أقسامها العليا السواد المصفر. . لكن كنا أربعة عشر رجلاً، وأن يكون الانسان داخل هذه الكتلة من البشر ينتابه فرح أخرس، كل هؤلاء بشر. . بشر حقيقيون. . حقيقيون تماماً. . انفاسهم، الحركة المتموجة، الضحكة. . الصغيرة، كنا بشراً حقيقيين، كنا أربعة عشر.

هل انتهت فترة التوقيف المنفرد؟ هل احتملت كل هذه المدة؟ لا أصدق.

رأيت تحت المظلة، قريباً من مقدمة أشيلوس ، رجلاً يضع على اذنه راديو صغيراً!

الاخبار؟ انتظر، انتظر، سيطول الانتظار ايها المسافر، ستموت قبل أن تسمع الكلمات التي تنتظرها. شاطىء المتوسط الشرقي لا يلد إلا المسوخ والجراء. . وأنت تنتظر الخيول والسيوف! انتظر، سيظل ذاك الشاطىء يقذف كل يوم عشرات الجراء، مئات الجراء، وحتى لو وصلت اعدادهم الى الآلاف، فستظل جراء تعوي في السراديب، أو تموت في المزابل. لأنها تريد ذلك!

اسمع الأخبار، وحدك، لا أريد أن أسمع. . يكفيني ما سمعت!

كانوا يوقفون التعذيب عندما تحين ساعة الاخبار. كانوا يحرصون على أن يسمعوا مقدمة النشرة. . حتى اذا اطمأنت وجوههم، اداروا المفتاح، وبدأت الموسيقى من جديد!

آه. . لو ظل الشاطىء الشرقي للمتوسط بركة للتماسيح، ولو ظلت الكهرباء بعيدة. . لكن جاءت هذه اللعنة لكي تقتل البشر.

امجد يتذكر تلك الليلة، كان يتذكرها بعد ثلاث سنين. لم ينسها أبداً، انحفرت في رأسه مثل تاريخ على شجرة قديمة، على جدار دير. لما سألناه مرة عن تاريخ ميلاده، حاول أن يتذكر. قال ١٢ أيار، ثم استدرك وقال ٢٧ نيسان. لما سألناه اي التاريخين هو الحقيقي. . قال: التاريخ الحقيقي الوحيد. . ٢١ تشرين الثاني. . هذا هو التاريخ.

الكهرباء. . الموت الحقيقي، ينخض القلب ثم يموت. كانوا يضعون التيار على

الاكتاف، قريباً من القلب، فوق الأنف، بين الاليتين. . وينتفض القلب، يترنح، يتوقف. . ويتوقفون. .مئات المرات فعلوا ذلك. . لو أنهم شرفاء لدرجة كافية لوضعوه ثانية اخرى وانتهى الأمر. لكنهم لا يفعلون. .

قال أمجد: آخر مرة كانت ٢١ تشرين الثاني. . هذا آخر تاريخ لميلادي، وما عداه كذب أزرق!

التلفزيون، المراوح، الثلاجات، الفواكه المعصورة، أي شيء يمكن أن تولده الكهرباء؟ أن تمنحه الحياة؟ شكراً لله اني لا أعرف أسرار هذا المخلوق العجيب، لو عرفت الاستعمالات التي تمتد اليها الكهرباء لصعقت من الخوف، لأني لم امتحن إلا استعمالاً واحداً: الارتجاف، الاحساس الحاد المتوتر بأن كل شيء قد انتهى. . ثم والمياه تصفعني، وارتعش رعشة الحياة هذه المرة، وما أن اجر انفاسي الى الداخل، لكي أتأكد ان رئتيّ ما تزالان تستقبلان الهواء حتى اشعر بالارتجاف من جديد. . احسه كاوياً مجنوناً، وأغيب. . وما تكاد رعشة الحياة تعاودني مرة اخرى، وأتنفس الهواء الى الداخل حتى أغيب.

اشيلوس ترقص، رقصة الديوك المذبوحة. الفرح في قلب الانسان مغارة لا تعرف الامتلاء، لكن يا أشيلوس التي ترمين بقايا الأكل الى البحر، كما ترمين البشر في الموانىء، الم تعرفي الجوع. . ساعات الانتظار الممضة؟ يجب أن يتعلم الانسان، ان يتعلم باستمرار!

يجب أن يستقبل الكهرباء مثلما يستقبل الرجل المرأة، ان يذوب فيها بصمت، ان يترنح ولا يموت. قال لي نوري، وأنا موثق وملقى أمامه:

ـ نريدك الآن أن تقول الأشياء الاخيرة. . اذا كانت لك رغبة أو رسالة!

نظرت اليه ولم اجب. كان كتفي مكسوراً بعد ان وقف عليه عبد بكل ثقله، ولم يعد يهمني أي شيء. كنت أعرف ان الموت هو الراحة الكبرى التي يمكن أن أصلها، وكنت انتظر هذه الراحة بلهفة مسحورة.

قال لي وهو يخرج ورقة مطبوعة من جيبه:

ـ اذا لم تصدق، انظر.

قرب الورقة من وجهي، لكن لم أقرأ شيئاً. لاحظ ذلك، قال وهو يعتدل في وقفته:

ـ سأقرأ عليك: بعد استكمال التحقيق وتوفر الادلة بخصوص الموقوفين التالية اسماؤهم، تقرر تنفيذ حكم الاعدام رمياً بالرصاص...

وقرأ الاسماء.. سمعت اسمي، كان الثالث.

توقفت مشاعري كلها، لم استطع ان اتحرك، وحتى لو أردت، فقد كانت أية حركة مستحيلة. دفعني بقدمه، لم أحس إلا وجسمي يتقلص بحركة تشنج لا إرادية، وعاد الى السؤال من جديد:

ـ أية رغبات؟ اية أوامر؟ انت تعرف ان المحكومين بالاعدام يسألونهم أن كانت لديهم رغبات.. أتعرف ذلك؟

لم أجب.

بصق في وجهي وقد تغيرت هيئته كلها، صرخ:

ـ ألا تصدق..؟ يجب ان تصدق يا ابن البيت العمومي! يا ابن القحبة!

ربطوا عيني، لا أدري من حملني، لكن أحسست بأيدٍ قاسية ترفعني عن الأرض، كنت مستسلمًا، لأني لا أستطيع غير ذلك.

هدرت السيارة وسارت، قطعت مسافة كبيرة، ثم توقفت. حملوني، انزلوني، سمعت أصوات السلاح، كانت الطلقة وهي تدخل بيت النار، لها صدى ساخر. سمعت الرجال الذين حولي يتكلمون بصوت منخفض.. لم أكن أريد أن أسمع، الألم يجزرني، عيناي تحت العصابة كتل من الألم الساحق، أسناني، وكتفي المكسور كان يجعل تنفسي عسيراً مرهقاً،.. ليكن أي شيء. الموت.. لكن هل أموت فعلاً؟ هل يقتلونني؟ ماذا فعلت؟.

كنت أريد أن أصرخ.. أن أقول افعلوا ما شئتم ايها القتلة.. لكن أصوات السلاح وهي تتحرك بين أيديهم ارغمتني على السكوت.. اصوات السلاح والألم. ولكن هل أموت دون كلمة؟ يجب أن أفعل شيئاً قبل الموت، كنت فرحاً وأنا أرى البصقة تنزلق على وجه نوري. شعرت في ذلك الوقت أني فعلت كل ما استطيع. والآن؟ أأتركهم يقتلونني مثل كلب دون أن أقول كلمة واحدة؟ وما فائدة اية كلمة أقولها الآن؟ ومن يسمعني؟ وماذا لو سمعني العالم كله؟ ألم يقرأ نوري عليّ الحكم قبل قليل؟ ألم يردد اسمي مرتين لكي أتأكد؟ كان من الواجب ان اطلع على الورقة

بنفسي. . هؤلاء الناس يكذبون، لا يتقنون شيئاً اكثر من الكذب! قل كلمة اخيرة يا رجب، يجب ألا تموت مثل كلب، دون كلمة احتجاج، ودون صرخة، ولتكن صرختك قوية تخلع قلوبهم، لن يستطيعوا ان يفعلوا اكثر من أن يقتلوك، هذا أقصى ما يستطيعون!

سمعت طلقة من مكان بعيد. ساد الصمت. كنت معصوب العينين على الأرض. هل يقتلونني وأنا في هذا الوضع، ألا يربطونني الى عمود؟ ألا يوقفونني الى جانب الجدار؟ ليست هذه هي الطريقة التي يتبعونها في القتل، لكنهم لا يتبعون طريقة بذاتها، كل طريقة تؤدي الى الموت، مناسبة لهم. وماذا يهمني أن أموت هكذا أو أن أربط الى عمود؟.

لما نادى ابو خيري عرفت صوته. يبدو انه اشار بيده، ثم نادى:

ـ احملوهم الى ساحة التنفيذ. . تعالوا.

والطلقة. . هل قتلت احداً؟ حياة من انتهت؟ الدم ينزف، بركة دم كبيرة، رعشات ثم ينتهي الأمر. . وهل احضروا كل الذين ذكر اسماءهم نوري؟ يجب ان اتذكر. . سمعت اسماء: زكي، حسين، ووليد. . ومن ايضاً؟ كان من الواجب ان اصغي، ان احفظ الاسماء، ان اتذكرهم: زكي بوجهه المجدور، والشارب الكثيف، هل كسروا نظاراته؟ ألا تزال يده تمتد اليها كل لحظة لتثبتها؟ ووليد انه لا يحتمل ، له كلية واحدة، كنا نسميه نصف رجل، هل صمد كل هذه الفترة وعذبهم أكثر مما عذبوه؟.

كان وليد لا يترك لأحد ان يتكلم. . كان يقول: «هذه القصة أعرفها، هذه النكتة اعرفها، اسمعوا». . كان يحارب ببسالة لكي يستمر دائماً في الحديث. . لو أنه تكلم لما ساقوه الى هنا. ربما قال لنفسه: تكلمت قبل السجن اكثر مما يجب، والآن يجب ان اصمت. لو تكلم لما جاء الآن، لما صدر عليه حكم الاعدام

ايعرف هادي كم نحن صامدون؟ سيقول له احد. . سيعرف.

اشيلوس. . انت سفينة الحرية، سفينة لها مائة باب، لا ترجعي، اقفزي دائماً الى الامام، ويل لك اذا امسكوا بك يوماً، اذا قبضوا عليك لا بد وأن يفعلوا بك شيئاً. كانوا يفعلون. . اذا صمت، اذا تكلمت، اذا نظرت، اذا لم تنظري. . كانوا يجدون سبباً لما يفعلون.

ولكن من يسالهم عن السبب؟.

ـ لماذا تنظر هكذا يا ابن الزانية؟ اتتحدى؟ اضربوه، علقوه.

ـ لماذا لا تنظر اليَّ عندما أسألك؟ أتتظاهر بالعفة والخجل يا. . .[1]؟ عدّل وجهه يا عبد، علِّمه كيف ينظر!

ـ احك يا ابن القحبة. يجب ان تحكي كل شيء.

ـ اخرس، سأدوس رأسك وأملأ حلقك. . .[2] أتفهم؟.

كانوا كباراً، عمالقة من خشب. وكنا ضامرين، نئن، نصمت، نريد لحظة لنغفو، كنا نتلهف لكلمة من العالم الآخر.

في الأيام الأولى كنت أسأل نفسي مئات المرات: والعالم الخارجي، ألا يزال موجوداً؟ والمقاهي أتستقبل البشر؟ ودور السينما الا تزال الحفلتان في المساء، الأولى في السادسة والثانية في التاسعة ؟ والشوارع والأضواء ورجل ينتظر امـرأة على محطة الباص؟.

تصورت العالم الخارجي في لحظات معينة يتوقف، ينتهي. حزنت أكثر، وكدت أموت لما علمت بموت أمي. . رأيت أنيسة، كانت هالات سوداء حول عينيها، رأيت الخطر أوضح من قضبان الحديد التي كانت تفصلنا. قلت لها مثل ذئب جريح:

ـ أين أمي يا أنيسة؟.

صمتت، ثم بكت. كان بكاؤها مثل صرخة مفاجئة في الظلمة. في ذاك المساء بكيت، ضربت رأسي بالجدار، وظننت أني لن اعيش، ولكن الأيام تدفقت بعد ذلك وواصلت الحياة.

الانسان أقوى من قطة. . يموت ولا يموت، عيب الانسان في جسده، اذا ضعف الجسد، اذا تهاوى، سقطت روح الانسان، تفتتت ارادته. ولكن كيف يستطيع الجسد ان يسقط؟ كانت عيوني تثقب أجسامهم، تجعلها تتلوى من الحقد. كنت أقوى منهم مئات المرات. . لم يبقوا معي شيئاً. . . اخذوا الحزام، قيطان الحذاء، رباط العنق. . كانوا يخافون ان انتحر! هكذا قال لي السجناء فيما بعد، لا. .

---

(١) شتيمة.

(٢) كلمة قبيحة.

لا لن تفرحوا. انتم الذين تقتلون، السجناء لا ينتحرون ، اكتبوا: انتحار هادي ابو الليل.. هادي لا يموت. كنا قريبين. لما رأونا على الشباك وهم يقودون هادي، هجموا علينا مثل ذئاب جائعة. ضربونا، انزلونا الى القبو، كنا ثمانية. كان القبو صغيراً.. صغيراً، لم نجلس ولم ننم، كنا نريد أن نسمع صوت هادي.. آخر الليل سمعنا ثلاث طلقات.. لم نكن نائمين عندما سمعنا الطلقات.. قلنا لخليل الذي يسمع دبيب النمل:

- اسمع يا خليل وقل لنا ماذا تسمع.

كان الليل كثيفاً مدهشاً: الصمت ورنين الأحذية. هذا ما كنا نسمعه، اما خليل ، فقد بكى.. رمى نفسه بيننا وبكى.. لم يستطع ان يقول كلمة واحدة. حزنا تلك الليلة حتى كدنا نجنّ، كانت الأضواء المشربة بالصمت تتكوم فوقنا، تتسلل من الشق القريب في السقف. في ذلك الوقت المليء بالخشوع والارتجاف، قال لنا خليل:

- قتلوا هادي...

- لا يمكن أن يقتلوا هادي...

- أقول لكم قتلوه!

- كيف عرفت؟.

- أقول لكم قتلوه... قتلوه!

وبكى من جديد!

لم نسأل خليل بعد ذلك، ولم يتكلم، لكن بعد ان انقضت ثلاثة أيام. ورأينا الوجوه معتكرة عصبية، وكان البرد أقسى من أن تتحمله اجسامنا التي عافت الطعام، قال لنا خليل ونحن نأكل:

- سمعت همساتهم، بعد الطلقات، كانت همسات خائفة مجللة بالرعب.. كانوا يتراكضون على رؤوس أصابعهم. قالوا وهم يتراكضون: احضروا كيساً كبيراً.. سنضعه في الكيس ونضع معه الحجارة ونلقيه في النهر.

- وماذا أيضاً يا خليل؟.

- خذوه الآن، ضعوه في المرحاض، لكي نسأل الآغا ماذا يجب أن نفعل!

- هل سمعت هذا يا خليل؟.

- وسمعت نوري يقول: احضروا ماء وامسحوا بقع الدماء!

- لا لم يقتلوا هادي، انت تتوهم!

- قتلوه .. قتلوه.. قتلوه...

وبكى خليل مثل طفل. وبكينا.

٤

انقضت ثلاثة شهور، تلقيت خلالها رسالتين وثلاث بطاقات بريدية. أرسل رجب البطاقة الأولى من اليونان، لأول مرة أقرأ كلمات رجب بعد سنين طويلة. قرأت رسالتين أو ثلاثاً كتبها حين كان في السجن. وبعد ذلك لم يكتب.

قرأت البطاقة وبكيت. تأكدت ان رجب اصبح بعيداً، بعيداً جداً. كانت البطاقة بعنوان حامد، لكن وجهها الينا كلنا: اعزائي: أثينا تغرق في الضباب الناعم. مطر هادىء في نهاية الليل، أما في الصباح فالضباب والنقاء. كل شيء مغسول، ويكاد يضحك.

أتمنى لو أقضي هنا فترة طويلة، لكن لم يبق للباخرة إلا ثلاث ساعات وترحل من جديد. صادفت عدداً من الناس يتكلمون اللغة العربية، يتكلمونها بلهجة مصرية لذيذة، لا اعتبر نفسي اني قد رأيت أثينا، لأن العشر ساعات لا تكفي.

تحياتي الحارة جداً. سأكتب قريباً.

ولم استطع أن أميز توقيعه. كان في زاوية البطاقة، غامضاً، حتى ان الشك راودني في ان لا يكون رجب هو الذي كتبها.

المرأة تفكر بالأشياء الحزينة. اذا لم تجد ما يكفيها من الحزن، بحثت عنه عند الآخرين!

كانت الأيام الأولى بعد السفر شقية.

استدعوا حامد الى التحقيق، واستبقوه منذ الصباح حتى منتصف الليل، وبعد ان تركوه فترة طويلة دون أسئلة ودون أكل انتبهوا لوجوده، وكأنهم فوجئوا

بالاكتشاف، كما قال، وسألوه نفس الأسئلة: من زار رجب؟ من اتصل به؟ الى اين ذهب؟ هل نام خارج البيت؟.

اجابهم بهدوء وصدق، لأنهم يعرفون الاجابات دون أن يسألوا احداً، وبعد أن انتهت المرحلة الأولى من الاسئلة، قالوا له:

ـ انت تعرف ان رجب ترك السياسة، ولم تعد له علاقات إلا معنا، لكن مع ذلك، يجب أن تتأكد ان كل شيء متوقف على سلوكه، لا يظن انه اصبح بعيداً، وان أيدينا لا تصل اليه.. لا، اذا فكر هكذا يخطىء كثيراً.. وانت، ستسأل عن كل شيء في المستقبل، انت كفلته، ألم تكفله؟.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، تركوه يعود الى البيت عند منتصف الليل، وطلبوا منه العودة يوم السبت.

حاول أن يظل طبيعياً في الأيام الأولى، لكني لاحظت ان اقل الأشياء بدأت تثيره وتدفعه الى الغضب، وبدأ بعد ذلك يتكلم بحزن عن كل شيء.. ولكن لم يكن أمامنا إلا أن نبقى!

استدعاء حامد لم يكن الشيء الوحيد، اصيبت ليلى بالحصبة، وأخطأ الطبيب في تشخيص مرضها، مما هدد حياتها لمدة ثلاثة أسابيع، اما عادل فقد ضبطوا معه في المدرسة سكيناً صغيرة، قال انه هدد بها أحد الأولاد، وكاد يتطور الأمر، لولا أن حامداً قدم لمدير المدرسة تعهداً بأن لا يتكرر الأمر، وقال له أن يطرده نهائياً لأتفه مخالفة يرتكبها!

المصائب اذا جاءت تجيء مرة واحدة، لم اكن أعرف كيف أتصرف. لكن مرض ليلى دفعني لأن أوجه لها كل اهتمامي، لقد اغرقت نفسي في عالم المرض، لكيْ أنسى الأشياء الأخرى.

كان ثاني ما تلقيناه من رجب رسالة وبطاقة بريدية، جاءتا معاً في نفس اليوم، قرأت البطاقة بسرعة، أما الرسالة، فقد قلت لحامد ان يتركها على الطاولة لكي أقرأها في وقت آخر. كنت أريد عالماً جديداً أغرق نفسي فيه، فقد مللت المرض والأحاديث الحزينة، وكنت واثقة ان رجب كتب شيئاً في رسالته قد يساعدني على النسيان!

في الليل المتأخر، وأنا أسهر الى جانب فراش ليلى، امتدت يدي الى الرسالة.

انتزعتها من الغلاف بيد مرتجفة، وافكاري تتيه وراء ذلك الطائر المهاجر. لقد نسيت ملامح رجب خلال فترة أسبوعين، أو هكذا بدا لي. وحاولت مرات كثيرة ان استجمع في ذاكرتي صورته. لكن تلك اللحظة اللعينة وأنا أراه يضرب رأسه بالحائط سيطرت عليّ لدرجة لم استطع تصوره بصورة أخرى، بكيت وأنا أقرأ الكلمات الأولى.

قال انه كتب الرسالة في الباخرة، وسوف يرسلها من ميلانو. تحدث عن المهاجرين والبحر، تحدث عن الباخرة الكبيرة التي تضم عدداً كبيراً من البشر من جنسيات مختلفة، وقال انه لا يشعر بالملل، لكن يحس كل شيء حوله غريباً وأنه لا يستطيع التلاؤم مع هذه الحياة الجديدة، ثم عاد واستدرك، فقال ان حياة الباخرة مؤقتة، ولا تمثل شيئاً من الحياة التي ينتظرها.

بكيت وأنا أقرأ اعتذاره الغامض عن الاخطاء والاساءات التي ارتكبها خلال الفترة الماضية. وذكر شجرة الحور والليلة الأخيرة. لم يتحدث عن ذلك إلا بكلمات قليلة غامضة، احسست وأنا أقرأها، انه يعني اموراً اخرى، ولا أدري لماذا تصورت انه يفكر بالسجن وموت امي. ان هذين الأمرين هما اللذان يخيمان على رأسه مثل أشباح، ولكنه لا يقولها، أو بالأحرى لا يستطيع... أو لا يريد! وقال أيضاً ان تخلي هدى عنه حين كان سجيناً جرحه، وأنه بعد ذلك لم يعد يثق بالنساء، لكن كيف حصل الأمر؟ حصل الأمر كأنه قدر، لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً ليمنعه.

كانت هدى تزورنا كثيراً خلال الفترة الاولى بعد السجن، كنا نتحدث عن رجب، كما لو انه سيأتي بعد ساعة، سيطرق الباب فجأة ويدخل. كانت في البداية تتحدث عنه دون أن تذكر اسمه، وقد احمر وجهها مرات عديدة وأنا أنظر في عينيها وأسألها ان كانت تحبه لهذه الدرجة، لكن في وقت لاحق، بعد أن أصبح رجب البعيد ملحنا اليومي، بدأت تتحدث عنه مباشرة، ولا تتردد في أن تذكر ان عينيه جميلتان رغم الحزن.

هكذا كانت الأمور في البداية: الرسائل، العناية بالملابس، والتذكر المبهج.

في وقت آخر بدت هدى حزينة. رفضت ان تتكلم لما سألتها أول مرة، ورفضت في المرة الثانية. لكن لما الححت عليها بكت. وضعت رأسها على كتفي واخذت تبكي. احسست ان في حياتها رجلاً جديداً. لم تقل لي، لكن المرأة تفهم المرأة الأخرى دون ان تسألها. ابعدتها عن كتفي وقلت لها:

ـ هل أساء اليك احد يا هدى بسبب رجب؟.

وظلت صامتة وبقايا دموع في عينيها، حتى رأتني أبكي ، ولا أعرف لماذا بكيت فقد تجمعت الاحزان في قلبي فجأة وبكيت.

ولم تستطع ان تقاوم، انفجرت في نوبة من البكاء، وحتى تلك اللحظة لم أكن اظن ان هدى تمتلك هذا المقدار من اللوعة والاحزان! ظللنا نبكي.. لا أدري كم من الوقت، انقضى، لكن وجدتها اخيراً تتكلم الى نفسها أول الأمر، ثم تحدثني.

انتهت تلك الايام، تبدو لي الآن بعيدة وكأنها لم تقع أبداً، لكن بعض الكلمات التي قالتها تمر في ذاكرتي مثل أطياف.

أتذكر انها قالت: سأقتل نفسي يا أنيسة، لا أطيق أن يلمسني احد، واذا أرغموني على أن أتزوج غير رجب، فلن يفرح بي رجل، سأقتل نفسي.

لا أعرف أية كلمات شيطانية انزلقت على لساني، عندما حاولت أن اخفف عنها، والآن اصبحت متأكدة، ان أسوأ شيء ان تسأل المرأة امرأة مثلها عن الذي تحب. هل كان عقلي هو الذي تكلم مع هدى؟ قلبي؟ هل كنت اخاف منها وأحاول ان ادفعها بعيداً عنه؟ ان شيئاً في داخلي كان يتلوى من الفرح والألم، لم أستطع ادراكه تماماً، وحتى هذه اللحظة لا أعرف أية عواطف اختلطت، حتى دفعتني لأن أقول لها تلك الكلمات.

وهدى.. هل كانت تنتظر كلماتي لكي تتصرف؟.

كانت تنتظر تبريراً، جسراً من الكلمات، لتعبر الى الضفة الأخرى.

بعد ان لمتها كثيراً على الكلمات العمياء التي تدفعها لأن تتفوه بمثل هذه الكلمات، قلت لها:

ـ رجب بعيد لدرجة ان الأمنية الوحيدة هي أن أراه حياً في يوم من الأيام.

وقلت لها بلهجة امتحن فيها مدى تعلقها برجب، ومدى استعدادها لأن تفعل شيئاً:

ـ ماذا لو قلت لأهلك يا هدى؟ أتتصورين انهم سيمانعون؟.

رأيت أطياف الخوف والدهشة في عينيها، اذ بمجرد ان مرت الفكرة في رأسها

تروعت، أما أن تواجه أباً وأربعة أخوة، وتقول لهم انها تحب رجلاً سجيناً وتريده زوجاً، فقد بدا لي الموت أهون عليها من ذلك بكثير!

اصبحت هدى بعد ذلك حزينة، زيارتها قصيرة، كلماتها عصبية، وتنتقل في البيت تائهة تبحث عن نفسها، حتى جاءت الفترة التي قررت فيها ان تبدأ رحلة جديدة.

قالت لي وهي تجرني الى الحديقة وتبكي:

- لم أستطع أن أفعل شيئاً يا انيسة، قال أبي لأبيه في الليلة الفائتة انه موافق.

انتظرتْ ان اقول لها كلمة، لكن لم أقل. صمت، وفي قلبي ذلك الرنين الملتهب من الفرح المتألم. قلت، اخاطب نفسي، وقد شعرت بثقة الأنبياء: النساء في بعض اللحظات يقلن كلمات كبيرة، لكن ما يقلنه مجرد كلمات، انا الوحيدة، بعد امي، التي تنتظر رجب، ويمكن أن اموت من اجله!

لما رأتني صامتة، وأفكاري تحفر الأرض، قالت بحزن:

- ماذا أفعل؟

- وأخوتك هل وافقوا؟.

- كانوا موجودين، ولكن أبي هو كل شيء وهو الذي تكلم!

- ولكنهم أخوتك، ألا يقولون شيئاً؟ أليس لهم رأي؟.

ومن جديد صمتت.

عندما جاء حامد، كان عمي هو الذي تكلم، لكن عمي لم يقل كلمة إلا بعد أن قال رجب الكلمة التي تشبه حد الموسى. كانت امي بصخب الاطفال توحي لرجب ان يقول كلمات معينة، ان يتحدث عن المهر وعن الشروط.. لكنه لم يسمع كلماتها. كنت في الغرفة المجاورة وسمعت ما قاله رجب؛

- ليس عندنا غير انيسة، ولا نريدها ان تتحول الى بضاعة ونساوم عليها. حامد رجل جيد وملائم لأنيسة، وما دام الأمر بهذا الشكل، فلتذهب اليه بثوبها، لا نريد شيئاً آخر!

قلت لهدى والرغبة في ان ادفعها لتسقط، تضغط على صدري:

ـ الآن . . في هذه الأيام، يجب ان يكون للمرأة رأي .

ـ ولكن ماذا افعل يا أنيسة؟ .

ـ الا تحبين رجب؟ ألم تقولي له انك ستنتظرينه؟ .

ـ ترين بعينيك ماذا حصل .

هززت كتفي وقلت بتحدٍ:

ـ لم أر شيئاً!

تناوبنا البكاء هذه المرة. وجدت نفسي أبكي، لا أعرف اية مشاعر طغت على تلك اللحظة. احسست ان رجب اهين، وأنه لا يستحق هذه الأهانة. كنت قبل ذلك أتحدى هدى، اسخر منها، ادفعها لأن تقطع آخر الخيوط، وعذبني ذلك السؤال الذي انطرح امامي مثل جثة: ومن أين لي الحق في دفعها لمثل هذا الاختيار الصعب؟ لتتزوج ، لكن لتبق المودة بينها وبين رجب. الزواج غير الحب، وأنا أريد أن أدمر هدى لكي تتوقف عن حبه!

انقضت أيام لم أر خلالها هدى، شعرت بالراحة والحقد يتناوبان عليّ تناوب حرارة الحمى وبرودتها. كنت في لحظات معينة أقول لنفسي: هدى ورجب عالمان إلتقيا بالصدفة، وسوف يفترقان، ليس بينهما لحظات التوحد، ولا يمكن لأحدهما أن يؤثر على الآخر، كان يحب العالم الصامت، اذا صح لي ان استعمل مثل هذا التعبير، وكان يحب الكتاب والتأمل، وحتى في لحظات كثيرة الحلم والخيال. أما هدى، فقد كانت تتحدث كثيراً عن الاسفار، وتحلم ببناء بيت له حديقة كبيرة، وانها ستتفرغ لرجب، كما كانت تقول!

• هذا ما كنت أصل اليه اغلب الاحيان، فأشعر نتيجة لذلك ان افتراقهما كان ضرورياً، وأنه الحل المناسب للاثنين معاً. كنت في لحظات اخرى، اجد نفسي ابكي وأنا أفكر برجب، فقد خسر امي وهو في السجن، عندما يخرج لن يجدها، سيتذكر المكان الذي تعودت ان تجلس فيه، الأشياء التي كانت تحبها، ورغم اني اقسمت مرات كثيرة ان لا أشعره لحظة واحدة بفقدها، فلا أعرف ان كنت قادرة على الوفاء.

وهدى تذهب الآن.

كان يتحول الى طفل كبير أثناء وجود هدى، يضحك بصخب، يساعدني في تحضير الأكل، يخيفنا ان خرجنا الى الظلمة. . . ولم تكن تلك الامسيات البعيدة تخلو من مفاجآت!

اتذكر انه خبأ حذاء هدى ذات مرة، خبأه وخرج، حتى اذا حل الظلام بدأت هدى ترتجف خوفاً من أن تتأخر، عرضت عليها أن تأخذ حذائي، رفضت بأصرار، قالت: ستظن أمي الظنون. . وكادت تبكي من الخوف والغضب، حتى اذا تعبنا من البحث، ارسل ولداً صغيراً يحمل رسالة كتب فيها:

«استعدي للمستقبل. ستضطرين للانتظار فترات أطول، واعلمي ان اكثر الأماكن سريةهي الأماكن المكشوفة. . الحذاء على الشجرة مقابل الباب تماماً».

كانت الضحكة تختلط بالدموع الصغيرة عندما التقطت هدى الحذاء، واستغربنا اننا مررنا بالقرب من الشجرة عدة مرات، ونحن نبحث، وارغمتني هدى على الذهاب معها لكي تؤكد لأمها انها كانت عندنا!

رحلت هدى الآن. . اصبح لها ولدان وعالم جديد، ورجب يعتبر انها انتهت، ماتت الى الابد. الاحلام التي كان يغزلها يوماً بعد آخر، لحظة بعد أخرى، تنتهي دفعة واحدة!

لا أعرف ان كانت سخرية أم شيئاً آخر، كلمات هدى وهي تدعوني الى حفلة الزفاف، فبعد انقطاع دام اكثر من شهرين، جاءت. كانت تحاول ان ترسم على وجهها ظلاً حزيناً، لكن هذا الظل اختفى خلال الدقائق الأولى. بدأت تتحدث عن الأشياء التي اشترتها، والحياة التي تنتظرها، ولم تنس أن تتحدث عن خطيبها. قالت: عيونه كبيرة، طويل، ورغم انه صغير في السن، إلا أن شيباً جليلاً يملأ فوديه. قالت هذا وهي تضحك بلذة.

هل نسيت رجب تماماً؟ أكاد لا أصدق، اذ لا يمكن ان تستبدل حياة سنوات بتعبها وخوفها واحلامها، بلذة موهومة.

وجهي اكتسب وجوماً وكآبة لاحظتها هدى عندما كانت تتحدث. حاولت ان تتراجع احتراماً لذكرى رجب، او شفقة على عجزه وهو يتطلع الى السقف في سجنه الاسود.

قلت لها وأنا أضرب الطاولة الصغيرة، وأجرحها بكل كلمة:

ـ مبروك عريس الهنا يا هدى. . لكن اسمحي لي ان اقول بعض الكلمات، قد لا تعرفين ان لي اخاً سجيناً، أخاً اسمه رجب. . وما دام يتلوى من الألم والعذاب، لا أسمح لنفسي أن أرقص على اشلائه!

وصمت تاركة لنفسي ان تستمتع بلذة التشفي، حتى اذا رأيت وجهها يفيض بالحقد والعذاب معاً، قلت بهدوء:

ـ لن أحضر زفافك يا عزيزتي!

التقينا بعد ذلك، كانت لقاءات شديدة الألم ويخالطها الحسد، من جانبي على الأقل. كانت هكذا في البداية، ولكن والايام تمر فتغير الناس والأشياء، تغيرت هدى، اصبحت غير التي كانت من قبل. وبدأت أحارب طيفها وأبعده بعبارات قاسية لكي لا يعاودني من جديد، وصممت اكثر من قبل، كي لا أترك البرودة تتسلل الى رجب، عندما يخرج من السجن، ولا يجدها تنتظره.

الآن يقول اشياء خطرة، كان يريد ان يتحدث عنها بعد خروجه من السجن، لكن خفت عليه، ابعدت الطيف اكثر من السابق، ورأيت كآبة خرساء ترتسم على وجهه، عندما احدثه عن أمور بعيدة!

الآن وهو بعيد آلاف الأميال يستطيع، يتجرأ، أن يقول ما لم يستطعه حين كان ينظر اليَّ. لا يعرف هدى التي تعيش الآن، يعرف واحدة اخرى بهذا الاسم كانت جميلة، وكانت لها عيون خضر، وابتسامة شديدة الروعة، وكانت تحبه. . .

. . . يتذكر هذه، وهذه ماتت منذ سنين، لكنه لا يريد أن يعترف.

ينتابني الخوف في بعض اللحظات، بل واحس الأرض تحت اقدامي تهتز. ان حالة مثل هذه يمكن أن تغير العالم، ولا تبقي شيئاً مثلما هو الآن!

لو قرأتْ رسالته قد يعتريها الشحوب، يأكلها الندم، وقد تفعل شيئاً لا يمكن أن تفعله إلا المرأة التي تحب. وما يدريني اذا كانت مستعدة لأن تترك زوجها والطفلين وترحل وراء ذلك التائه!

ورجب اعرفه اكثر مما اعرف هدى، اذ بمقدار ما يبدو عصبياً نزقاً، ويتصرف تصرفات شديدة البتر، مهما ترتب عليها من نتائج، فإنه هو نفسه الوديع الذي ينسى كل شيء في لحظة ويعود طفلاً.

لن أترك الأمور تسير بهذا الاتجاه. ليبق كل واحد منهما في مكانه، والأيام وحدها هي التي تمزق الحنين واللوعة، وتخلق مكانهما حجارة يابسة صماء.

لن اكتب له عنها أبداً، سأغرقه في عالم آخر: شوق الأطفال والطبيعة، شوقي وحامد اليه، وسأذكره بأصدقائه والافكار التي كانت تشغله قبل أن يدخل السجن. أما عن هدى فلن أحدثه أبداً!

* * *

صمت رجب، لم يكتب كلمة واحدة طوال شهر. بدأ القلق يتحول الى هواجس تحاصرني في كل وقت، ويبدو اني اصبحت مزعجة لجميع من حولي. الأولاد ينظرون اليَّ بتساؤل حزين، وحامد انتقل من السؤال الى الرجاء. ورغم كل شيء لم اكن أعرف كيف اتصرف. كانت فكرة واحدة تسيطر عليّ: ان ارى رجب، ان أسمع صوته. قلت لحامد وأنا أمسح دموعاً خنقتني ذات ليلة بعد حلم رأيت فيه امي تضحك وتضحك، كأنها بلهاء، وأمامها رجب تشير اليه ان يأتي.

قلت لحامد بعد ان ايقظته من النوم:

- يجب ان نفعل شيئاً، رجب بحاجة الينا ولا يمكن ان نتركه يموت هناك وحيداً!

قال لي وهو يستدير لينام من جديد:

- نامي الآن.

ولما رآني الح عليه، استند بكوعيه على الوسادة وسأل بعذاب:

- ماذا نستطيع ان نفعل؟.

قلت والدموع تسبقني:

- افعل اي شيء، رجب يموت الآن!

- لماذا هذه الأفكار السوداء؟ ألأنه لم يكتب؟.

- لا .. لأنه يموت، أنا متأكدة انه يواجه الآن مصاعب تبدو معها أيام السجن وكأنها لا شيء.

قال لي وهو يعتدل وراحة يده تمر على رأسي وتشد شعري بنعومة:

ـ كفى يا أنيسة، غداً ستأتي منه رسالة وتتأكدين بنفسك.

ـ ولكن منذ شهر لم يكتب!

ـ ربما شغله عنا شيء.

ـ اي شيء يمكن ان يمنعه من الكتابة؟.

ـ لا أعرف.. ولكن يجب أن ننتظر ونرى.

قلت له بيأس:

ـ حامد.. ماذا لو تتصل بوزارة الخارجية، وتطلب اليهم أن يبلغونا شيئاً عنه.

ـ نامي الآن، وفي الصباح سنرى!

حصل هذا بعد انقطاع شهر من الرسائل، كنت أفكر طوال الليل والنهار، وأبذل جهوداً كبيرة لكي أبدو طبيعية ومتماسكة، ورغم اني اخفيت مشاعري، ولمت نفسي على لحظات الضعف التي كانت تدفعني للبكاء، فلم أستطع أن احتمل.

قلت لحامد في ذاك الصباح الباكر، وأنا ألبس ثيابي واستعد للخروج.

ـ سأذهب بنفسي الى وزارة الخارجية لأسألهم.

قال بعصبية يائسة، وكأنه لم يحتمل تصرفاتي والحاحي:

ـ سننتظر بضعة أيام، فاذا لم تأت منه رسالة، ذهبت بنفسي.

• بعد ثلاثة أيام جاءت رسالته:

لا أحد يصدق ان كلمات، مجرد كلمات، يمكن أن تغير الانسان الى هذه الدرجة. ترك حامد العمل اثناء النهار، وعاد اليّ بالرسالة. ما كدت أراه يلوح بها من الباب حتى اصابتني قشعريرة لذيذة أقرب الى النشوة. كنت أريد أن أتأكد من وجوده، ولا يهمني بعد ذلك أي شيء. هيأت لنفسي ان اقبل مرضه، تعاسته، ضجره، يكفي فقط ان يكون حياً الآن، وأي شيء اثناء الحياة يمكن أن يداوى، الموت الشيء الوحيد الذي لا دواء له، وما دمت أرى رسالته فما زال حياً إذن!

كان فرح حامد بالرسالة يفوق فرحي. رأيته يتابع يدي المرتجفتين وعيني اللتين امتلأتا بالدموع، ظل صامتاً ليرى، وقع الكلمات.. رفعت اليه وجهي اكثر من مرة، لأرد على ابتسامته الصغيرة المشفقة، سحب مني الرسالة قبل أن أكملها، وهو يقول:

ـ أبلغوني ان اراجعهم غداً.. لا أعرف ماذا يريدون وماذا افعل؟.

كان يجب ان يسحب الرسالة، لأني لم استطع القراءة اكثر.. ولم اعد بحالة استطيع معها فهم معنى الكلمات أو أن أتشرب لذتها، نظرت اليه بيأس وأنا أقول:

ـ لا يتركون الانسان يفرح دقيقة واحدة!

قال بطريقة لم أتعودها منه:

ـ لم نعد نسأل عن الفرح.. كل ما نتمناه ان يتركونا بسلام!

ـ وما تظن انهم يريدون الآن؟.

ـ في احسن الحالات تهديد واهانات، طبيعي ليس لديهم غير الأشياء السيئة.

ـ وماذا ستفعل؟.

ـ سأذهب، وسنرى.

ارتمى على المقعد وكأنه لم يعد قادراً السيطرة على جسده، كان متعباً وأقرب الى الذهول، قلت أشجعه:

ـ لا داعي للتشاؤم قبل أن نعرف ماذا يريدون!

ـ هل تتصورين انهم أصدقاء يريدون أن يسألوا عن صحتي وأحوالي؟.

صمت، لم أكن أدري اية كلمات يمكن أن تساعده. كنت أفكر بالأيام التي عشناها والتي نعيشها، برجب السجين، برجب المسافر، بالرسالة والمستقبل، مرت في ذهني سيول الصور، وكأنها أشباح تتراقص. قال حامد يخاطب نفسه، ولا يهمه ان سمعت أو لم أسمع:

ـ هل يمكن للانسان ان يعيش بهدوء في هذا البلد اللعين؟ لا أحد ينجو، الذي يعمل في السياسة والذي لا يعمل، الذي يحب هذا النظام والذي لا يحبه.. بلد مجنون ويجب أن يدمر!

وصمتنا كلانا. طوى الرسالة، ووضعها على الطاولة الصغيرة، وأشار الى ختم المراقبة وهو يبتسم. نظرت دون اجيب. انهم لا يقرأون الرسائل فقط، انهم يقرأونها بتحدٍ، يقولون بصوت حاد: لقد قرأناها، نحن نقرأ كل شيء!

اصبحت الحياة عارية لدرجة ان الانسان بدأ يخاف من نفسه، يظنهم موجودين دائمًا، حين ينام، ويحلم، حين يسير بالشارع بل وحين يموت.

أتذكر حامد وهو ينتفض غضباً ذاك المساء، بعد ان ماتت امي بيومين. اقترب منه رجل لم يره من قبل، ظنه يعزيه بوفاة أمي اول الأمر، ولكن وجده يسأله: من ذاك الذي يجلس في الزاوية؟ ومن ذاك الذي كان يجلس هنا قريباً من الشباك؟

أجابه حامد عن اسئلته، لكن ما كاد يسأله مرة ثانية وثالثة، حتى انتفض حامد من الغضب، وكادت تتطور الأمور، ولولا ان الرجال الموجودين سحبوا المخبر، وقالوا له لا يليق أن يسأل حامد بالذات، والأفضل سؤال أي انسان غيره. وأشاروا عليه بمرارة وسخرية ان يرتكز الى عمود النور في زاوية الشارع، ويطلب هوية كل قادم جديد!

سألت حامد وهذه الصورة تمر في رأسي:

- ماذا نستطيع ان نفعل؟.

- لا أعرف.. حائر تماماً.

قلت بصوت بدا لحامد حزيناً:

- الحياة هنا لم تعد تطاق، ولكن اين نذهب!

قال بغضب، كأنه يقاوم لحظات الضعف التي يحسها تنبع من داخله:

- ليفعلوا كل ما يستطيعون ، سنبقى هنا، نحن كباقي الناس، وما يصيب الناس يصيبنا، هذا كل شيء!

لما خرج بدت لي خطواته صارمة متحدية، ولكنها بدت ثقيلة ايضاً. ان الهم، الافكار السوداء، الانتظار، تتعب الناس اكثر مما تتعبهم مواجهة المصاعب. وهؤلاء الأبالسة يريدون ان يقتلوا الناس قبل أن يقبضوا عليهم.. «تعال بعد عشرة أيام»، «تعال في بداية الشهر»، «تعال دون أن تقول لأحد، اذا قلت لأحد فسوف ترى!».

كان رجب في السجن مستقراً، أو هكذا كان يبدو لي. لم ألحظ في وجهه علامات القلق والتساؤل. لم أره قلقاً ونادماً مثلما أرى حامد الآن، لقد واجه الحقيقة دفعة واحدة. وانزرع في السجن مثل الزاوية، ولم يعد ينتظر شيئاً اسوأ. حامد الآن لا يعرف ماذا ينتظره.. مجرد أسئلة؟ سجن؟ سيبقى حتى نهار الغد، التاسعة من نهار الغد، يفترض اسئلة واحتمالات ويجيب عنها ،الى ان يسمع بأذنه الكلمات اللعينة التي تنطقها أفواههم المرتخية، وربما دون اهتمام!

كنت أفكر مع حامد، وكنت أنتظر خروجه بلهفة لكي أعود لرسالة رجب. كنت قلقة وفرحة في نفس الوقت، مثل طفلة تريد لعبة وتخاف ان تفقدها، تريدها وتريد غيرها. لمحت فقرات في الرسالة، ولكن لم يترك لي حامد أن اتملاها، أو أن أفهمها.. الآن يمكن قراءة كل كلمة، سأقرأها مرة، ومرتين، حتى تترسخ في ذاكرتي كأنها مكتوبة منذ الأزل.

قرأت كلمة «مراقبة» على غلاف الرسالة مرة اخرى، بدت لي الكلمة متوحشة، من اعطى لهؤلاء الناس ان يقرأوا اعز الكلمات واكثرها قداسة؟ ما يهمهم ان يقول رجل لأمرأة: احبك؟ ما يهمهم ان يقول الانسان احب وأكره؟ ورسالة رجب السابقة هل قرأوها؟ وهل عرفوا هدى؟ ماذا لو استدعوا هدى؟ لو سألوها؟ كان من الواجب ألا يكتب عنها، ألا يذكرها. وهل يسألون حامد عنها غداً؟ وحامد ماذا سيقول؟ يجب أن اجد طريقة لأخلص حامد، لأن أدفع عنه الحرج وهم يسألونه.. سأقول له ان هدى التي يقصدها رجب هي ابنة عمتي، وتسكن في الريف. ولكن هؤلاء الأبالسة يعرفون كل شيء، وقد تحتوي سجلاتهم اسماء اقربائنا، أسماء أولادهم وأصهارهم.. وربما اسماء الكلاب وباقي الحيوانات، ان كانت للكلاب والحيوانات أسماء!

ورجب.. ألم ينتبه بالنسبة لهم؟ نشروا اسمه في الجرائد كلها، والذين لم يقرأوا الجرائد تكلفت عناصرهم ان تنقل الخبر اليهم.. ظلوا يلوكون اسمه حتى تمزق... ولم تبق امرأة في الحي إلا وسألتني.. نساء الحي كن يعرفن، ولكن كان يروق لكل واحدة ان تسأل، أن تسمع بأذنيها وتتلذذ.

ولم يتركوا رجب. انهم يلاحقونه الآن، يقرأون رسائله، وغدا اذا عاد سيسألونه.. من تكون هدى؟ أليس هذا اسماً مستعاراً؟ ألا يكون رمزاً لشيء ما؟.

آه لو أن رسالة رجب لم تأت، بعد الانتظار الموجع، تأتي كلماته لتزيد

عذابي. تحدث في رسالته عن الجو الموحش الذي يعيش فيه، البرد، الضجر، الامطار الغزيرة، الثلوج، والناس بوجوههم المغلقة وسرعتهم!

بعد فترة طويلة من الحديث عن الجو الأسيان المعذب، يقول انه لم يتسن له حتى الآن الدخول الى المستشفى. عليه ان ينتظر ثلاثة أسابيع اخرى. وببعض الغموض، يقررون فيما اذا كان من الضروري دخوله أم يكتفون بالعلاج الخارجي! اطلعوا على التحاليل، ووصفوا له دواء بصورة مؤقتة، لكن ذكروا ان عليه اجراء سلسلة من الفحوص الجديدة، وان ذلك لن يتم إلا في بداية الاسبوع الثالث. يقول كان من الواجب ان أتصل بادارة المستشفى قبل سفري، وأن أرسل التقارير الطبية، وبعد دراستها يقررون الشيء المناسب، هل عليَّ أن أسافر، وفي أي تاريخ. اخطأت أني لم افعل ذلك، تصورت الأمور هنا وفي بلادنا متشابهة.. هنا كل شيء بنظام، بمواعيد سابقة، ويبدو أنهم لا يكتفون بالفحوص الاولية، قالوا اني احتاج الى ثلاثة عشر فحصاً.. لا أعرف اية كميات من الدماء ستمتلىء بها الأنابيب، وأية أوقات ومشاكل سأواجه.

الداء ينهشه الآن، ينغل في دمه، وحيد هو الآن ووجوه البشر تعرض عنه، لا تراه . كيف يأكل؟ كيف يقضي أوقاته؟ هل يتحدث مع احد، ليتني كنت معه، كان من الواجب ان يسافر معه احد. كيف تركناه يذهب وحيداً؟ لو كان سليماً قوياً لما ندمت لحظة واحدة. كان في السجن مع بشر يعرفهم، يتحدث، يضحك، ينام دون خوف.. أما هناك فإنه وحيد لدرجة لا تصدق. لو لم يكن متألماً لما كتب عن ذلك، اعرف مدى احتماله وصمته، كان اذا مرض، حتى حين كان صغيراً يجبر على نفسه، لا يظهر المه، لا يتشكى. كانت تستيقظ امي وتراه يكابد الالم دون صوت. رأته مرة والعرق يغسله، فصرخت حتى ايقظت الجيران. وكان يعاند ويقول ان ألماً بسيطاً في إمعائه، وسيزول!

آه لو كنت معك يا رجب.

توقفت طويلاً وأنا أتصوره في فندق كئيب ينظر الى السقف طوال ساعات النهار وجزءاً من ساعات الليل، حتى تنتهي الأسابيع الثلاثة ويستقبلونه في المستشفى! ماذا لو ان حالته لا تحتمل؟ هل يموت قبل أن تنتهي هذه الأسابيع الثلاثة؟ أكاد لا أصدق!

لو ان الرسالة انتهت عند هذا الحد لقلت لدموعي ان تكف، ولكن الفقرة الاخيرة كانت بائسة وموحشة حتى تصورت نفسي اني اجرمت كثيراً بحق رجب...

كان من الواجب ان احارب رجب على جبهتين اثنتين: جبهة هدى وجبهة أمي. كنت أتصور رجب يفهم الموت بشكل واقعي، يفهم ان مرض أمي لا شفاء منه، وكان من المتوقع ان تموت، وهي بعد ذلك امرأة بدأت تتقدم في العمر. ومثل كل المسنين الذين يعانون من مرض القلب سيأتي يوم تموت فيه. ورغم الحزن والشعور بالغصة، فإن أي أنسان يفهم هذه الحالة بشكل واقعي، ويتصرف بعقل بعد ان تزول لحظة الكآبة.

هكذا كنت أفترض وأنا أقود رجب الى المقبرة. قلت في نفسي يجب ان يزور قبرها، ليتأكد ان الانسان مهما طال به العمر سينتهي ذات يوم، ولذلك حاربت على جبهة هدى وحدها. كنت أريده أن ينساها بسرعة، ولا يفكر فيها ابداً، لكن رجب يفاجئني الآن، يذهلني، أكاد لا أصدق هذه الكلمات الحزينة، خاصة وأنه يكتبها من هناك!

ظننت في الليلة الاخيرة ان بكاءه كان تطهيراً اخيراً لروحه، لأن أي انسان يموت، لا ينتهي بنظر الذين يحبونه إلا اذا غسلوه بالدموع، الدموع هي ذرات التراب الاخيرة التي تجلل الميت وتقول انه انتهى.

تركته في الليلة الاخيرة يبكي لكي يلقي عن كتفيه العبء الذي حمله سنوات، وتصورت ان بكاءه ذرات للتراب التي ينثرها على قبر أمي، لكنه الآن يفاجئني. يقول « قبر امي يا انيسة. . لماذا تركتموه شقياً منبوذاً هكذا؟ الا تعني شيئاً بالنسبة لك؟ يجب أن تعرفي تماماً انها تعني لي شيئاً كثيراً، كثيراً ومتزايداً، ففي كل يوم جديد أراها تشمخ وتكبر، حتى أني لا أبالغ اذا قلت لك اني أراها اكثر حياة الآن من أي وقت سابق.

«انت لا تعرفين اني كنت أزور قبرها كل يوم. لم أقل لأحد، وحتى وأنا اكتب اليك الآن، أبدو متردداً حزيناً، وقد يدفعني التردد والحزن الى تمزيق هذه الرسالة »

«كل ما أريده منك يا أنيسة ان تبني قبر امي. لن يكلف كثيراً، واذا لم تفعلي، وفي وقت قريب، فسوف يقتلني الحزن. كنت أريد ان اكفر وأنا ابكي فوق قبرها. كنت أعفر وجهي بالتراب وأصرخ، لعلها تسمعني وتغفر لي. . والآن، ومن مكاني البعيد، لا أنام قبل أن اوجه لها رسالة، رسائلي اليها صغيرة، بسيطة، ولا تتعدى طلب الغفران. اتمنى لو كنت قريباً الآن وازور قبرها. . اعملي من اجلي شيئاً يا أنيسة ، ولا تحكمي العقل في هذا الأمر أبدا ، انه أمر يخص القلب ، ويجب ان لا تفسره لغة العقل » .

«ملاحظة: رجاء، في حال اتمام بناء القبر، اتركوا الشواهد خالية دون اية كتابة، أريد أن انظم بضعة أبيات من الشعر، وأفكر بأشياء اخرى!».

سيقتل رجب نفسه. حمل معه قبر أمي ورحل. لماذا كنت ساهية عنه طوال الفترة الماضية؟ كان اذن يخرج كل يوم ليزور قبرها! زارها عشر مرات، وأنا لا أدري! كم كنت غبية. كنت عمياء وغبية، وإلا لماذا لم أفطن له! لا أصدق، لا أتصور انه فعل ذلك، ربما الغربة والوحدة أوحتا له بهذه الافكار الحزينة، ولكن كلماته لا تحتمل الشك، انها بسيطة صادقة، وكأنه لا يخاف أبداً ان يقرأها غيري، بل ويشتهي ان يقرأها الآخرون كنوع من التكفير، يريد ان يبدو عارياً، لم يعد يهمه أي شيء يقال! اية حياة جامحة الروعة والشقاء عشناها معاً؟.

كنا صغاراً لما مات أبي، لا. . رجب وحده الذي كان صغيراً. أسعد كان رجلاً كبيراً، ولم يبق معنا إلا سنة بعد وفاة أبي، ثم ذهب، ظل أسعد في نفس المدينة، ولكن قال لأمي ذات يوم، وهو يحمل أشياء ويرحل:

ـ ما دمت في هذا البيت فلن أفتح بيتاً ولن أتزوج. كل ما احصل عليه تأكلونه، تسرقونه ولا يبقى منه شيء!

تذكر امي هذه القصة، وتضيف: لو انه اكتفى بذلك لما قلت شيئاً، ولما حزنت، لكنه قال كلمة مشؤومة، وهذه الكلمة حفظتها جيداً، ولن انساها حتى اموت. قال الخنزير: لو كنت أصب نقودي في بالوعة لامتلأت!

بدأت أمي تخيط الثياب، كانت تخيط الثياب ونحن نام، بعد ان تنتهي من اعمال البيت الشاقة، كـانت تقوم بأعمال لا يقوم بها الرجال. كانت تبني سور البيت اذا انهدم، تكسر الحطب، تنقله الى الداخل، كانت تزرع بعض الخضروات وتعتني بالدجاج، فاذا انتهت التفتت الى ثيابنا، تقلب البالي، تجدده، ترقع بعناية اله كل خرم، ترفو، حتى اذا اطمأنت الى ثيابنا ونظافتنا وأكلنا، ولم تعد لنا أية طلبات، تحولت الى ثياب الجيران، تسهر الليل لكي تنتهي منها بسرعة وتحصل على غيرها. . لم تكن تشكو، ولم نسمع منها كلمة شتيمة، حتى جاء يوم قالت لي بنغمة رقيقة، حاولت كثيراً ان تدخلها الى قلبي مباشرة:

ـ تعلمت بما فيه الكفاية يا انيسة، ما رأيك لو ساعدتني في الخياطة، حتى يأتي ابن الحلال؟.

ظللت صامتة، لا أعرف كيف اجيبها، كانت تستطيع ان تقرر وحدها، ولم تكن بحاجة لكلماتي، قالت تتابع كلماتها الحزينة، لكي لا تتركني مترددة:

ـ يجب ان نعمل، أنا وأنت، من أجل أن يتعلم اخوك، اذا لم تساعديني، فسوف نضيع كلنا.

كنت موافقة، كنت راضية، لكن صمتي ، الذي خلفته حيرتي دفعها لأن تقول بعض الكلمات:

ـ ما كنت لأطلب منك، لو ان عينيّ تساعداني.

وبكت وهي تضيف بصوت مرتجف:

ـ لم اعد أرى يا انيسة، عميت، لا أعرف كيف ادخل الخيط في الابرة... اذا ظللت وحدي فسوف نموت من الجوع.

وقضينا خمس عشرة سنة لم نفترق خلالها. كانت تساعدني في كل شيء، تقوم عني بكل الأعمال التي تستطيعها، ورغم أنه تخلل الخمس عشرة سنة مشاحنات كثيرة بيننا، إلا أنها لم تدم اكثر من ساعات. لا أتذكر اني نمت ليلة دون ان احس برضاها يغمر البيت كله.

وخلال هذه الفترة، كان رجب سلوتنا الوحيدة. كنا نذوب من اجل ان يكبر بسرعة، ويصبح رجل البيت. وحتى لما كان صغيراً كانت أمي توحي لي كل يوم، ان في بيتنا رجلاً أكبر من كل الرجال. ننظر اليه بلذة وهو يصنع طائرات الورق، ونستجيب عندما يلح على امي بأن تصنع له كرة من الخرق، كان يريدها كبيرة مشدودة ومستديرة تماماً، ومن أجل ان تكون كذلك، تظل امي تشدها بين يديها بصعوبة، وأجاهد لكي أسيطر عليها بالأبرة ، وبعد أن تنتهي، يرميها بغضب: «انظري.. ليست مستديرة تماماً، انها مستطيلة، انها رخوة». ونعيد خياطتها من جديد حتى يرضى!

كنا نرقبه كل يوم. لم أكن أراه يكبر ابداً، وفي لحظات كثيرة أضيق بتصرفاته وأغضب، وامي اذا جرى الحديث عنه، وكثيراً ما كان يجري، تقول لي وكأنها تتحدث عن انسان لا أعرفه:

ـ آه لو تتذكرينه لما كان صغيراً، كان طوله لا يزيد عن يدي من هنا الى هنا، وتشير بيدها، ورغم صغره يملأ الدار صراخاً وعربدة. لم يكن يبكي كثيراً، لكن اذا

بكى لا أحد يصدق ان هذا الصوت يصدر عن هذا المخلوق البائس الصغير. اجل كان عنيداً منذ صغره!

وتستريح امي في احضان الذكرى، ثم تعود لتواصل الحديث بلهجة جديدة بعد أن تتلمظ:

- الآن.. لا يزعج احداً.. ازعاجاته قليلة، ولا تقاس بالسابق، ومع ذلك يجب أن نتحمله.. انه حنون يا انيسة، ألم تريه كيف اشترى لنا قطعتين من القماش من قروشه التي جمعها قرشاً فوق آخر!

وتمر الأيام، وعلاقتنا تمر معها في الدهليز المعتم، لتخرج في النهاية الى الضوء المشع الجامح. اصبحنا اكثر من اخوة، اكثر من أصدقاء، كان يبوح لي بكل شيء، حتى خصوماته الصغيرة التي لا يتعدى عمرها يوماً واحداً. وعندما بدأ يقرأ، بدا مجنوناً، كأنه اكتشف القراءة صدفة، واكتشفها وحده دون مساعدة احد.

بدأ يقرأ دون توقف، وكلمات امي، وهي تلح عليه ان يقوم ليأكل، أو أن يتوقف عن القراءة بعد أن صاح الديك ولم يبق احد ساهراً، كانت كلماتها تذهب هباء... ولم يكن يستجيب إلا اذا خانه السهر أو انتهى الكتاب.

كان اذا انتهى من قراءة الروايات، التي تسميها امي روايات اللصوص وقطاع الطرق، يلقيها بعيداً، وكأنه يتخلص من عار أو من شيء كريه، ويقول لي بصوت حالم:

- انيسة.. هذه الرواية رائعة ويجب ان تقرئيها!

- ولماذا رميتها بهذا الشكل؟.

- لأنها جيدة ولا أطيق أن تظل بين يدي .

- لماذا؟

- لأني سأبدأ اقرأها مرة ثانية.

- ولكنك انتهيت الآن من قراءتها.

- أستطيع ان أقرأها مرة اخرى، هل تراهنين؟

ـ لا أراهن.. ولكن من العبث ان يقرأ الانسان رواية مرتين.

ـ اذا كنت لا تريدين ان أقرأها مرة اخرى، اقرئيها انت.

ـ بالتأكيد سأقرؤ ها.

ويمضي اليوم الاول، ولا أقرأ إلا صفحة أو صفحتين، فاذا سألني أقول له: لم يبق لي إلا صفحات قليلة.. ويبدأ يسألني.. واخجل لأنني لا أفهم شيئاً مما يتحدث عنه، حتى اذا اكتشف كذبي قال لي بصوت احسه لرجل كبير، مثل أب:

ـ أتحبين أن نقرأها معاً؟

ـ اتركها لي، غداً سأقرؤ ها عندما تكون في المدرسة.

ـ واذا جئت ولم تنتهي منها؟

ـ افعل ما تشاء؟

ـ لا ... أريد أن أبدلها.

وتذهب رواية لتأتي أخرى، وأنا لا أستطيع ان أقرأ إلا القليل، حتى اذا رآني كسولة ملولة، اقترح عليّ ان نقرأ بعض الفصول بصوت عالٍ، انا أقرأ فصلاً، ويقرأ هو فصلاً آخر.. ولكن لم تجد محاولاته كلها.

ظللت أتابع قراءاته دون ان اشترك فيها، حتى جاء ذلك اليوم، الذي بدأ يخفي فيه الكتب عني.. اكتشفت ذلك صدفة.. بدأ يغلف الكتب اثناء قراءتها، لكي لا أرى عناوينها، وبدأت اللهفة تأكل قلبي لأكتشف عالمه الجديد.

منذ ذلك الوقت، بدأت رحلة الخطر.

• اخفيت عن أمي الأمر وقتاً طويلاً، وأخذت اتجنب الحديث عن رجب، لأن اي حديث عنه سيجرني بشكل أو بآخر، للنقطة الخطرة التي بدأت أخاف منها واحميها، ولا أريد لأمي ان تقترب منها ابداً، لكن محاولاتي لم تلبث ان اصطدمت بالأوراق التي يضعها تحت الفراش، تحت السجاد. كانت تأتي بها أمي والاستغراب يملأ وجهها:

ـ انيسة وجدت هذه الأوراق تحت الفراش.. ما هذه الأوراق؟

ـ أوراق رجب يا أمي!

ـ ولكن ما فيها؟

ـ دروسه، وأشعار يا أمي.

ـ وهذه الصورة؟ وهذا.. اي شيء هذا؟

ـ اشعار يا أمي.

وتنظر اليَّ باستغراب، وأهرب من نظراتها، لكن لم يطل الأمر.

سألت أمي رجب عن ورقة قلت لها انها قصيدة، انتزعها من يدها بغضب وأخفاها بسرعة، ولما الحت عليه لتعرف، قال لها:

ـ هذه تمارين رياضية!

ـ ولكن أنيسة تقول انها أشعار.

ـ وهل رأتها أنيسة؟

ـ انا التي قلت لها، انا التي سألتها؟

ـ ومن رآها غيرها؟

ـ لا أحد..

وبدأت أمي تعرف!

كانت أيامنا تلك الفترة مشحونة بالخطر والانتظار. رجب يغيب عن البيت أوقاتاً طويلة، وبعض الليالي لا نعرف أين ينام. وأمي لا تنام حتى يعود، وفي محاولة لاقناع امي، لكي لا تسأله، أو تضايقه بدأ يدفعها لكي تسير في طريق الجلجلة، كما كان يقول ويضحك. بدأ يعطيها أوراقاً ودون كلمات كثيرة، وبعينيه أو بطريقته عندما يضغط على يدها، يطلب منها ان تخفيها في مكان أمين، وبعد أن تعودت اخفاء أوراقه، دون احتجاج، دفعها لأن تحمل الصليب، كان يطلب منها أن توصل بعض الأوراق لاصدقائه، أو أن ترشد رجلاً يأتي الى بيتنا، ولم نره من قبل، الى بيت صديق.

وتزوجت، انتقلت الى بيت جديد، وظلت امي في بيتنا الأول. لكن هذا لم يستمر طويلاً. فبعد ان صار رجب يغيب عن البيت فترات طويلة، ويسافر، لم نجد وسيلة إلا أن تنتقل امي للسكن معنا، وأن ننتظر نهاية ما لهذه الحياة القلقة المكهربة. كنا نخاف عليه، ونحاول، أنا وأمي، أن لا نتكلم عن المستقبل، ولا أن نتذكر

قصص السجناء والقتلى، وحامد صامت لا يتدخل ولا يسأل.

هكذا بدأت الأمور. . وهكذا انتهت.

رجب الآن بعيد، يأكله السأم، ويعذبه الانتظار. ولا أعرف الى متى سيطول غيابه ؟ واذا عاد فكيف يبدأ من جديد؟.

اتمنى لو نستطيع ان نهرب من هذا البلد، ولكن الى اين؟ وهل الاماكن الاخرى تستقبل لاجئين يبحثون عن الحرية ولقمة الخبز؟ والحرية والخبز. . هل يوجدان في الأماكن الأخرى وهل يعطونها للغرباء؟ وقبر امي؟ لقد ولدنا في لحظة شقية. وما زلت الى الآن أتذكر كلمات أمي، وهي ترددها بمرارة:

ـ ما بال الدنيا تغيرت! ايامنا كان الناس يحبون بعضهم ولا يبحثون عن الشقاء! الآن الأخ لا يعرف اخاه، كل واحد يا نفسي. . ليس هذا كل شيء، القتل، والسجون، يأخذون الرجال ولا أحد يعرف الى اين أو الى متى. . الدنيا في نهايتها، ولا يمكن أن تبقى هكذا.

ورحلت امي وتركت الدنيا تغور وتجن اكثر من قبل. ولا يعرف الى متى أو الى اين؟ لا لن أقول لحامد كلمة واحدة. لا أريد أن أتدخل، ان اقنعه بشيء، ليتصرف كما يريد. ورجب هل ساعدته ؟ هل قتلته؟ لا أعرف.

بعد ايام قليلة اصبحت الصورة واضحة.

حامد يشتم ويعربد، منذ ان عاد ذلك اليوم. قالوا له «ستدخل عوضاً عنه اذا لم يعد خلال شهر من الآن. . والى ان يأتي يجب ان تذهب كل يوم ثلاث مرات لتوقع بالحضور في مركز الشرطة». لما حاول أن يسأل، ان يعترض، قالوا «لا نريد ان نتكلم كثيراً... رجب الذي كفلته لم يرسل لنا أية رسالة منذ ان سافر.: ليس هذا كل شيء، وإنما بدأ يتصل بالطلاب ويحرضهم ويشتم الحكومة. . . وسيدفع ثمن هذا غالياً».

ولم يقتصر الأمر على ذلك.

في السكون الميت الذي يسيطر على كل شيء، انطلقت رصاصات وقتلت امجد وثلاثة آخرين، قالوا: انهم حاولوا الهرب. وكتبوا: «حاول الحرس القاء القبض على المجرمين، ولكن المجرمين الذين حاولوا الفرار استعملوا أدوات جارحة متعددة في

ضرب الحرس، ادت الى جرح ثلاثة، جروحهم خطيرة جداً، وعلى اثر ذلك تبودل اطلاق النار فسقط اربعة من السجناء قتلى، وجرح سبعة من رجال الشرطة. وقد بدأ التحقيق لمعرفة أسباب الحادث، وسوف تذاع التفاصيل في وقت لاحق!».

ولم يذكر شيء بعد ذلك ، لم يعد لديهم ما يقولونه، لأن الحياة اضطربت مرة واحدة، على اثر المظاهرات التي بدأت منذ يوم الاثنين، ويبدو انها لن تنتهي بسرعة.

هل اكتب لرجب؟ واذا كتبت هل يتركون رسالة تحمل اخباراً خطيرة تصل اليه؟ وماذا سيقولون لي ولحامد؟ وعن أي شيء يمكن ان أكتب، عن أمجد؟ عن المظاهرات؟ عن حامد الذي يبدأ بالشتيمة، قبل أن يغادر البيت بساعة، لكي يذهب الى مركز الشرطة؟ ان حامد الآن يجتاز لحظات صعبة. لو كان رجب هنا لحدثته عن ذلك، لقلت له كيف اني أسمع حامد في الليل وهو يشتم الحكومة والنظام، وكيف يشد قبضته ويهدد.

اصبحت أخاف كثيراً هذه الأيام. احسُّ الدنيا تغلي وتكاد تحترق، واشكر الله ان رجب بعيد. لو كان هنا لفقدته، لأخذوه، وربما يقتلونه هذه المرة. اعرف رجب، لا يمكن أن يبقى في البيت، ولا يمكن أن يسكت، وهم ليسوا بحاجة الى ادلة، لديهم منها الكثير! وحتى في مرضه وغربته يلاحقونه. يقولون انه يشتم، يحرض الطلبة، انهم يكذبون، يريدون ان يبقوا حامد رهينة، حتى يتعاون معهم رجب أو يعود!

سوف أترك حامد يتصرف، أشعر أني مريضة وأفكاري وتصرفاتي غير متزنة، وكثيراً ما أندم على كلمة أقولها!

قلت لحامد والدموع تنهمر من عيني دون ارادتي:

ـ ألا ترسل لرجب برقية تطلب منه أن يعود؟

ـ لماذا؟

ـ لكي تنتهي من هذا العذاب الذي يسببونه لك كل يوم!

ـ وهل تتصورين انهم سيتركونني بعد الآن؟ أول أمس عندما ذهبت في المساء لمركز الشرطة رأيت واحداً منهم، قال لي وهو يسحب الدفتر الذي أوقع فيه، يراجعه ليتأكد:

ـ اسمع يا حامد، الاخبار التي تصلنا عنك ، تجعل وضعك خطيراً. بدأنا

نسمع ان لسانك لم يعد يدخل حلقك. وأنك تقول كذا وكذا.. لا نريد الآن أن نحقق، ولكن انتبه.

هذا ما قالوه أول أمس، ويبدو انهم لن يتركوني بعد اليوم! لن يتركوني اذا جاء رجب أو لم يجيء!

ولكن كل ما يفعلونه بسبب رجب للدفاع عن أنفسهم، لقد بدأت الأمور تتضح لي اكثر من السابق!

كتبت رسالة قصيرة فكرت ان ارسلها الى رجب. حاولت ان أقول له كلمات ذات معنى، ولكن لما انتهيت من كتابتها مزقتها أول مرة، ومزقتها في المرة الثانية، ويبدو أنه لن يقرأ هذه الرسالة، وحتى لو قرأها لن يفهم منها شيئاً.

قلت له أن يعود بسرعة، وحالما ينتهي من العلاج، وعللت ذلك بالشوق الذي احسه انا والاولاد نحوه، ولم اذكر اسم حامد. وقلت ان العناية في المستشفى مهما بلغت فلن تصل الى مستوى عنايتي.

هل سيدرك رجب ما أردت أن أقوله؟ ولماذا لم أقل لحامد عن هذه الرسالة؟ والآخرون اتبدو لهم عادية لدرجة انهم سيقولون لأنفسهم امرأة تكتب لأخيها المريض؟ تكتب له عن شوقها وشوق أولادها اليه، وعن العناية.. والأكل.

احس تغيراً في كياني لم احس بمثله حتى عندما كنت حاملاً. حملت أربع مرات، وفي المرات الأربع، كان الجنين في بطني وهو يتحرك، يغير مشاعري، يجعلها مضطربة وخائفة، ولكن لم احس ان شيئاً فيَّ يموت، هذه المرة أحس أن شيئاً يموت، كنت وأنا اعاني من القيء وأوجاع الظهر، اعطي الحياة لمخلوق جديد، ادفعه بقوة نحو النور، لكي يصبح كياناً له عينان وابتسامة.. الآن احس اني اتحمل القيء والأوجاع.. أفقد جزءاً من نفسي، جزءاً لا عينان له ولا أبتسامة، تسيطر عليَّ لحظات من الخوف أقرب الى الفزع، فأتصور ان الدنيا تهتز، تنتهي.

هل مات رجب؟ هل بدأ يعاني من مصاعب جديدة؟!.

وحامد الى متى يتحمل نتائج اعمال غيره؟ لقد هدته السنوات الخمس، تحملها بصمت، وكنت أتصور انه بمجرد خروج رجب من السجن، ستبدأ حياتنا التي طالما انتظرناها. لكن يلوح لي الآن انه لا حق لنا حتى في أن نأمل، ان ننتظر. سوف ننتهي كمخلوقات فاقدة كل شيء: الحرية والمستقبل والأمل.

اذا جاءت رسالة جديدة من رجب، فسأقول لحامد بإلحاح ان يبعث اليه يطلب منه ان يعود، خاصة اذا كانت صحته تحتمل!

* * *

الايام تمر، مجموعة من الايام الكئيبة، تتراكم بعضها، ولا أحد يعرف كيف ستنتهي ومتى! رجب بعث ببطاقة من مرسيليا، بطاقة غامضة أقرب إلى الانذار، لم يذكر عن صحته شيئاً، وقال انه يسافر لمدة أسبوع، وسيكتب بعد ذلك.

أين تسافر يا رجب؟ وماذا بقي لتفعله؟ ألا تستطيع أن ترأف بنا؟ ألا تفكر كيف نعيش هذه الأيام الصعبة؟ يجب ان تعرف، لن اكتب، لن أقول لك كلمة واحدة، ولكن يجب أن تعرف دون كلمات، كما كانت أمي تفعل.

كانت أمي تنخرط في البكاء فجأة، ثم تنوح، كما لو أن رجب مات. فاذا تعبت من البكاء تصلي ركعتين وتدعو الله. كنت اسمعها تدعو وأفهم: «يا ربي ليس لي غير هذا الواحد، الشيطان وسوس لي أنهم قتلوه، وأنت مالك الملك ، الطف به، ارحمه، انه وديعة عندك».

كانت الأفكار تتوالد في رأس امي، مثلما تتوالد نباتات السرخس، كانت تتوالد باستمرار، دون ان يقول لها احد!

وكانت تتراءى لأمي، في دوامة الحزن، أشياء كثيرة: «رأيت مناماً يا انيسة، رأيت رجب عريساً. طنت اذني اليسرى يا أنيسة، لا بد ان رجب يواجه مصاعب، ألا تظنين ذلك؟ قلب الأم لا يخطىء، قلبي يقول ان رجب مريض».

وأنت يا رجب ألم تر حلماً؟ واذنك اليسرى ألا تزال تستقبل الاصوات دون ذلك الطنين الذي يوحي بمصيبة ما؟

قبضوا على حامد. أوقفوه أربعة ايام، وقالوا له بسخرية: «مقدمة، فكر وارجع بعد اسبوع» ماذا يستطيع حامد أن يفعل؟ هم تركوا رجب يرحل، وافقوا على سفره، حامد لم يفعل اكثر من أن يوقع على ورقة، قالوا انها لا تعني شيئاً، ومجرد استكمال للشكليات. ابرزوها له، قالوا: «هذا التوقيع اليس توقيعك؟» لماذا ينكر؟ انه توقيعه. وقع وهو يبتسم، دون خوف. والآن يقولون «ابعث لرجب أن يأتي.. ليس هذا كل شيء، إذا ارسلت له مالاً فسوف تقضي في السجن عدداً من الايام مساوياً

للأموال التي ترسلها. . نريده أن يعود، وليس أمامه إلا أن يعود اذا لم ترسل له مالاً!»

وأنا ماذا استطيع ان افعل ازاء عناد حامد وردوده الحازمة؟ يقول بعصبية:

ـ هم الذين سمحوا له بالسفر. . وهم دولة، ليحضروه ان كانوا قادرين. ليس لي علاقة منذ بداية الأمر. اما المال، فأنا لا أرسل له من مالي، أرسلت له جزءاً من ثمن الدار التي تركها له أبوه!

ـ والى متى سنبقى بهذا الشكل يا حامد؟ كل يوم في مركز الشرطة، كل يوم توقيف وسجن؟

ـ اسمعي يا انيسة، اصبحت القضية قضيتي، بالنسبة لي مسألة كرامة، لم اكن أتصور انهم لهذه الدرجة من الخسة. كانوا يبتسمون عندما وقعت الورقة. كانوا فرحين وقالوا له كلمات عادية. . الآن يريدون ان اقع في المصيدة، بدل رجب حامد، وحتى لو لم يكن رجب، فإنهم قادرون على اختراع الف قضية!

وحامد لا يكتب إلا ما يريد، يقول لرجب، لا تهتم من ناحية المال، سأدبر لك ما تحتاجه. اعتن بصحتك وعد حالما تجد ان عودتك مناسبة، اقصد من ناحية صحتك، وعندما يقرأ هذه الجملة، يتوقف عندها ويغمز بعينه ويضحك، يريد ان يفهم رجب بسرعة ما قصده!

قلت له وهو ينتزع مجموعة من الأوراق النقدية، ويرسلها مع صديق لكي تحول من خارج البلاد:

ـ ولكن سوف تنتهي، يا حامد. . تنتهي ذات يوم، كيف نستطيع ان نؤمن له المال، بعد ذلك؟

ـ لن ينتهي المال خلال فترة قصيرة، وحتى لو انتهى، استطيع ان ادبره له!

ـ من اين؟ كيف؟

ـ وضعت جزءاً من ثمن بيتكم في صيدلية، عند صديق، والربح، وبعض الديون الصغيرة كافية!

ـ واذا سجنوك؟

ـ قلت لصديقي ان يحول له مبلغاً كل شهر، سواء كنت موجوداً أو لم اكن، وقد اعطيته العنوان.

ـ ولكن يجب ان يعود.

هكذا كانت الأيام تمر، ورجب لا يكتب إلا رسائل قصيرة متباعدة، ولا يذكر شيئاً عن عودته، كتب ان صحته تحسنت، ولكن بحاجة الى مزيد من العلاج، انه مضطر للبقاء فترة، وفهم حامد كلماته ولم يعترض.

ومهما ضاقت الدنيا ومهما صغرت، فإن فيها شقاً ينفذ منه النور ويحمل الهواء. فبعد المظاهرات التي انفجرت قبل شهرين، وراح فيها العشرات من القتلى والجرحى، يبدو ان الانفراج الذي بدأ قبل عشرة أيام سوف يمتد ويستمر.. رغم تشاؤم حامد وشتائمه. قالوا له: سنطلب اليك ان تراجعنا في وقت آخر، لا نريدك أن تأتي بعد اليوم لمركز الشرطة. ورغم الحاحي ان يبعث برسالة يؤكد على رجب بالعودة، فإنه يهز رأسه دلالة الرفض، ويقول وقد تخللت عينيه تلك النظرة الماكرة اللذيذة:

ـ لن تطول هذه الفترة.. كل الذين اعرفهم يقولون انها لن تطول، رغم البيانات والكلمات الكبيرة، ورغم الحكومة الجديدة، فإن كل شيء سيعود الى ما كان عليه ، وربما أسوأ.. وخلال فترة قصيرة!

لا أعرف كيف يفكر حامد، لماذا يتطلع الى الأمور بهذه النظرة المتشائمة، ولكن يبدو ان الرجال لا يحبون الايام السعيدة، ولا يحبون الراحة، يفتشون بالحاح عن المتاعب والشقاء. فحامد الذي ظل صامتاً طوال خمس سنين، يتحول الآن الى رجل أكاد لا أعرفه. بدأ يستعمل كلمات قبيحة أقرب الى الشتائم، في حديثه العادي، بدأ لا يتكلم مع الناس إلا في السياسة، ولا يكتفي بذلك، فرجب وهو يسافر يودع روحه التي حاصرها خلال سنوات السجن في حامد، لا أظن أنهما تحدثا، أو اتفقا على شيء، فهؤلاء الرجال يفهمون بعضهم بطريقة سرية وغامضة.. وإلا كيف تفهم الأمور.. وكيف تفسر؟

رغم القلق الذي لا يتركني لحظة واحدة، والذي يدفعني لأن أفكر برجب مثلما كانت أمي تفعل، فإني الآن اخصص جزءاً كبيراً من وقتي للعناية بالأولاد، وأرقب حامد وحياته الجديدة، كما أحرص على زيارة قبر امي كل أسبوع، بانتظار أن يبعث رجب بالكلمات التي يريدها، ولكنه لم يعد الى ذكر الموضوع بعد تلك الرسالة التي

ارقتني اياماً طويلة، ودفعتني لأن الح على حامد حتى أنه بنى القبر خلال ثلاثة أيام!

ذات مساء ، بعد الغروب بساعة، وكان المطر يتساقط ويولد في النفس ذكريات مدفونة في أعماق القلب، طُرق الباب، كانت طرقات ناعمة، خجولة ولا أعرف لماذا تراءى لي طيف رجب، نظرنا في وجوه بعضنا بتساؤ ل لم يكن فيه اثر للخوف الذي تعودناه، كلما سمعنا طرقاً على الباب بعد الغروب.

قام حامد ليفتح، وتراكض الصغار خلفه كالقطط، أما أنا فقد أحسست أن قلبي تزداد ضرباته مع اقتراب الخطوات نحو الباب، حتى اذا انفتح ، وبان لي وجه غريب تحت النور، اجفلت وقلت في نفسي: لقد جاءوا مرة اخرى!

رأيت حامد يطلب منه ان يدخل، كان طويلاً، وقد زاده المعطف الطويل ضموراً، فبدا أقرب الى الدمية وهو يخطو خطوات واسعة ويتلفت. كنت في لهفة لأن أعرف أي شيء عن الرجل، خاصة، وأن كلمات حامد القليلة لم تكن تحمل حرارة أو اهتماماً، بل وكانت أقرب الى البرود. لم يمض وقت قصير حتى جاء حامد. رأيت ابتسامة صغيرة تطفو فوق وجهه، ولم يتركني أسأله، رفع رسالة مطوية ولوح بها في الهواء، ثم قال:

- رسالة. . هل تعرفين رسالة من أين؟.

خطفتها دون ان أجيب، لم اخطفها، وإنما اقترب مني لكي يتيح لي ان التقطها بسرعة، وبيد مرتجفة حاولت فتح الغلاف فتمزق، واللهفة ما تزال مثل خيط النار تدفعني لأن أعرف شيئاً. قال حامد وهو يلتفت ليرجع:

- أريد أن أقرأها. . افتحيها على مهلك!

رسالة رجب. ولكن لماذا بعثها هذا المرة عن غير طريق البريد؟ هل فيها أخبار سيئة، وجاء هذا الرسول لينقلها؟ وماذا لو كان مريضاً وبعث الينا أن نحضر، ان ننقله قبل أن يموت؟ لا يمكن ان يلجأ رجب الى مثل هذه الطريقة لو لم يكن مضطراً. . لماذا اعذب نفسي بالأسئلة والأفكار؟ لأقرأ الرسالة.

كانت ليلى تقفز حولي، تسألني بالحاح عن الرسالة، أما الأولاد فقد سمعت أصواتهم وضحكاتهم حول باب الغرفة التي يجلس فيها حامد وضيفه، لم انتبه لشيء لما بدأت عيوني تقفز بسرعة فوق الكلمات، أريد أن أفهم، ان اعرف شيئاً عن رجب:

«العزيزة الغالية أنيسة . .

لأول مرة، منذ سنوات، أحاول أن أكتب بحرية. لا أفكر ان اكتب بحرية كاملة، لأن هذا مستحيل، ولكن بحرية اكثر من أي وقت سابق.

لا أعرف كيف استغل الحرية المتاحة الى الحد الاقصى. أريد وأخاف. . ليس في ذهني افكار محددة أريد أن أقولها، والأفكار التي أحبها أخاف أن أقولها.

قبل كل شيء صحتي ليست سيئة، احسن من قبل بكثير، ولكن النظام القاسي المفروض عليَّ يجعلني أحس وكأني انسان هش، أو بالأحرى انسان مؤقت. اذا اختل نظام العلاج يوماً واحداً تعرضت لنكسة وربما لفترة طويلة، لذلك أتبع الآن بصرامة نظاماً قاسياً، أشعر أني لا أستطيع ان احتمله ولكن سأحاول.

هذا ما ينبغي ان تعرفوه الآن، ولكن ما يهمني ويشغل تفكيري كثيراً، امور اخرى قد لا تخطر على بال:

يشغلني الآن يا انيسة امران: الأول ان اكتب والثاني ان اسافر لجنيف.

لا تستغربي ولا تقولي الكلمات التي طالما رددتها من قبل. كما لا أحب أن أدافع عن نفسي. الكتابة لمن ومتى؟ هذا سؤال لا أعرف له اجابة. افكر ان اكتب اشعاراً وروايات، ولديّ افكار كثيرة، ولكن ما أرغب فيه شيء جديد تماماً. فكرت في الطريقة ولم أستطع أن أصل، وما ازال أفكر. يبدو لي ان الشعر لا يمكن ان يكتبه إلا انسان واحد، لأنه سيل من الأحاسيس الداخلية ، في لحظات هاربة، فاذا لم يستطع الانسان السيطرة على هذه اللحظات، توارت وانتهت. . هذا ما توصلت اليه. الشيء الذي لم أستطع أن أتوصل اليه الآن، كيف يجب ان تكون الرواية. أريدها ان تكون جديدة، بكل شيء: ان يكتبها اكثر من واحد، وفيها اكثر من مستوى، وأن تتحدث عن امور هامة والأفضل مزعجة. . واخيراً ان لا يكون لها زمن. . .

من الصعوبة ان انقل افكاري الى الورق، لو كنا نتحدث الآن معاً لفهمت ما أريد أن أقوله بسهولة اكثر. . . اسمعي: أريد أن نكتب معاً رواية، ومن نحن، ليس انا وأنت فقط، بل وأريد ان يكتب الصغار. لو كتب عادل بعض الأشياء، وتركناها على بساطتها وصدقها، ولو كتب حامد، ولو كتبت أنت، ثم اكتب أنا بعد ذلك، لو هذا الشيء حصل، ضمن اطار ما، فإن ما نكتبه معاً، سيكون شيئاً

جديداً وجميلاً. ماذا تقولين؟ وحتى لا نضيع في دوامة قد لا نخرج منها، فمن الضروري ان نحدد موضوعاً ونكتب فيه. التعذيب مثلاً، كيف تتصورين الموضوع؟ كيف يتصوره انسان من الخارج؟ وليس أي انسان، انسان له علاقة بشكل ما، في مستوى ما.

طبيعي يجب ان يكون للموضوع امتدادات كثيرة ومتباينة: الذكرى، الاحاسيس، العلاقات وغير ذلك. وطبيعي ايضاً ان ننظر من زوايا مختلفة. هذه الزوايا المختلفة ضرورية لكي نرى الشيء من جميع جوانبه، فإذا ارتبط الموضوع أيضاً بالأزمان العديدة، اصبح شيئاً جديداً. مثلاً: كيف يتصور عادل، وكيف يتصرف، وماذا يتفرع عن ذلك؟ وحامد وأنت وأنا. اذا نجحنا في ان نحاصر موضوعاً معيناً، من هذه الزوايا، يمكن أن يكون موضوعاً ناجحاً. لست متأكداً ولكن هذا ما أتصوره، أو بالأحرى ما أطمح اليه.

لمواجهة الاعتراضات، علينا أن نتبع البساطة ونعترف. الاعتراف، بالكلمات العادية الصغيرة، يلزم كل واحد أن يقول كل شيء بغض النظر عن القواعد، وما يتفرع عنها من وجود امكانية أو خبرة سابقة. وبهذه الطريقة ننتهي الى شكل جديد!

هذه هي الفكرة الاولى التي اطلب منك ان لا ترددي في الموافقة عليها. ومع رسالتك هذه رسالة لعادل، لأنه الآن في سن يستطيع فيها ان يقول شيئاً، ولا تتدخلي لمساعدته إلا في أضيق الحدود. ورسالة اخرى لحامد. لو كانت أمي موجودة لاستطاعت أن تقول شيئاً مهمًا ولكان الموضوع في النهاية مجنوناً ورائعاً؟

الفكرة الثانية التي تشغلني الآن، الى جانب الرواية، أو الطريقة الجديدة في الكتابة، هي فكرة السفر الى جنيف وتقديم مذكرة أو لوحة عن العذاب اللاإنساني الذي يواجهه السجناء السياسيون في الوطن.

أعرف ان الفكرة خطرة ونتائجها غير مضمونة، لكن يجب أن يُعمل شيء من اجل الناس الذين يعذبون ويموتون.

لا تستغربي اذا قلت لك، ام اهم دافع لسقوطي، لنهايتي، كما تبدو لجميع الناس، ولي انا بالذات، أن أسافر الى الخارج، خاصة الى جنيف، وأن أقول كلمات للناس، كلمات لا تهدف الى التأثير العاطفي، وإنما الى فعل شيء غير

محدد. . الكلمة ليست السلاح، ضمائر الناس، عقولهم، واجبهم، السلاح الحقيقي.

لست متأكداً مما يجب ان افعله. سأدرس الأمر كثيراً قبل أن افعل اي شيء، لكن أتصور السكوت الآن جريمة كبرى، جريمة يدفع ثمنها الناس المنفيون على شاطىء المتوسط الشرقي، بتقديري جميع الناس، ولكن اكثرهم السجناء السياسيون.

ماذا بعد يا أنيسة؟

الافكار اكثر من أن تحصى، الأحاسيس في قلبي تولد العذاب واللوعة، وأي انتظار، أي سكوت مشاركة، بشكل أو آخر، مع الجلادين، صفعات توجه لجميع البشر، خاصة للسجناء!

كلمة اخيرة. . كنت أريد ان يكتب على قبر امي كلمات لها مغزى معين. فكرت بالأمر طويلاً، ولما كان مستحيلاً الآن كتابة هذه الكلمات، فلا أقل من كلمة أو اثنتين، لها دلالة معينة.

ما تتصورين، هل يمكن كتابة كلمة الوفاء على القبر دون ان تؤدي الى متاعب أو ازعاجات؟ أتصور ذلك. لو كانت في بلادنا حرية، ادنى درجات الحرية، لكتبت على القبر كلمات اخرى. . . «صمود امرأة في وجه الطغيان» أو «صمود عجوز في وجه الجلادين» أو «هنا ترقد المرأة التي تحدت الجلادين دون سلاح، سوى الغضب!».

هذا ما أردت أن أقوله لك الآن. حامل الرسالة سيعود الى هنا بعد أسبوعين، ارجو أن ترسلي لي أوراقي، والأشياء التي كتبها عادل وحامد، والتي كتبتها انت، بعد ان اقرأها قد أفكر بكتابة شيء، وقد يكون هذا الشيء مفيداً.

تحياتي الحارة للجميع».

أردت أن أقرأ الرسالتين الاخريين، ولكن الكلمات التي كتبها رجب لعادل، جعلتني اكف وشعرت بالخجل. قال له: «ارجو أن تقرأ هذه الرسالة وحدك، دون عيون الآخرين، خاصة عيون امك».

كلمات من هذه التي قرأتها؟ رجب؟ وأي رجب؟

كان يحبس نفسه قبل عشر سنين ساعات طويلة في الغرفة الداخلية، ويكتب ماذا كتب؟ لمن كتب؟ لا أحد يعرف سوى النيران. كان يغرق في عالم الدخان والورق، فترات طويلة، حتى اذا انتهى، يقول لي ولأمي بصوت عالٍ:

ـ سأحتفل الآن على الطريقة المجوسية.. لقد وضعت في هذه الأوراق اثمن ما عندي، والآن أريد أن أقدمها قرباناً للنار!

تمنيت أن أقرأ شيئاً مما كتبه، حاولت، لكن لم أستطع. كان يحرص على أن يقدمها بنفسه للنار، ويظل يتطلع اليها بلذة وهي تحترق، قلت له مرات كثيرة:

ـ انت مجنون يا رجب. وإلا لماذا تحبس نفسك أياماً، ثم تحرق كل ما غزلته؟

كان يتطلع اليَّ بعيون لا ترى شيئاً، وكأنه يفكر بما كتبه، أو بما سيكتبه، وكان لا يبدو عليه أي ألم وهو يحرق. أما امي فقد غضبت ذات مرة، وقالت:

ـ لماذا لا تحرق الأوراق قبل أن تكتبها؟ احرقها دون سهر الليالي ودون كلمات عصبية ترد بها عليَّ عندما أناديك لتأكل أو لتنام!

ولم يجبها. كان يبتسم ويحرق الأوراق.

ظل هكذا سنوات، حفلة كل أسبوع، وأمي تنظر الى الرماد بحزن، وتقول لي بصوت فيه رنة استغراب وأسى:

ـ لا يحرق فلوسه فقط، بل ويحرق أعصابه واعصابنا.. متى وكيف؟ ألا تقولين له شيئاً يا انيسة لعله يتوقف!

الآن يريد ان نكتب. من نحن وماذا نستطيع ان نقول؟ الرسالة اذا كتبتها اليه أتردد كثيراً قبل أن أرسلها. الآن يدعوني لأن اكتب معه رواية.. وعن أي شيء؟ عن هذه الكلمة التي اذا ترددت امامي مرتين يغمى عليَّ!

ولا يريدني وحدي ان اكتب، يطلب من عادل ان يكتب! لا أريد أن أظن ظنوناً سيئة، ولكن أحس انه يتعذب، يبحث عن شيء ضائع، وقد لا يعرف ما يبحث عنه، وهذا اصعب ما يواجه الانسان، وأشد ما يعذبه!

ماذا سيقول عنه حامد؟ وعادل.. آه لو كانت أمي حية الآن لصرخت في وجهه، لقالت له بطريقتها القاسية والمحبة، لكي لا يعود بعدها للتفكير بمثل هذه

الأمور البائسة! والسفر.. الى جنيف! ان رجب لا يتصرف بعقل هذه الأيام. وأخشى انه قد لا يجد احداً يمنعه أو يحذره على الأقل. نريد أن يعود، أن يعود بسرعة، ويبدأ حياته من جديد.. اذا ذهب الى جنيف، ولا أدري اية مدن عجيبة اخرى، فسوف يخلق لنفسه ولنا متاعب جديدة. وحتى اذا ذهب الى هناك، ماذا سيجد؟ من يسمعه؟

قبر امي في مكانه، سأكتب عليه الكلمة التي اقترحها، لا يمكن لأحد أن يعترض، وإذ لم ينتبه أحد لهذه الكلمة، والتي ليس لها علاقة بالسياسة، فلن تفهم إلا على انها كلمة من أبناء أرادوا أن يكرموا أمهم، فكتبوا هذه الكلمة : الوفاء!

سأكتب له رسالة غداً أقول له اننا بحاجة اليه ويجب أن يعود، وسأقول له بصراحة ان يترك فكرة السفر الى اي مكان ويعود الى هنا مباشرة!

* * *

بعد ان قرأت رسالة رجب مرات كثيرة، كتبت له صفحات كثيرة، لكن لا أعرف ان كان سيقرؤها أم لا... ولا اعرف ان كنت سأرسلها أم لا؟... قلت له على ورقة صغيرة، وجهتها اليه كرسالة:

«مر علينا عبد الغفور في الاسبوع الأول لوصوله. اعطانا الرسائل وحدثنا عنك، وبعد ايام عاد من جديد، وقال ونحن نشرب القهوة...

ـ اوصاني رجب ان اذكركم.. قال لي لا ترجع اذا لم تحمل معك حزمة من الورق. حزمة كبيرة. اعرف ماذا يقصد، ولكنه أوصاني ان اؤكد عليكم كل ثلاثة أيام، وقبل فوات الأوان...».

«حبست نفسي فترة طويلة يا رجب وكتبت، ولم اجرؤ ان اتحدث مع حامد كلمة واحدة عن الأمر. رأيته يكتب وقد اخفى الأوراق عندما رآني اقترب منه. ابتسم لي برجاء، ليفهمني ان اتركه. اما عادل، فقد كتب اوراقاً كثيرة، ولكنه لا يكتب بضعة أوراق إلا ويحرقها، تماماً كما كنت تفعل انت! حاول ان يقول لي شيئاً، لكن في لحظة معينة، شعرت ان الخجل يمنعه.

انت يا رجب الآن لو كنت هنا لما فكرت لحظة واحدة في الأشياء التي تفكر فيها الآن، أريد أن أذكرك أية كلمة، أي تصرف، ينعكس علينا بشكل مباشر، ولذلك، أتوقع ان تمارس هوايتك القديمة، مرة اخرى، ان تحرق الأوراق، كآخر

قربان مجوسي، وتحزم حقائبك وتسافر، لا الى جنيف، وإنما للوطن مرة اخرى..
وما نتصوره عن سقوطك، عن كفارة تريد ان تقدمها، فإن أفضل شيء أن تأتي..
وهذه المرة لن أتدخل ، لن أقول لك كلمة واحدة، وأشعر بأسف حقيقي انني
تآمرت عليك خلال الفترة الاخيرة وجعلت حياتك في السجن صعبة.

لا أحب التشاؤم، ولا أنظر الى الحياة، كما ينظر اليها حامد، فقد تغيرت عن
السابق، صحيح ان التغير لا يزال محدوداً، وربما لا يلاحظه الانسان إلا بصعوبة،
ولكن يمكن لكل انسان ان يعيش، ليس ممكناً فقط، بل ضروري. كما كنت أقول
لك في رسائلي كلها، نحن بشوق مجنون لأن نراك بيننا... لا تتأخر، تعال، تعال
بسرعة!».



ابتعدت أيام أشيلوس وجفت معها أطياف البشر الذين كانوا عليها. المرأة الطفلة التقت بشابين يسافران الى بريطانيا، وظلت معهم طوال الوقت، والعجوز التي تعاركت مع بحار في ميلانو وضربته بحقيبة اليد اصبحت النظرات تلاحقها اينما ذهبت، كانت تبدو متجهمة الوجه، غاضبة ولا تكف عن الشتم، وأصرت ان تقف في بداية الطابور لتكون أول من يهبط على أرض فرنسا.. اما المكسيكي فقد علق قيثارته في رقبته وحمل الحقيبتين، كل حقيبة بيد، وكان يغني وهو يهبط سلم الباخرة.. عشرات الوجوه انطفأت، ذابت ملامحها في زحام الوجوه الجديدة التي لا تكف لحظة واحدة عن الظهور والاختفاء!

الشتاء القاسي يستلب الانسان من الداخل، يحوله الى قصبة مفتوحة، ويدفع اليه، بلا توقف، الاحزان والذكرى والشعور بالتفاهة. استغرب كيف يضحك الناس، كيف يقفزون على رؤوس أصابعهم كأنهم الطيور الفرحة. المسنون.. ألا يموتون هنا؟ كل واحد منهم، يحمل فوق كتفه مئات السنين. يحملها بقوة متباهية، ويسير بها وسط الثلوج والزحام، بلا خوف. وأنت يا بلاد الشاطىء الشرقي، بدءاً من ضفاف البحر، وحتى اعماق الصحراء، لماذا لا تتركين بشرك يصلون الى سن الشيخوخة؟ كانت أعناق الرجال والنساء تلتوي على مهل، ثم تسقط. كانت الحفر الصدئة تستقبل كل يوم عشرات الجثث التي لم تتح لها حتى فرصة الحلم، حملت معها أحزانها ورحلت. وأنت يا أمي لماذا رحلت قبل أن أراك؟ أأنا قتلتك؟ صدقيني انني لم اقتل أحداً يا أمي، هم قتلوا كل الناس، هم قتلوك. انهم يقتلون دون رحمة، لكن لماذا يقتلون؟لماذا . لماذا؟

يجب أن أفعل شيئاً. قلت لأشيلوس ونحن نبحر بين ميلانو ومرسيليا: ايتها السفينة انت الصماء المقطوعة الآذان، لا أظنك تفعلين ما يفعله البشر.. انت

تمنحين الدفء والفراش، تمنحين الغذاء، ولا تريدين مقابلاً.. البشر. هناك، ينتزعون من الانسان كل شيء: الدموع، الرغبة، وحتى الذكريات.. أما الأفكار التي تعبر رأسه في الليل فإنهم يريدونها أن تتحول الى كلمات، الى اسماء، ومقابل ذلك يمنحون الانسان الضرب والألم وحنيناً موجعاً للنهاية والموت!

«من علمك ان تقول هذه الكلمات؟ قل لنا يجب ان تقول».

ونسمع النواح، كان نواحاً طويلاً تتخلله شهقات الماء الممزوج بالملح وهو ينسكب على الجروح، مثل السكين وهي تنغرز في القلب نسمع أنيناً موصولاً لا نهاية له.

أمين بائع الجرائد، ذو الوجه الفرح والصوت القوي، والذي يبيع اكثر من الباعة الآخرين، كان مع الجريدة الصماء الباردة يبيع الكلمات... كلمات البشرى. أمين أتوا به.. كنا نسمع نواحه، ثم انينه، ظل ثلاثة أيام في زنزانة لا تبعد عنا اكثر من خمسة أمتار، ثم مات! امين لا يعرف إلا سلاح الكلمة، يقرأ أثرها في وجوه الرجال، في لهفة أيديهم وهي تمتد الى جرائده، ومن اجل الكلمة قتلوه. كانت رائحة الزنزانة وهم يفتحونها ليخرجوا جثته، مليئة بالقيء والدم ورائحة الغواط، ومن فتحة القضبان رأيناهم يحملونه: الزرقة والدم اليابس والكلمة التي انتهت الى الأبد!

هل تستطيع الكلمات ان تفعل شيئاً؟ هل تخيفهم؟

«أرجو ان تسمحوا لي بالموافقة على السفر للعلاج في الخارج بناء على توصية الطبيب، لأن مسؤولية موتي في السجن، تقع عليكم، وأتعهد ان اتوقف عن اي نشاط سياسي». كنت احس دبيب الموت يسري في جسدي، وعربدتْ في رأسي تلك الفكرة المجنونة، فكرة ان اقول الكلمات الاخيرة قبل أن أودع هذه الحياة. في السّجن لن يتاح لي ان اقول الكلمات التي أريدها، وحتى لو بقيت في الوطن لن يتاح لي ان اتكلم، لم يبق أمامي إلا أن أتعهد وأسافر... كان امامي المرض.. ثم الموت. هل أموت قبل أن أقول شيئاً؟ والتعهد ؟ لا لن اعمل في السياسة، لديّ ما افعله في مجالات اخرى، سلاحي الاخير الكلمة لعلها تكون طلقة الرحمة لي ولهم، ونموت معاً!

دبيب الموت يمد لسانه في دمي، يحول الدم الى قيح، ويعبر مسامي كلها، حتى اذا وصل الى رأسي جعل كل ما أفكر فيه له رائحة القيح ولزوجته!

الآن، وانا انتظر ٢٢ كانون الاول، موعد دخولي إلى المستشفى، اصرخ من اعماقي صرخات ملعونة يملؤها الوباء: ما الذي دفعني لأن اكتب تلك الكلمات المنحطة؟ ما الذي جعلني أقف امامهم مثل طفل مذنب، وأقول لهم: لم تعد لي علاقة؟ كنت أخاف من نفسي اكثر مما اخاف من أصدقائي.. الآن يتراءى لي كل ما مر وكأنه كابوس لا يرحم.

متى سقطت ؟ لماذا سيطرت عليّ تلك النقطة الضعيفة التي جعلت الأشياء تبدو لي متساوية؟ امين بائع الجرائد؟ هادي المقتول ونحن نبكيه حول الأرغفة اليابسة وقطعة الجبن؟ امي التي سافرت برحلة لا تعود منها؟ الدم الملوث الذي يجتازني عشرات المرات كل يوم، في مشوار همجي يدمر فيَّ الخلايا والارادة؟.

سيطرت عليَّ بجموح فكرة ان اكتب. يجب ان اقول للناس ما يجري في السراديب، في الظلمة، وراء جدران ذلك البناء الأصفر الذي يربض فوق قلوب البشر مثل حيوان خرافي. الكلمة آخر الاسلحة.. لن تكون أقواها، لكنها سلاح الذين تلوثت دماؤهم، ماتت امهاتهم. سلاح الاطفال الذين يريدون ان يفعلوا شيئاً!

رجب اسماعيل سقط. هذه هي الكلمة الوحيدة التي تفسر النهاية التي وصلت اليها، ولا يجدي أن يقال الآن ظل رجب خمس سنين، بأيامها ولياليها، وراء الجدران، وأنه مرَّ على سبعة سجون، لم يضعف، ولم يعترف. الانسان محكوم عليه بنهايته. الصمود، الارادة، كل كلمات المجد المتوردة الوهاجة، تسقط في لحظة النهاية البائسة. ماذا يجديني اني نظرت في وجوههم بتحدي الأبالسة وقوة العناد؟ لقد سقطت، تراجعت السنوات الخمس، الأيام والليالي، لتذوب في الكلمات الذاوية التي كتبتها بيدي. صرخت بيأس في وجوههم: انتم تعرفون احسن مني ان صحتي تنهار، وأية فترة جديدة اقضيها في السجن، تعجل بنهايتي.

كانوا يعرفون. وإلا كيف تركوني ثلاث سنين دون ان يقولوا كلمة واحدة؟ ظللت وقحاً بالنسبة لهم انتقل من سجن الى آخر، لم يكونوا يحبون أن ينظروا اليَّ بعد أن يئسوا. كان صمتي سلاحي الوحيد الذي مزق احشاءهم.. رموني مثل كرة، من سجن لآخر، من غرفة لأخرى، تعبوا وهم يضربونني، وفي السجون البعيدة حلمت، وفي المدن الكبيرة حلمت، وفي الطرق الصحراوية داخل سيارة تشبه علبة السردين حلمت، لم أترك الوقت يمر دون ان أحلم. كنت أقول في

نفسي: سأفضحهم، سأقول للناس، كل الناس، ان البشر بالنسبة لهؤلاء الأبالسة، ارخص الأشياء، أتفه الأشياء.

ومن اجل الكلمة سافرت، ركبت البحر الصاخب في الشتاء الحزين، لعلي من مكان بعيد استطيع ان اقول الكلمات التي حلمت بها طوال خمس سنين...

والآن، بعد ان حاولت على ظهر اشيلوس الماكرة، وبعد ان حبست نفسي طوال الليل والنهار في الغرفة المستطيلة الكئيبة، في فندق الالزاس، اجد أن الكلمات التي دوت في رأسي تلك الأيام كأنها الحراب المسمومة، اجدها تتحول الى أصداف فارغة لا تعني شيئاً!

فكرت مائة مرة ان اكتب رواية عن هادي. يجب ان يعرف الناس هادي: وجه اقرب الى وجوه الأطفال، عينان صغيرتان ذكيتان، وابتسامة لا تموت، كانت ابتسامة هادي مثل الضوء الصغير، تغيب لحظة، لكنها لا تنطفىء.

آه لو كتب احد عن هادي، لكن من يكتب يجب ألا يكون رجب. سوف يقول للناس، ان هادي جديلة من الصمود، غزلتها الايام الصعبة والشقاء، ورمتها في وسط الناس كتلة ملتهبة، لا تخبو ولا تتوقف. بدأت اكتب عنه، لكن الخوف الذي بلغ بي حد الفزع، دفعني لأن احرق الأوراق. قلت لنفسي وأنا أقرأ الكلمات الميتة: ليس الذي اتحدث عنه الآن هو هادي المخلوق الحي الذي كان. ما أتحدث عنه قطة معذبة، جسد يتلوى، اما الانسان ذو الابتسامة الصغيرة والارادة الجسورة، فلم أقترب منه. وصرخت وأنا أحرق ما كتبت: تخاف ان تفضح نفسك يا رجب. ان تبدو كذبابة مقطوعة الأجنحة، لو تحدثت عن هادي بلسان رفاق هادي.

آه ما أتعس الانسان عندما يداهمه العجز، ويفقد القدرة كلياً على أن يقول تلك الأشياء التي نامت معه وقامت خلال سنين، الكلمات الشديدة التوهج التي قالها الناس في السجن، دون ان يفكروا لحظة واحدة بالكتابة. كنت اشحن ذاكرتي بتلك الكلمات، لعلها تنزلق يوماً على الورق، وتقول للناس أي رجل كان هادي، الآن اشعر بالانطفاء الكامل. هاجرت الكلمات، ابتعدت عني، اصبحت كالخرق البالية، بعد ان كانت في ذاكرتي قبل سنين كالأعلام المشتعلة.

الورقة التي وقعتها، كانت شهادة الوفاة. وفاة رجب اسماعيل، كإنسان، يحلم بأن يكتب.

ليس هادي الوحيد الذي اعجز عن الكتابة عنه. هل استطيع ان اكتب عن امي! اين امجد ورضوان وسعيد؟ اين عشرات الوجوه الملوثة بالدم، والتي كنت أجبر نفسي على ان انظر اليها بشراهة، لكي أتألم اكثر.. واكتب عنها؟ ان هذه الوجوه تنظر اليّ الآن، من سراديبها البعيدة، من قبورها، نظرة سخرية.. تقول، تصرخ: لا تكتب عنا كلمة واحدة، اليد الملوثة، القلب الملوث، لا يستطيع ان يكتب!

قلت لأنيسة في الليلة الأخيرة، ان تحدثني عن امي.. فكرت ان اكتب عنها.. لما حدثتني وانتهت، بكيت. والآن، رغم الهمهمات البائسة، الخطوات البطيئة فوق خشب الغرفة، الدخان والنظر الى الشارع، اجد نفسي مسلوباً، وكأنه لم تكن لي أم في يوم من الايام. انيسة تستطيع ان تكتب شيئاً، حتى جارتنا ام جاد المولى، تستطيع ان تعيد لها الحياة اذا تكلمت عنها.

كانت كلمات امي حازمة مثل حبل الحرير، وهي تقول لي بعد ان ابتعدت عمتي: احذر يا رجب.. الحبس ينتهي أما الذل فلا ينتهي. لا تقل شيئاً عن أصدقائك.. احذر، أتسمعني؟

لم أقل شيئاً يا أمي. كلماتك كانت الجسر. نظراتك الصلبة، وانت تحذرينني، جعلت مني رجلاً طوال خمس سنين. لكن الداء يا أمي.. لا ليس الداء.. هذه البلاهة الغامضة التي سرت في دمي وقالت لي يمكنك ان تفعل شيئاً غير أن تموت. تصورت السجن يتحول في لحظة الى قبر، وكنت انتفض لكي لا أظل في القبر، وفي سبيل ان اخرج، دفعت كل شيء. ليس لي جدارة من أي نوع، يا أمي، لأن أقول عنك كلمة.

الافكار البائسة تهاجمني مثلما يهاجم الجراد الحقول الخضراء. افكر الآن أن أدفع الآخرين لأن يكتبوا معي. سأقول لأنيسة في رسالة قريبة ان تكتب شيئاً عن تلك الايام التي سجنت فيها. ماذا قالت امي؟ كيف تصرفت؟ لن أمد يدي لكلماتها، سأتركها تطفو فوق الورق الأبيض، لعلها تكون رثاء أخرس لتلك العجوز.

اشعر بالعجز، اشعر بالعجز والانتهاء! لماذا حملت معك تلك الجيفة يا أشيلوس طوال ثمانية أيام؟ ألم تقتلك الرائحة؟ رائحة الرجل الميت؟ لم أر أحداً غيري على ظهر السفينة يحمل هذا المقدار كله من رائحة الموت. استرقت النظر اثناء الغناء، وفي صالة الطعام، الى الوجوه، لعلي ارى انساناً يشبه رجب اسماعيل.

كانت وجوه الناس مليئة بالذكريات، والمصاعب، لكنها كانت وجوه بشر حقيقيين. كانوا يبذلون جهداً كبيراً من أجل ان يظلوا احياء. كانوا يسافرون ويتعبون، ثم يجلسون في ظل صالة الطعام وتحت الشرفات ليغنوا.. لم أستطع أن أشاركهم سفرهم وتعبهم، مزقتني الرغبة لأن أغني معهم، لكن لم استطع.. كنت أنذر نفسي لأن أكتب، وها أنذا الآن في غرفة فندق الألزاس رقم ٣٧ ، أذرع الأرض، انظر من النافذة، أميل برأسي قليلاً لكي أسمع وقع الخطوات في الدهليز.. ولا أجد شيئاً يمكن أن أقوله! ماذا لو شنقت نفسي؟

في سقف الغرفة ، الى جانب حبل النور المتدلي حلقة. يمكن ان امزق ثيابي، اصنع منها حبلاً، اقف على الكرسي حتى أسقط الحبل في الحلقة، أمسكه من الناحية الثانية، أعقده، حتى اذا ربطته جيداً، صنعت حلقة في الحبل ووضعتها في عنقي، وفي لحظة ادفع الكرسي وأتدلى... ارتعش في محاولة لأن اسحب الهواء، لأن أرخي الحبل، لكن الفقرات تكون قد انزلقت، وانتهي.. ينتظرونني يوماً.. يوماً آخر، وحين يفتحون باب الغرفة يرون الحبل يهتز في الهواء، والجثة المتقيحة تفوح منها رائحة كريهة.. يتركون كل شيء في مكانه، يغلقون الباب بخوف ويتصلون بالبوليس.. وفي اليوم التالي، في زاوية صغيرة تكتب الصحف المحلية: رجل اجنبي، في الثلاثين يقتل نفسه في ظروف غامضة. وأدفن في مقبرة شتائية بعيدة! لا يشيعني احد، لا يعرفني أحد.. أما الحقيبة فإنهم يفتشونها جيداً، اذا وجدوا عنواناً كتبوا اليه، واذا لم يجدوا وضعها البوليس في المستودع لثلاثة شهور، ثم أعطاها لاحدى الجمعيات الخيرية، وقد تصل ثيابي الى سجين!

واذا مت، فماذا سيحل بأنيسة؟ من يقول لها وماذا ستفعل؟

لا أقوى على أن أرفع رأسي، ولا أقوى على ان ادخل الفراش وأنام الآن. هزمت ارادتي، ولن ابقى اكثر من شهور، ثم أموت!

هل يمكن ان ترمم ارادة انسان لم تعد تربطه بالحياة رابطة؟ انا ذاك الانسان.. لا لست انساناً، السجن في أيامه الأولى حاول ان يقتل جسدي.. لم أكن أتصور اني احتمل كل ما فعلوه، لكن احتملت.. كانت ارادتي هي وحدها التي تتلقى الضربات، وتردها نظرات غاضبة وصمتاً.. وظللت كذلك.. لم أرهب، لم أتراجع: الماء البارد.. ليكن. التعليق لمدة سبعة أيام، ليكن. التهديد بالقتل والرصاص حولي يتناثر، ليكن.. كانت ارادتي هي التي تقاوم.. الآن ماذا

بقي فيَّ؟ في لحظات الغضب والتحدي أصرخ: يجب ان افعل شيئاً.. وما دمت فقدت كافة اسلحتي: النظرة الغاضبة، التحدي، الصمت، فلأجرب سلاح الكلمة.. لأقل كلمة اخيرة قبل أن أرحل.. ولكن الكلمات العاهرة تضيع مني. في الليل، وأنا مفتوح العينين، وأنا مغمض العينين، ابذل جهداً اخيراً لكي احاصرها، لكن اذا جلست الى الطاولة الملتصقة بالحائط، اشعر ان ليس لديّ اية كلمات.

ذهبت الى ثلاثة أو أربعة مقاهي في مرسيليا. ذهبت منذ الصباح الباكر، وبعد ان شربت القهوة على مهل، وحاولت استرجاع الكلمات، بدأت.

الكلمة الأولى عين لص. الكلمة الثانية ابتسامة سخرية.. الكلمات الثالثة والرابعة والخامسة شهقات العذاب، في السجن، أيام الشتاء، وأتوقف. أي عبد ذليل اصبحته يا رجب؟ عمن تريد ان تكتب الآن؟ وأية كلمات يمكن ان تنقذ هؤلاء الذين حرم عليهم كل شيء حتى أن يقصوا أطراف علب السجائر ويحولوها الى قطع مستطيلة صغيرة، ليرسموا عليها نقطاً سوداء، ثم يلعبوا بها! لقد حرموا من كل شيء.. صادروا قطع الخبز التي أصبحت بأيديهم الصابرة بيادق وقلاعاً، ليلعبوا بها الشطرنج...

«ألا تعرفون، يا أولاد القحاب، ان اللعب ممنوع؟ وتحتالون؟! تصنعون من لب الخبز أدوات للعب...» ويضربونهم، يضربونهم بالأحذية بالعصي، يبصقون عليهم ، ثم يصادرون كل شيء. ماذا استطيع ان اكتب لكي انقذهم!

المقهى، العجائز، العشاق، البحارة، هؤلاء لا يمكن ان يتيحوا لي لحظة أمن تمكنني من الكتابة!

. وانتقل الى مقهى آخر.. افكر في الطريق.. اية افكار يجب ان تكتب، اية كلمات يمكن أن تنقذ أمجد أو أبراهيم؟ وتفترش ذاكرتي كلمات كبيرة مثل مسامير حدوات الخيل، وأدخل المقهى، ومع قدح النبيذ، أمدد أوراقي كمتسول. انظر عبر الزجاج، انظر الى الوجوه، وأخط الكلمة الأولى، وأخط الكلمة الثانية، وتفترسني نظرة جانبية من امرأة مسنة، وهي تراني اكتب من اليمين الى اليسار، تنظر باستغراب وهي تقلب شفتيها.. أريد أن أقول لها ان طريقتنا في الكتابة يا سيدتي وحدها ذات قيمة ولم تتغير، كل شيء عداها لا قيمة له، خاصة الانسان.. الانسان في بلادنا أرخص الأشياء، اعقاب السجائر أغلى منه.. آه لو تنظرين لحظة

واحدة في قعر سرداب من آلاف السراديب المنشورة على شاطىء المتوسط الشرقي وحتى الصحراء البعيدة، ماذا ترين: بقايا بشر، ولهاثاً، وانتظاراً يائساً.. وماذا ايضاً؟ وجوه الجلادين الممتلئة عافية وثقة بالنفس... والضحكات.. لا تستغربي شيئاً يا سيدتي، والذي يثير استغرابك الآن، أقل الاشياء إثارة للاستغراب هناك!

واكتب مشروع رسالة لانيسة بعد ان أعجز عن كتابة أي شيء، أطوي الأوراق، وانظر الى العجوز والجرسون والزجاج، وتمر أمامي الوجوه: وجوه ضاحكة، يعربد فيها الفرح. وجوه قاسية يعذبها التفكير.. وأرى الجرائد، فوق الطاولات، يتناولها الناس بهدوء ويقرأونها ثم يعيدونها، وأرى شاباً له لحية يقرأ كتاباً...

وأتذكر الحاج رسمي أبو جعفر.. ربطوا يديه وراء ظهره، اوقفوه في ساحة السجن، أمام عشرات السجناء وبدأوا يسخرون منه:

- مثل أبي هريرة تقول للفقراء ان يثوروا... خذ يا قواد، يا حاج كلب، يا حاج خرا، ويضربونه على وجهه، على رأسه، على صدره، كانوا يسخرون منه ويضربونه، وفي لحظة تنبهوا للحيته، كأنهم يرونها لأول مرة. بدأوا يشدونها كما لو انها ذنب كلب، ويحني الحاج رأسه، لكي يتجنب ألم الشد.. لما تعبوا، اشعل واحد منهم عود ثقاب وقربه من اللحية الشائبة، اشتعلت، اصبحت كأنها كرة من اللهب، تناول الثاني سطلاً فيه رمل وقذف وجه الحاج.. بعد ايام والحاج رسمي يجلس في الشمس، كان وجهه مثيراً للاشمئزاز والاسى: بقع حمراء تنزف ماء لزجاً، وعينان بلا أهداب، والشفة السفلى مدماة.

قال للفقراء ألم تسمعوا أبا ذر الغفاري حين قال: عجبت لمن يكون جائعاً ولا يشرع سيفه!

يجب ان أتوقف عن محاولة الكتابة، بعد أن أخرج من المستشفى سيكون لديّ الوقت الذي يجعلني أبدأ ولا أتوقف.. الآن أمامي مرسيليا كلها يجب أن أتعرف عليها، لأرى أسواقها ومسارحها وساحاتها، ولأرى بشرها أي بشر هم!

*

كيف انسقت الى مواقف غبية وأنا أفكر بكتابة شيء عن التعذيب؟ يبدو لي الأمر الآن غاية في البساطة. ليس مطلوب كتابة قصة، لا، انالأحداثالتي رأيتها،

بأية طريقة سجلت، تكفي لأن تكون شهادة ادانة بالموت على هؤلاء القتلة؟ يجب ابعاد كل الكلمات المبتذلة والاتهامات، ولأكتفي بقول ما رأته عيناي. لو تم هذا اكون قد اديت جزءاً من واجبي، واستناداً لهذا افكر ان اسافر الى جنيف لكي أقدم لوحة للصليب الأحمر. أن أسرد على مسامع المسؤولين الأمور التي رأيتها بنفسي، وأطلب اليهم بعد ذلك، ان يرسلوا وفداً للتحقيق في الوقائع، سأذكر لهم جميع الأمور التي مرت عليَّ، والأمور التي حدثني عنها جميع الذين التقيت بهم أو رأيتهم، كما سأذكر لهم أسماء الجلادين والمحققين، وبعد ذلك ليذهبوا ويروا!

لا يهمني ما سمعته قبل أيام من الطلبة، كانوا ينظرون الي بارتياب، وقد انفضوا من حولي بسرعة. عجبت في البداية، لكن لم يلبث ان اتضح لي الأمر. فالأشياء السيئة تنتقل بسرعة، اسرع مما يتصور الانسان! لما ذكرت لهم اسمي، اجفلوا، نظر بعضهم الى بعض بتساؤل، ثم سألني احدهم بشكل مباشر:

- هل كنت سجيناً ثم أطلقوا سراحك بعد ان نشرت في الصحف. . .

ولم يستطع ان يقول تلك الكلمة. . فهمت ما يريده قبل ان يكمل عبارته، شعرت ان الدنيا صغيرة، اصغر من تلك الغرفة التي كنا فيها اربعة عشر رجلاً. احنيت رأسي الى الأرض والافكار تتراكض كأنها الخيول الجامحة. هل أقول لهم عن مرضي؟ عن سقوطي؟ هل أقول لهم اني أريد ان اكتب عن التعذيب وافضح الجلادين؟.

كان يجب ان اقول شيئاً. قلت بكلمات متعثرة غير مفهومة:

- اطلقوا سراحي لأني مريض، وأخذوا الاعتراف بالقوة!

كذبت، كان الكذب الجسر الاخير لنجاة بائسة. لم يستعملوا معي القوة خلال الفترة الاخيرة، كانت الابتسامات تملأ وجوههم وهم يرونني أوقع. اية قوة استعملوا؟

صمتوا. لم يعلقوا بكلمة واحدة. كان بودي لو يسألني واحد منهم. لو سألني أحد لشعرت بالثقة، لقلت لهم كل ما يدور في رأسي، لكن صمتهم اللعين جعلني اشعر بالأهانة، لم يكتفوا بالصمت، انسحبوا واحداً وراء آخر. ظل منهم اثنان، كانا يجلسان بعيداً عني، وقد رأيتهما يتغامزان بطريقة شعرت معها بالأهانة اكثر!

كنت امتلىء رغبة لأن اتحدث مع انسان، اي إنسان. لو تكلمت تلك الساعة

لقلت كل شيء، لكن احداً لم يسألني، ووجدت الرجلين بعيدين وكأن قارات من الصقيع تفصل بيننا. وحتى لو تحدثت، هل يسمعان؟ هل يفهمان لماذا خرجت؟

سبقتني الافكار السوداء، كانت تركب باخرة اسرع من أشيلوس، وانتظرتني في عيون الطلبة وفي صمتهم!

عندما تركت النادي، لم يقولا كلمة واحدة، لم ينظروا اليَّ. شعرت ان عذاب السنين الخمس، الجلد والسجن المنفرد، وآلاف الشتائم التي انهالت عليَّ، لا تعادل نظرة صغيرة تطلق في الهواء للحظة واحدة، ثم تتلاشى!

سقوط الانسان مثل سقوط ابنية، تهتز في الظلمة، ترتجف، ثم تهوي وتسقط، ويرافق سقوطها ذلك الضجيج الأخاذ، ويعقبه الغبار والموت واللعنة.

كنت في ظلمة السجن أتداعى، افكر بالكتابة والعلاج، ابعدت الفكرة مرة، ابعدتها الف مرة، لكن نظرات انيسة، كلماتها، الافكار الحزينة التي عبرت رأسي وأنا أرى كل ما حولي ينهار.. لم يبق في نظري شيء مقدس.. ارتجفت وأنا أوافق، بيني وبين نفسي أول الأمر، ثم بيني وبينهم، حتى اذا وقعت على تلك الورقة الصفراء شعرت ان كل شيء فيَّ ينهار ويسقط.. وسقطت، ورافقت ضجة السقوط موجات الغبار التي حملتها أفواههم الى كل مكان، تبشر الناس بنهاية رجب اسماعيل البائسة!

هل أستطيع أن ألتقي بأحد من الطلبة؟ أن استعين بهم من أجل المستشفى والعلاج؟ لا لا أريد، فكلمة واحدة تكفي لقتلي، سأذهب بعد غد بنفسي، وسأحتمل وحدي! تراجعت الى الوراء فكرة الكتابة كما كنت أتخيلها. اما فكرة السفر الى جنيف فتبدو لي الآن اكثر أهمية، وحالما انتهي من العلاج وأعود من السفر أقرر ما يجب أن أفعله!

أسبوعان من المراجعة والفحص في اسوأ الأوقات، اذ ما كدت أبدأ حتى بدأت الاحتفالات والعطل. السخرية تتراكم وتطوقني من كل ناحية، اشعر اني منبوذ الى الحد الاقصى، وإني أعاقب على تلك الخطيئة التي بدأت ذات يوم، ولن تنتهي. إن ما أتلقاه الآن استحقه، استحقه تماماً.

قال لي الممرض المكلف بأخذ عينات الدم:

ـ لقد جئتني في وقت غير مناسب، ألا تعرف ان اليوم هو السبت، وأنك ستنتظر حتى صباح الثلاثاء لكي تحصل على النتيجة؟

هززت رأسي دلالة المعرفة والموافقة، وشتمت في داخلي! وأخذ عينات الدم بشكل عجول وقال:

ـ الآن انتهى واجبي!

مرسيليا مثل الدنيا كلها تستعد لاحتفالات رأس السنة. الناس يتراكضون، المحلات تمتلىء بالبشر والأضواء، والثلج يتساقط ليدفن كل شيء: الماضي والأحزان والأفكار البائسة، وأنا وحدي في مرسيليا الكبيرة لا أشعر بذرة انسجام مع كل ما حولي. خطوات الناس الكبيرة، هرب من الوباء الذي امثله بخطواتي الصغيرة البطيئة. الأضواء الساطعة تستلقي على وجهي لتفضح ضعفي وخيانتي. وابتسامات العشاق وهم يتعانقون تحت أعمدة النور سخرية كاوية تمزق آخر الافكار البائسة التي تجول في رأسي!

مرت الأيام بوقعها البطيء الموجع، وبدت لي أطول أيام عمري، حتى كان يوم ٧ كانون الثاني. استقبلني ثلاثة أطباء. امرأة ورجلان. عروني من ثيابي تماماً، كنت وأنا أنزع ثيابي اتذكر نوري. كانت الغرفة دافئة، بلونها الأزرق الهادىء، والملاءة الموضوعة على طاولة الفحص نظيفة. شعرت اني لا أستحق ذلك. يجب ان أتعرى في مزبلة. نظرت الى الطبيبة وأنا أخلع قميصي. كانت عيناها محايدتين، ولا تشبه عيون الذين كانوا ينتظرون، ليبدأوا.. سألوني عن ماضيّ.. سألوني بنفس العبارات تقريباً، ماذا أقول لهم؟ ما أشد سخرية الكلمات. «حدثنا عن ماضيك». لما رأوا الأرتباك في وجهي ولكي لا أضيع قالوا: «عندما كنت طفلاً، هل أصبت بأمراض، أية امراض، هل أنت متزوج؟»

وسألوني عن أمي وأبي. كنت اجيب بارتباك، قلت لهم ان مرض القلب قتل امي، وأبي مات بسل العظام.. وتركت لهم حتى اللحظة الاخيرة المفاجأة التي اردت ان تكون ورقتي الأخيرة.

كان الصمت يخيم على الغرفة الزرقاء الدافئة، وضربات مطرقة صغيرة تتساقط على ركبتي.. انتفضت كرد فعل مبالغ فيه للضربات، جمعت نفسي فجأة وقلت:

ـ الشيء المهم الذي لم أقله بعد، والذي قد يفسر مرضي، هو اني كنت سجيناً. سجنت خمس سنين متواصلة.. ليس هذا كل شيء، ففي البداية تعرضت لأنواع عديدة من التعذيب!

كانت الكلمات باردة، أو هكذا بدت لي وأنا أنظر في وجوههم، حتى اذا نظروا الى بعضهم بدهشة فيها اعجاب . . .

ـ كان يجب ان تقول لنا منذ البداية. . .

ضحكت وبدت في عينيها لأول مرة نظرة أسف حزين.

قال لي الطبيب المسن:

ـ انهض والبس ثيابك . .

تهامسوا، تحدثوا الى بعضهم وأنا في الزاوية أواصل ارتداء ثيابي. أي شيء ظنوه؟ أية كلمات قالوا؟ لأول مرة منذ سنوات اشعر بالفخر. بدا لي السجن شرفاً، بدا لي كبيراً لدرجة ان نظرات الأطباء وهمساتهم كانت تقديراً مباشراً.

لما جلست على كرسي مقابل الطاولة التي يجلس وراءها الطبيب المسن، استأذنت في ان أدخن، هز الطبيب رأسه بود، وربما فعل الآخرون ذلك، ورد عليّ بابتسامة وكلمة صغيرة:

ـ تفضل.

كنت اذن سجيناً. هذا وحده يفسر مرضي. كانوا حائرين أول الأمر، لكن ما لبثت حيرتهم ان سقطت، بدأت تتلاشى مع دخان سيجارتي المتطاير. اخذوا ينظرون اليّ وكأني دمية من عصور سحيقة. . هل يعرف هؤلاء الناس معنى ان يكون الانسان سجيناً؟ ليس سجيناً فقط، وإنما سجين في تلك السراديب المظلمة الباردة المليئة بالحشرات، وفي فترات الراحة، يتلقى الصفعات ويجلد مثلما تجلد الثيران النابية؟ كنت أريد أن أشعر بميزتي، وأبدو متفوقاً، لكن وأنا أستعيد الكلمات التي أردت أن أقولها، شعرت بالألم، تذكرت الورقة الصفراء المربعة التي امتلأت بالعرق من يدي المرتجفة التي تخط عليها آخر الكلمات. .

سألني الطبيب المسن:

ـ هل تشرح لنا ظروف سجنك؟ أقصد كيف كان السجن، ضمن أية شروط تغذية، وأية شروط صحية؟

الشروط الصحية والتغذية! سخرية أم تساؤل؟

قالوا في النهاية:

ـ الوضع صعب ودقيق، اذا اتبعت نظاماً صارماً يمكن ان تعيش دون متاعب اما اذا لم تتقيد. . وصمتوا.

في الصمت النظيف المخيم على الجدران والملاءة والزجاج، جاءني صوت الطبيب الشاب:

ـ هل استطيع ان اسأل لماذا كنت سجيناً؟

رأيت وجهه يكتسب حمرة زاهية، تجعله أقرب الى وجوه الفتيات الصغيرات. هززت رأسي بحيرة. لماذا أقول له؟ لو قلت: كنت سجيناً سياسياً، هل يفهم معنى هذه الكلمات؟ لو قلت له اني محكوم احدى عشرة سنة قضيت منها خمساً، لا لسبب، سوى انني أردت، بالفكرة، بالكلمة، ان اجعل حياة الناس اكثر سعادة، لو قلت له هل يصدق؟ سوف أقول:

صدقني ايها الانسان الذي تعيش على الضفة الأخرى من المتوسط، اني لم احمل بندقية، ولم أقتل احداً، ومع ذلك دق رأسي بالجدران مئات المرات، كما تدق المسامير في اخشاب السنديان. . ودق الرأس بالجدران عبارة عن بداية سمفونية العذاب: بعد ذلك ضربوني بالسياط، كنت عارياً لما ضربوني، كانوا يتعبون من الضرب، كانوا يتناوبون، وكانوا أقوياء، فاذا انتهى الضرب بدأت النيران تشتعل في جسدي. كانوا يطفئون السجائر في وجهي، في صدري. . وفي أماكن اخرى. . ليس هذا كل شيء، لقد امسكوا بخصيتي وجروهما شعرت تلك اللحظة اني أموت، ثم علقت سبعة أيام في السقف. كانت يداي مربوطتين بحبل، والحبل يجرني الى السقف، فأقف على اطراف اصابعي، عندما انتهت الايام السبعة، كانت ساقاي بحجم سيقان الفيل: متورمتان زرقاوان، ثقيلتان. . لا.

لا. . لن احدثك اكثر من ذلك، ان مجرد تذكر تلك الايام يجعل الانسان مشوهاً،حتى ان براعة الطب وعبقريته لا يمكن ان تفعل شيئاً. . كل ما قلته لك حتى الآن، الفصل الأول، اما الفصول الأخرى، فاعذرني اذا لم أستطع ان أقول لك عنها كلمة واحدة. تحملت التعذيب كله. . وماذا تتصور هل صرخت؟ هل اعترفت؟ لا. كنت صامداً، كنت أقوى من الجمل في صبره واحتماله. . لكن في لحظة خرساء سقطت. الانسان الذي تراه امامك الآن ليس قوياً بمقدار ما توحي الكلمات التي تموج في رأسه. . كان قوياً في فترة ما، ثم سقط، انهار دفعة واحدة.

كنت ابتسم ابتسامة شاحبة عندما وقعت شهادة وفاتي.

قلت وأنا أسحب نظري من الطبيب الشاب، وانظر الى الطبيب المسن:

ـ كنت سجيناً سياسياً.

ولم أضف اية كلمة. نظر الطبيب المسن الى الوجوه بأسى، وكأن ذكريات حزينة عبرت رأسه، وقال يخاطب نفسه:

ـ هذا واحد من شعب سجين.

والتفت اليَّ وأضاف: لماذا لا يقرأ الجلادون والحكام التاريخ؟ لو قرأوا جزءاً من الأشياء التي يجب أن يقرأوها، لوفروا على أنفسهم وعلى الآخرين الشيء الكثير. ولكن يبدو ان كل شعب يجب ان يدفع ثمن حريته، والحرية، أغلب الاحيان، غالية الثمن!

وساد الصمت. كان قاسياً هذه المرة. قالت المرأة، وكان صوتها مثل شهاب ملون:

ـ لو حدثته عن ايام المقاومة يا دكتور فالي.

ـ ليس بحاجة الى الحديث، ربما يعرف احسن مني، واذا كانت المقاومة والاحتلال بالنسبة لنا قد اصبحتا ذكرى وتاريخاً، فإن هؤلاء يعيشون اليوم هذا التاريخ.

ضرب الدكتور فالي الطاولة بالمطرقة، وقام.

كان يتخطى بالغرفة، وقد اكتسب وجهه شكلاً عصبياً، اما كلماته فظلت هادئة وهو يقول لي:

ـ حالتك مقلقة، يجب ان تعرف هذا بوضوح، لا أريد ان اجعلك تخاف لكن التفاؤل يؤدي الى الإهمال، ولا أريدك ان تكون مهملاً، توقف قليلاً، ثم تابع بصوت منخفض:

ـ اذا التزمت بالنظام الذي اقترحه عليك يمكن ان تعيش دون متاعب، اما اذا لم تلتزم، فأسمح لي أن أقول، ان اية انتكاسة قد تعرضك للخطر. النظام الذي اقترحه ليس صعباً، الابتعاد عن الفوضى في الأكل والنوم والعلاقات الجنسية، وابتسم، وهو يتابع:

- ويجب ان لا تنفعل، ان لا تغضب، ان لا تحزن، كما ان الفرح الشديد يؤثر عليك.. وتغيرت نبرة صوته وهو يقول: اعرف ان هذه الأمور بالنسبة لك صعبة، ولكن يجب ان تحاول.

وجلس وراء الطاولة نظر اليَّ ملياً، ثم قال:

- سأكتب لك الآن مجموعة أدوية، وأرجو أن تحرص على استعمالها بدقة في مواعيدها، وفي المراجعة الثانية، بعد اسبوع، سنرى.

لو عرفوا اني سقطت لما ودعوني بهذه الحرارة. وقفوا ثلاثتهم أمام الباب، بعد ان صافحوني، كانت ابتساماتهم تملأ وجوههم، خاصة الدكتور فالي، وعندما التفت في نهاية الممر الطويل، كان الدكتور فالي ينتظر التفاتتي الاخيرة، ليرفع يده ويلوح بها. الدكتور فالي صمد حتى النهاية. وجهه القاسي وعيناه الهادئتان يقولان ذلك، الدكتور فالي والآخرون صمدوا.. وانتصروا. لو عرف لحظة واحدة اني وقعت تلك الورقة اللعينة لرفض استقبالي، أو مصافحتي، أتوقعه يقول: «كيف تستطيع مصافحة اليد التي لوثت دماءك؟ كيف تستطيع ان تبتسم للوجه الذي كان يتلذذ وهو يسحب خصيتيك؟»

لن اكتب لأنيسة ان حالتي خطرة، لكي لا تقلق، اما النظام الذي اقترحه الدكتور فالي، فسوف احرص على أن أتقيد به.. لكن اذا كنت قادراً هنا فكيف الحال عندما أعود؟ «لا تنفعل، لا تغضب، لا تحزن».. حتى الفرح الشديد حرمه عليَّ الدكتور فالي. كان يسخر عندما نطق الكلمة الاخيرة، هل يتصور ان على الشاطىء الشرقي للمتوسط انساناً واحداً يمكن ان يموت من الفرح؟ الفرح بالنسبة للشعب السجين طائر مهاجر.. حتى الجلادون لا أظن انهم قادرون على الفرح.. انهم ينامون تحت أقواس من السياط، تحت أشباح الصرخات، يأكلهم الخوف ان تدق ابواب بيوتهم أواخر الليل وينتزعوا من فراشهم، لكي يدفعوا الدين الذي في رقابهم!

تأكد اني لن أفرح يا دكتور فالي.. اما الفرح الشديد، فلن يسبب لي الوفاة ابداً. والأسباب الاخرى التي ذكرتها سوف أدرسها واحداً بعد آخر، لعلي اجد لها علاجاً من نوع ما.

الكتابة، هل تحتاج الى انفعالات؟ الى غضب؟ ليس ضرورياً ان اسأل

الدكتور فالي لأن المحاولات التي قمت بها حتى الآن أدت الى نتيجة واحدة: سيل من الانفعالات الحاقدة والغاضبة. . ولا صفحة واحدة من الكتابة التي أطمح اليها!

والسفر الى جنيف، هل يسبب لي تعباً؟ انفعالاً؟ واذا قررت السفر، متى يجب ان اسافر؟ كان عليَّ سؤال الدكتور فالي، ان ابحث معه هذه الفكرة بالذات، لعله يكون بالنسبة لي مرشداً اكثر من طبيب، هؤلاء المسنون الذين خبروا الحياة وعرفوا مصاعبها يمكن أن يقدموا آراء ثمينة!

سوف أسرح مرة اخرى في مرسيليا. سأذرعها في اتجاهاتها الأربعة. لن أترك مقهى، ولن أترك ساحة. سأجلس في المقاهي لأدرس تقاطيع وجوه البشر، تصرفاتهم ضحكاتهم، وحتى همومهم أريد أن أراها، لعلي أتعلم شيئاً. وباريس. . ألا يجب أن أزور باريس قبل أن أعود الى الوطن؟.

* * *

«المدن الساحلية، مدن الحرية والعنف»

لا أدري من قال هذه الكلمات، لكنها مكتوبة منذ وقت طويل في ذاكرتي. تصورت ان مرسيليا وحدها لها هذا الطابع، لكن في باريس رأيت اموراً أعجب. الأحزاب لها مراكز مكتوبة عليها الاسماء بوضوح. يدخلها الناس دون خوف. يدخلون دون ان ينظروا وراءهم، ويتكلمون في الشارع، وبصوت عالٍ. . اما الجرائد فإنها تنشر كل شيء. . الأفكار وحوادث القتل والطرق الحديثة في العلاقات الجنسية. . والناس يقرأون. . اما الكتب فلا بد ان الانسان يعجز عن معرفة ما يصدر منها ، لكثرتها!

على ضفاف السين آلاف الكتب، ملايين الكتب. كانت عيوني تمر على العناوين، وما تكاد تستقر على عنوان ، حتى ارتجف، اتلفت، لا أريد أن يراني أحد.

«وجدنا لدى تفتيش بيت الموقوف، الأدوات الجرمية المرفقة. . .» ويذكرون اسماء الكتب. آه يا أهل باريس، لو جئتم بكتبكم الى شاطىء المتوسط الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون. سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شيء، واحذروا اكثر ان تفكروا بالأحزاب، لأن أية كلمة تجد من يلتقطها ويجعلها مؤامرة وتخريباً، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون!

ولكن باريس التي أراها، هل ولدت هكذا؟.

باريس المشانق والمقاصل والحصاد، باريس المقاومة، باريس الشهداء، هي التي صنعت الحرية. يجب ان لا أتحدث، لم يعد لي بعد أن وقعت تلك الورقة المشؤومة ان اتكلم عن الحرية، عن باريس، عن أي شيء. لو كنت رجلاً لظللت هناك وصمدت حتى النهاية. الكلمات المهترئة، التي ألوكها الآن، فقدت جدارتها، فقدت عنفوانها، تحولت الى لهاث يشبه لهاث المرأة الشبقة التي التقطتني من الشارع. كنت أخاف وأنا أسير الى جانبها، وظللت خائفاً حتى لما رأيتها عارية ومستلقية على الفراش.

قالت لي:

ـ ألا تراني عارية، ماذا تنتظر؟

وأشعلت سيجارة ثانية. كنت أريد أن أفعل شيئاً، لكن الشعور بالعجز جعل الفكرة ترتد الى داخلي مثل موجة النار. كنت أخاف من الفشل، من السخرية، أردت أن أقول لها اني مريض، أو متعب، لكن الكلمة الوحيدة التي سمعت نفسي أقولها:

ـ أنا لست رجلاً!

وصمت. كنت أريد في تلك اللحظة ان انهشها بأسناني، ان أركلها، ان اقبلها، اطفأت السيجارة بعصبية ونهضت لأنصرف... قالت بلهجة شعرت معها أنها قتلتني:

ـ قبل أن تذهب، اقترب مني لأتأكد! دعني ارى بعيني ويدي، لا أصدق.

• لو كانت معي الآن صديقة من نوع ما لسرنا في باريس مثل الذئاب، نخيف كل من يرانا بقوتنا، بالتصاقنا المذهل.

باريس لم تخلق لي.. لا أستحق شيئاً في باريس، حتى الماء الذي أشربه يبدو لي أكثر مما استحق. بعد غد أعود الى مرسيليا لأرى الدكتور فالي، يجب ان ابقى معه فترة طويلة لأسأله عما يجب ان افعل في فرنسا من أجل الناس الذين ينامون الآن في السجون.

احببت فالي كثيراً ووثقت به.

وجنيف؟ هل تستقبلني وتستمع اليَّ؟ واذا استمعت ماذا يمكنها ان تفعل؟ لا. يجب ان لا أكون متشائمًا، فالعالم هنا يفهم ويستجيب، وربما استطعت الوصول الى نتائج لا أتوقعها.

سيضج العالم كله عندما يستمع الى قصص العذاب التي لا تتوقف، في الليل والنهار، على الشاطىء الآخر. كيف يمكن لانسان أن ينام وأصوات الضحايا لا تكف لحظة واحدة عن النواح والانين؟ لا يوجد هذا النوع. لا احد هنا يستطيع ان ينام، أن يأكل، ان يضحك، والناس هناك يبكون بصمت ويموتون، سوف ترتفع ملايين الأصوات، في نشيد واحد مخيف، تطلب انهاء «الحفلات» المستمرة.

نوري لا يعرف للتعذيب غير هذا الاسم. كان يقول وهو يطعم الطيور، ينظر اليها ويتحدث معي:

ـ اعترف.. اقول لك اعترف يا ابن القحبة، لقد اتعبتني حفلة الأمس.. اذا لم تتكلم ، فسوف انادي عبد وتبدأ الحفلة، ماذا تقول؟

سأقول لهم في جنيف ان السخرية بلغت بالجلادين درجة انهم يطلقون على التعذيب اسم الحفلات.. وما دام الأمر هكذا فيجب على الصليب الأحمر على المؤسسات الانسانية الاخرى، ان تفعل شيئاً من اجل انهاء الازدراء والقهر والموت!

* * *

كان الدكتور فالي وحده هذه المرة. لما دخلت اغلق الباب بالمفتاح، وقال وهو يبتسم:

ـ شكراً لله انك جئت في الوقت المحدد، نستطيع الآن ان نتحدث، أريد أن أسمع كل شيء عن الاعتقال والتعذيب، وأرجو أن لا يكون في سؤالي ما يسيء أو يجرح.

أتذكر أني بدأت أتحدث. قلت للدكتور فالي وأنا أقدم له سيجارة ويأخذها، رغم انه لا يدخن، لا أعرف يا دكتور عن أي شيء أتحدث، كيف أبدأ وكيف انتهي، لقد كانت السنين الخمس الماضية كلها، بأيامها، بساعاتها، بدقائقها، وحتى بثوانيها، عذاباً لا يحتمله انسان.

بهذه الطريقة بدأت أتحدث، وفجأة تجمعت في رأسي آلاف الصور.. فانفجرت:

دكتور. . كانوا يصرخون في الليل:

«اقتلوه، لا نريد لهذا الكلب ان يزعجنا اكثر. . اقتلوه. . امسك يده يا عبد اعدها الى الخلف، وأنت يا حاتم، ضع العصا في. .[1]، لا. . لا تخف، ادخلها، اعترف. . يا ابن القحبة يجبْ ان اقتلك! من انت حتى لا تجيب. سوف أعيدك لـ . . . امك، اعترف، هات القطط، هات الكلب الأسود، اخلع ثيابك، اتعترف؟ قل اين هادي؟ اين نجم؟ ألا تقول يا ابن الكلب!»

تجمعت الصور في رأسي فجأة، ووجدت نفسي أبكي ، لم ابكِ في حياتي مثلما بكيت هذه المرة، وظل صوت بكائي يصلني مثل هدير مكتوم.

لماذا بكيت هكذا؟ والدكتور فالي، أي انسان كان بالنسبة لي؟ هل يستطيع ان يساعدني؟ ان يفعل شيئاً من اجل ان يخلصني من العذاب الذي احسه في داخلي مثل سيول مجنونة؟ كان يجب ان افعل شيئاً، ان احطم الزجاج، ان احطم رأسي، أن أرتمي على الأرض. . لكن البكاء كان الطريق الوحيد الذي رأيته مفتوحاً أمامي.

تركني الدكتور فالي ابكي فترة طويلة. لم يستنكر، لم يمد يده اليَّ، حتى اذ أحسست بالراحة، قمت ووجهي الى الأرض، وقفت في زاوية، اخرجت منديلاً ومسحت عيني ووجهي ثم التقطت سيجارة، اولعتها واستدرت نحو الدكتور فالي.

حاول أن يبعد نظراته عني. هل كان يبكي في تلك اللحظة؟ هل كان يخشى أن يضعف وينهار؟ رأيت شيئاً في عينيه، لكن وأنا أسمع كلماته فيما بعد، تبين لي ان الرجل الذي أراه لا يشبهني أبداً. قالي لي وهو يتطلع عبر النافذة، لكي لا تلتقي عيوننا:

- اخشى عليك يا مسيو رجب.

• وصمت كأنه لا يريد ان يتابع، وخيم علينا جو من الخوف. كنا نسمع خلاله خطوات غامضة في الدهليز. . بدل الدكتور فالي صوته تماماً وقال:

- اقدر الصعوبات التي واجهتها، لكن اعتبرك رجلاً. . والرجال لا يسقطون. يجب ان تعرف اني الوحيد الذي بقيت من عائلتي. قتلوا اثنين من اخوتي، قتلوا امي، ثم قتلوا زوجتي. كنت أسيراً، وفررت. منذ اللحظة التي وصلت البندقية فيها ليدي، وحتى نهاية الحرب، لم أتركها.

---

(١) كلمة قبيحة

أريدك ان تكون حاقداً وأنت تحارب. الحقد هو احسن المعلمين. يجب ان تحول احزانك الى احقاد، وبهذه الطريقة وحدها يمكن ان تنتصر، اما اذا استسلمت للحزن، فسوف تهزم وتنتهي، سوف تهزم كانسان، وسوف تنتهي كقضية، والذي اعرفه ان بلادكم بحاجة اليكم، ما زلتم في أول الطريق.. كل ما أرجوه منك الآن المحافظة على صحتك، لكي تستطيع مواصلة الحرب... لا اعرف من تحارب، ومن أجل ماذا، لكن يبدو لي ان أمامكم أشياء كثيرة يجب أن تفعلوها.

كان الدكتور فالي وهو يتحدث يتموج صوته، يرتفع وينخفض، وكأن التعب أو المرض يثقل عليه، أخرج من درج الطاولة زجاجة دواء، التقط منها حبتين، اعطاني واحدة، واخذ لنفسه اخرى.

قال وهو يناولني كوب الماء:

- هذا النوع من الحبوب يمتص الأحزان.. لكن لن اعطيك منه اكثر من هذه الحبة، لكي لا تتعود عليه.. يجب ان تتعود على ارادتك، كما كنا في زمن الحرب.

بعد ان شربت حبة الدواء، أخذ الكوب وشرب، وسألني وعيناه تنصبان عليّ من فوق:

- ماذا تقول؟.

هززت رأسي بالموافقة. ضرب كتفي بصداقة وقال:

- الآن.. أستطيع ان افحصك لأرى مدى تأثير العلاج.

قمت باذعان الى طاولة الفحص... امتدت يده الى صدري، الى ظهري، كانت يده باردة وكانت أنفاسه وهي تلفح ظهري تلهث، شد شعري وهو يقول:

- هل ستبقى هنا فترة طويلة؟

- ربما.. لا أعرف بالضبط، قد أبقى شهراً أو شهرين!

- في الاسبوع الاخير، يجب أن أراك مرة اخرى، سوف نجري فحوصاً جديدة لنرى مدى التقدم!

* * *

في حفلة التزحلق على الجليد التي تحدثت مرسيليا عنها كثيراً، وانتظرتها بفارغ

الصبر، رأيت عبد الغفور لأول مرة. لا أدري كيف ساقتني قدماي في ذلك المساء الى مسرح الطاحونة الحمراء، فجأة وجدت نفسي وسط كتلة بشرية كبيرة تنتظر الساعة لكي تصبح السادسة. وقفت بدافع الفضول، لم أفكر بفرقة الجليد ولم اكن اتصور اني خلال دقائق سأكون جالساً الى جانب فتاة شقراء.. حصل كل شيء بالصدفة. رآني، سألني بلهجة باريسية وهو يضحك، لأنه أدرك منذ اللحظة الأولى اننا كلانا من الشاطىء الشرقي للمتوسط، ان كنت احتاج الى تذكرة، سألني وقال يحاول ان يوضح ويعتذر:

ـ كنت أنتظر صديقاً من باريس، لكنه لم يأت، والآن عندي بطاقة زائدة، هل تحتاجها؟

ودون تفكير وجدت يدي تمتد الى جيبي وأدفع له ثمنها! حصل الأمر فجأة، وما كدت ادخل حتى رأيته، خجلت كثيراً وأنا أنزلق مثل سمكة الى ذلك الكرسي الفارغ! كان يجلس الى جانبي، ناحية اليمين، وفتاة شقراء طويلة ناحية الشمال. وخلال الدقائق الباقية على بداية الحفلة، سألني ان كنت اجنبياً، فلما هززت رأسي بالايجاب، قال:

ـ اترك لي فرصة لأن احزر من أي مكان أنت؟!

شعرت انه يريد كسر الجليد الذي بيننا بسرعة، اجفلت، حتى ان الندم شبك ذراعيه حولي، فظننت انه مكلف بمراقبتي، وإلا كيف التقطني من الشارع وأوحى إليَّ بشراء البطاقة؟ والآن كيف يتعرف عليّ بهذه الطريقة التي تعطيه الحق في ان يتحدث ويمزح؟

قلت والظنون تغزو رأسي:

ـ أنا من هناك، لا حاجة لأن تحزر، ويبدو اننا نعرف بعضنا قبل الآن؟ اين التقينا؟

إلتفت اليَّ تماماً، نظر في وجهي وشفته السفلى تمتد، كأنه لا يصدق. قال:

ـ منذ رأيتك، قدرت انك من هناك، لكن لم نلتق من قبل!

ـ هل انت متأكد؟.

ـ متأكد جداً. وصمت ثم سأل: هل تظن اننا التقينا؟

ـ يخيل لي ذلك!

ـ أين؟

ـ ربما على ظهر الباخرة. . وكدت أقول له في السجن.

كانت هذه البداية، ولا أعرف لماذا اصبحنا أصدقاء.

كان عبد الغفور يدرس الفنون الجميلة منذ ثلاث سنوات في مرسيليا، قضى هذه الفترة دون أن يسافر، كما قال لي، إلا مرة واحدة إلى باريس، وقال انه يكره السياسة ولا يحب أن يتحدث فيها، وليست له صلة بالطلبة، وإنما يقضي وقته كله في المعهد، ثم بالمتاحف، وما تبقى يقضيه مع النساء!

وبطريقة لا زلت اعتبرها غامضة حتى الآن، أصبحنا أصدقاء، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. تحدثنا عن مرسيليا وفرنسا، تحدثنا عن الفنون، وتأكدت في النهاية انه لا يمكن ان تكون له علاقة بأولئك الذين قالوا لي قبل السفر:

«اذهب الى اي مكان تشاء، لدينا من الوسائل ما يجعلنا نعرف ماذا تفعل. . احذر، لا تظن اننا بعيدون عنك».

لو كان عبد الغفور انساناً، آخر، أذناً اخرى، لأنقذني، لكنه صمّ أذنيه تماماً، وقال لي مرة، ونحن نتطلع الى لوحة غارنيكا:

ـ أتعرف لو أن رساماً عندنا رسم هذه اللوحة لضربوه بالحجارة! اتعرف لماذا؟.

ـ لا!. . .

ـ لأن الحضارة سلَّم ليس له نهاية، ويجب على الشعوب ان تبدأ من اول السلَّم، وشعبنا لم يكتشف بعد السلَّم ولم يسمع بشيء اسمه حضارة، لذلك فإن كل محاولة لاقناعه بغير ذلك خطأ. . .

ـ هل تقصد ان طريقة الرسم غريبة، أم الموضوع؟

ـ كلاهما: الطريقة والموضوع.

ـ الطريقة ربما، أما الموضوع، فإن مهمة الفنان، استلهام قضايا شعبه، المآسي، الأحزان، الطموحات، وهذه اللوحة مأساة كبيرة، وقد استطاع بيكاسو ان يقود ثورة من خلال هذه اللوحة.

ـ كان بيكاسو يقود شعباً استوعب الحضارة. . أما هناك فإنهم لم يستوعبوا شيئاً.

ـ عليك اذن ان تساهم!

ـ عليَّ ان العن القدر الذي جعلني أولد على ذلك الشاطىء.

ـ لماذا؟.

ـ لأننا نزحف الى الخلف، نرفض الحضارة ونحاربها، وأمامنا وقت طويل لندرك هذه الحقيقة!

ـ تخطىء. . .

ـ لكي لا أدفع ثمناً غالياً، افضل الخطأ!

ـ تقصد انك تخاف من السجن؟ من المسؤولية؟.

ـ هذا ما أقصده بالضبط!

منذ ذلك اليوم لم أتحدث معه في السياسة، لم أشر له أبداً اني كنت سجيناً، وان السجن مزقني ودفعني الى مرسيليا جثة تنتظر ساعة النهاية. شعرت أني لو قلت له كلمة، لظهرت كاذباً، وصمت.

سافر عبد الغفور بعد فترة، وحمل معه رسالة لحامد، وضمنها رسالتان لأنيسة وعادل. وأوصيت عبد الغفور ان يمر عليهم كل ثلاثة أيام، وأن يذكرهم بالأوراق، لم يسألني عن هذه الأوراق، ولم أقل له. اكّد لي انه سيحضرها معه، وسوف يعرف كيف يخفيها.

سأهيىء اثناء غيابه المعلومات والمذكرات التي يجب ان اقدمها للصليب الأحمر في جنيف.

* * *

تلقيت رسالة من انيسة لم ارتح لها. قرأتها مرتين، لم تقل شيئاً خطيراً، لكن احس ان الخطورة في الأشياء التي لم تقلها.

لماذا تريدني ان أعود بسرعة؟ الشوق؟ شوقها وشوق الأولاد؟ لو كان الشوق

هو الذي يدفعها لأن تلح عليَّ بالعودة، لكتبت ذلك بشكل آخر، لقالت كلمات اخرى، يبدو انها كتبت الرسالة اكثر من مرة، لاحظت ذلك لأنها قدمت سطراً على آخر، ومن التاريخ. ربما تعرضوا الى مصاعب بسببي، سأكتب خلال ايام، واذا جاء عبد الغفور سيوضح لي كل شيء!

قبل هذه الرسالة فكرت بمجرد عودة عبد الغفور ان ابدأ حياة جديدة. حدثته عن ذلك. قال وهو يضحك: اذا قررت فالأمر سهل، سأطلب من صديقتي ايفلين حالما تعود من باريس، ان تبحث الأمر مع أبيها، وأعتقد ان اباها سيرحب بك في معمل الصابون الذي يملكه!

الرسالة اول اشارة حمراء تبرق في حياتي الجديدة. لا أريد أن أتعجل، لكن يبدو انني سأضطر لاعادة التفكير في المشاريع التي تملأ رأسي.

* * *

رسالة حامد واثقة، لها رنين متألق، يقول لي: اعتن بصحتك، اما موضوع العودة، فقرره بالشكل الذي يروق لك.

لماذا يكتب حامد بهذه الثقة؟ لهجته تحمل معنى التحدي، ولأول مرة تكون عبارته قصيرة حاسمة، في المرات السابقة كان يكتب بطريقة اخرى.

والنقود لماذا حولها بهذه الطريقة؟ هل منعوه من تحويلها فاضطر ان يرسلها بهذا الشكل؟

هل الطريقة التي اتبعها اسهل الطرق وأقصرها؟

انهم يتعرضون لمصاعب، لو ان الحياة هناك تسير بشكل طبيعي، لما لجأ حامد لأسلوب جديد، سواء بالرسالة أو بإرسال النقود.

اين أنت يا عبد الغفور؟ يجب ان ترجع بسرعة لكي تقول لي كل شيء!

عليَّ الانتهاء بسرعة من اعداد المذكرات، اذا انتهيت منها سوف اسافر يوم السبت مساء، وصباح الاثنين اكون على باب الصليب الأحمر. يجب أن أقابل المدير العام وأشرح له كل شيء، وبعد ان نقضي فترة طويلة في الحديث والأسئلة أقدم له المذكرات، وسأبقى في جنيف بضعة أيام، ريثما ينتهون من دراسة المذكرات، لنبحث في الوسائل الفعالة التي يجب ان يلجأ اليها. لن تطول اقامة عبد الغفور.

سيكون هنا الأربعاء وأبعد تقدير الجمعة. سأكون في جنيف اثناء عودته، لكن يجب ان اعود بسرعة لكي استقر وأرتب حياتي من جديد، كل شيء متوقف على المعلومات الجديدة، لا أريد ان التقي بأحد من الطلبة، ولا أريد أن أقرأ جرائد الوطن، أن الجرائد لا تولد إلا المرارة والغضب والطبيب أوصاني بالابتعاد عن كل ما يولد الانفعالات، ما زلت استمع الى نصائحه وأطبقها، ويجب ان احاول الاستمرار!

* * *

جاءت طلقة الرحمة. جاءت يحملها اسم مجهول لم أسمع به من قبل ولم أعرف شيئاً عنه. رسالة جادة، قصيرة، وواضحة اشد الوضوح.

«السيد رجب اسماعيل.

أرجو المعذرة لأني اكتب اليك دون معرفة سابقة، ولكن الظروف تضطرني لذلك. لكي لا تظن ان في الأمر سوءاً أو مؤامرة، اشعرك اني صديق لحامد، وأنا الذي حولت اليك النقود في الفترة الاخيرة، حولتها اليك من خارج البلاد، بعد ان تعذر على حامد تحويلها، سيدي، الأمر دون مقدمات، ان حامد رهينة الآن، أوقف خلال الفترة الاخيرة، وطلب منه بعد التوقيف مراجعة مركز الشرطة ثلاث مرات يومياً، لكي يثبت وجوده. وقد حددوا له شهراً، وطلبوا منه خلاله حضورك، قال انه لن يكتب اليك مهما حصل، ويبدو انه حذر اختك، لأنها مرت عليَّ قبل بضعة ايام، وكانت حائرة لا تعرف ماذا تفعل!

اضع أمامك هذه المعلومات، تاركاً لك أن تتصرف، علماً بأن أحداً لم يطلب مني ولم استشر احداً فيما كتبت ، ولكن تقديري الخاص ان وضع حامد يستدعي المراعاة، خاصة وأنت تعرف ان الاطفال دون أبيهم سيواجهون مصاعب حقيقية.

اخشى في حال معرفة حامد بما قمت به ان يلومني على ذلك كثيراً، ولكن تقديري ان وضعك قد سوي، وليست هناك مخاطر حقيقية في حال وجودك هنا، ارجو ان تتخذ قراراً ايجابياً، خاصة وان الفترة التي اعطيت لحامد، ستنتهي في نهاية الشهر الحالي!

مرة اخرى، ارجو المعذرة، وتقبل تحيات صديق لم تره من قبل!

حسني عبد الجليل

قبضوا على حامد اذن! حامد الآن رهينة، وسيبقى رهينة حتى أعود، قالوا لي:

«سننتظرك شهرين، يجب ان تعود بعدهما، ولا نقبل تقارير طبية أو أية معاذير أخرى، نحن نعرف كيف يعطون التقارير الطبية في الخارج».

الآن افكر بالإقامة والعمل، كنت أفكر بجنيف، ذلك النشيد الذي سينشده العالم كله بحنجرة واحدة، ليخيف الطغاة والجلادين، ويوقفهم! والرواية اية رواية يمكن ان اكتب؟ لقد اخطأت مرة، سقطت مرة، والآن تتاح لي الفرصة مرة اخرى لأن أنهض، لأن أصرخ، لن أتركهم حتى يقتلوا حامد. يكفي انهم قتلوا هادي ورضوان، يكفي انهم جلدوا المئات والآلاف.. وأنا لست غريباً عن السجن، ان مت لن أترك ولداً ورائي يبكي، اما اذا قتلوا حامد فسوف يترك أربعة أطفال، يجب ان افعل شيئاً.. لن أتركهم!

بقي لآخر الشهر عشرون يوماً، يمكن ان اسافر خلال هذا الاسبوع، ويمكن ان انتظر اسبوعاً آخر، يمكن ان أنتظر عبد الغفور، حتى اذا عاد، جاءت معه الرسائل والأخبار، وسوف أعرف كيف اتخذ قراراً. سيكون قراري هذه المرة، دفاعاً اخيراً. اعرف اني لن أغفر لنفسي، لن أغفر مهما فعلت، كانت الورقة ترتجف تحت يدي المبللة بالعرق، ولكن وقعت، سقطت... والآن هم ينادونني لكي اسحب توقيعي.

الطهارة، الغفران، آلاف الامنيات البريئة التي راودتني في الليالي المرعبة، تصورت انها ضاعت مني للأبد.. الآن أراها امام عيني مرة اخرى... لا اطمح للطهارة الحقيقية، لا اطمح بالغفران، لكني أريد أن أفعل شيئاً لكي انقذ بقايا الانسان التي احسها تتهدم في داخلي كل لحظة، انهم كرماء لدرجة لم أكن أتصورهم، انهم يتيحون لي حق الدفاع كل لحظة، سأواجههم مرة اخرى، ليفعلوا، أي شيء، لم اعد حريصاً على حياتي التي تبدو لي مليئة بالقذارات والخيانة والسقوط.

سأقول لهم: عدت.. عدت كما أريد، لا كما تريدون،. سأعطيكم جسدي، اما ارادتي فقد تعلمت في رحلة الظلمة كيف أجدها مرة اخرى، خذوا ايها الجلادون، خذوا جسداً لم يبق فيه إلا الارادة، افعلوا كل ما تستطيعون، سيكون صمتي الرد الذي يقطع احشاءكم...

ومنذ الغد، ومن مرسيليا سأبعث الى الصليب الأحمر، سأقول له كل شيء، اعرف ان شيئاً لن يتغير، وأعرف انهم سيضربونني اكثر من قبل، لكني سأعود اليهم.. هاآنذ أعود وقد تعلمت شيئاً واحداً، وتعلمته بالصدفة، أتعرفون هذا الشيء، أيها الجلادون؟ انه الحقد.. ومن حقدي وحقد الملايين سوف نهدم سجونكم، سنهدم سراديبكم، لن نبقي سجناً واحداً يقف على تلك الأرض الممتدة من الشاطىء الشرقي للمتوسط، حتى أعماق الصحراء، سنهدم السجون بأيدينا، لا بألسنتنا كما كان يفعل الكثيرون، كانوا يهدمون السجون بألسنتهم ثم يرممونها مرة بعد اخرى، ويفتحون فيها انفاقاً جديدةً، ويضيفون لها دهاليز جديدة لكي تستقبل الأفواج الجديدة. خذوني هذه المرة، ولكن لن تأخذوا إلا جسداً ميتاً، اما ما حاولت ان أنقذه فأنتم الذين انقذتموه!

* * *

لما اعطاني عبد الغفور الأوراق، طويتها بعد ان القيت عليها نظرة سريعة، ماتت في نفسي رغبة الكتابة.. اذا اتيح لي ان اكتب، فسوف افعل، ولكن يبدو أن الوقت الآن اصبح متأخراً.. وكلمات الأرض كلها لن تستطيع انقاذ سجين يتعذب!

سألت عبد الغفور:

ـ هل رأيت اختي؟ هل قالت لك شيئاً؟.

كان حزيناً وهو يقول:

ـ رأيتها، قالت أتمنى ان يبقى رجب في فرنسا، ولكن يبدو ان بقاءه سيكلفنا غالياً.

ـ وهل طلبت منك ان اعود؟

ـ لا.

ـ وحامد؟

ـ قال لي ليبق حتى يشفى، ليبق أطول فترة، ماذا يريد ان يفعل هنا، في بلاد السراديب؟

ـ وغير ذلك؟

ـ كانت اختك حزينة، ولما ودعتني بكت.

ـ سأعود الأربعاء القادم، سأعود على أشيلوس!

* * *

غداً أعود. في الحادية عشرة تقلع الباخرة، وأية باخرة؟ أشيلوس مرة اخرى. الصدفة؟ الرغبة المبهمة؟ الشعور بالألفة الحاقدة؟ شيء ما دفعني لأن اؤجل السفر خمسة ايام من اجل ان اعود على اشيلوس.

لن اشتمها، لن أقول عنها، يا اشيلوس الزانية، يا آكلة الابناء. فعلى ظهرها لم يمت احد، لم اسمع طوال ثمانية ايام ان احداً مات. افرغت كل من وما في جوفها في الموانىء، وغداً تعود، لتتوقف في الموانىء مرة اخرى، وتقذف ما في جوفها، حتى اذا جاء ميناؤ ها الاخير، حملت حقيبتي ونزلت.

تعبت هذا الصباح، انتهيت من صنع غلاف داخلي للحقيبة، سأضع الأوراق بين الغلافين حتى لا يكتشفها احد، اذا غرقت اشيلوس ذهبت معها الأوراق الى قاع البحر، وظلت راقدة هناك حتى تتفتت أو تنهشها الأسماك. لن تراها عين زجاجية، ولن تلمسها أصابع الشمع، واذا لم تغرق أشيلوس، ووصلت ميناءها الاخير، سأحمل الحقيبة بيد ثابتة وأنزل ، سأرمي الحقيبة في وجوههم وأنظر اليهم تلك النظرات الغاضبة الواثقة، وأقول بتحدٍ وهم يسألونني عما أحمل:

ـ اليكم الحقيبة فتشوها!

وسأبقى ثابتاً، فأخرج من الميناء وأدق الباب والضحكة تملأ وجهي، حتى اذا رأيت الصغار قبلتهم بطريقة تختلف عن الطريقة التي قبلتهم بها قبل ثلاثة شهور. أعود اليهم الآن بالهدايا والضحكات والأمل. أقول عدت. كان ممكناً أن أبقى، فكرت كثيراً بالبقاء، ولكن ها أنذا أعود. لم يدفعني أحد للعودة، عدت لأني لم أستطع أن أبقى، ويسألني الصغار، يتراكضون حولي، ينظرون الي، واحملهم واحداً واحداً، وأقبلهم وأنا أضحك، حتى اذا تعبوا أو ملوا اخرجت لهم الهدايا، وقفزوا مرة اخرى، كل واحد بيده هديته، يضعها قريباً من صدره ويتقدم ليرى هدية الآخرين، ثم يتبادلون الهدايا ليختبروها، ثم يسترجعون هداياهم وهم يضحكون.

عندما يهدأ الصغار،سأنظر في عيني أنيسة طويلاً واضحك من اللهفة والرغبة والشوق. لقد عدت يا أنيسة، عدت وحدي. لا أريد من احد ان يدفع ثمن

حريتي الزائفة! قرأت يا انيسة الأوراق بسرعة، وكتبت أوراقاً مثلها. والآن.. اتعرفين اين وضعت الأوراق كلها؟ انها معي، ولكن لن تعرفي مكانها، وتنظر اليَّ بتساؤل، حتى اذا نظرت للحقيبة والثياب ولم تر شيئاً، قمت مثل قط، لأنتزع الغلاف بخشونة واستخرج الثروة الزائفة!

بمقدار ما حرقت من الأوراق، كما قالت انيسة وهي تكتب اليَّ، فقد كنت أتلوى من الألم، خلال الشهور الثلاثة حين كنت مضطراً لتمزيق ورقة. اشعر بالخوف يا انيسة، كتبت، كتبت دون وعي. وربما لو قرأت ما كتبته في وقت آخر لحقدت على نفسي كثيراً، لأني لم أحرق هذا الهراء.. ولكنني الآن رجل مختلف اشعر بنهايتي اقتربت، لم يقل لي أحد هذا، لكني قرأته في عيون الاطباء. كانت طريقتهم بالحديث توحي بهذا الخوف. قالوا كلماتهم ببطء: «لا نريد أن نخلق في نفسك وهماً كاذباً.. انت مريض ومرضك صعب لكن لا خطورة على حياتك، في حالة واحدة: اذا تقيدت بالنظام الذي نقترحه عليك»، والنظام يا انيسة لا يستطيع احد ان يتقيد به: الراحة، الهدوء، الاكل الجيد، البعد عن كل الانفعالات الحادة، المفرحة منها والمحزنة». هذه بداية القائمة، لم أتركهم يكملونها بحرية، قاطعتهم أكثر من مرة، ولكنهم حرصاً على القيام بالواجب، حتى اللحظة الاخيرة، الزموني ان اسمع كل شيء. لا أتذكر، ولا حاجة بي لأن أتذكر.. قررت أن أعيش الأيام القادمة بطريقتي الخاصة، وبعد ذلك ليأت الطوفان!

سأدفع اليك الأوراق يا انيسة لتقرأيها سأتركك وحدك، لن أتطلع الى عينيك، ولن أسألك بعد ذلك، ماذا سأفعل بالأوراق؟ أأحرقها كما فعلت في مرات سابقة؟ ثقي اني لا ادري. الشيء الوحيد الذي يسيطر عليَّ الآن أن أقول بضع كلمات قبل ان انتهي، وكما قلت لك في رسالتي مع عبد الغفور، لا يمكن للانسان أن يكتب كل شيء، فعذاب الكلمة أقسى من أن يتحمله انسان بمفرده، ولذلك فكّرت بتلك الطريقة المجنونة، ان يتكلم عدد من الناس، في وقت واحد، وبأصوات مختلفة، وبعد ان يتكلموا، دون رابط، دون نظام، ليكن أي شيء.. هل ما قالوه رواية أم هذيان.. لا يهم.

حامد لم يكتب لي شيئاً، سوى كلمة كبيرة في منتصف صفحة بيضاء: كتب: الكلمة آخر سلاح يمكن أن الجأ إليه.

وعادل.. ماذا تتصورين ان عادل كتب اليَّ؟ كتب رسالة قصيرة، قال فيها:

انه لم يسمع بقائد انتصر بالكلمة. . السيف وحده هو الذي يحقق النصر. هكذ قال لهم معلم التاريخ، عندما حاول أن يسأله بمكر لكي يستعين باجابته في الكتابة اليَّ.

وأرفق بالرسالة صورة قال انه استوحاها من التاريخ. صورة غزال وذئب، وأمامهما ولد صغير يحتضن قطة.

ماذا يريد عادل ان يقول لي؟ فكرت طويلاً في الصورة، بالافكار التي دفعته لأن يصورها، لكن لم أصل الى اية نتيجة، سوف أخلو به وأسأله، الآن لا أستطيع ان استنتج فكرة محددة، صحيح انه مرت في ذهني مجموعة تخيلات، لكن اياً منها لم يثبت. ربما كان الذئب الجلاد، والغزال الضحية، ولكن ما معنى الطفل الصغير والقطة؟ واية علاقة بين المشهدين؟ فكرت ان الذئب قوي والغزال ضعيف، والصورة ترمز الى القوة بشكل ما، لكن ما علاقة الصغير والقطة؟ ولم أصل الى نتيجة ايضاً. حاولت تذكر اية دروس في التاريخ مقررة على عادل، وما يمكن ان يوحي له بالفكرة، لكن لم أصل.

انت يا انيسة كتبت. كتبت اكثر مما قدرت واكثر مما ينبغي. فتحت لي جروحاً كانت قد انطفأت منذ وقت طويل. استغربت كيف تتذكرين حوادث، تبدو لي صغيرة متوارية، بحيث يعجز الانسان عن تذكرها، كنت اكبر مني، تتذكرين احسن مني، ومع ذلك ، فإن القضايا التي تشيرين اليها لا تثبت في ذاكرة الانسان اكثر من الزمن الذي يستغرق حصولها. كم مرة عددت في حياتي الى المائة؟ هل اتذكر؟ كم مرة اغتسلت هل أتذكر؟ حتى لو حاولت ان اعيد مثل هذه الأمور الى احتمالات رياضية بحتة فإنني لن أصل.

من الأفكار التي تحدثت عنها يا انيسة سأكتب ذات يوم رواية اذا قدر لي أن أعيش، لا أعرف بعد ماذا سيكون موضوعها، ولكن الأوراق التي احملها معي تكفي. وصلت الى افكار محددة، لكن كما قال لي حامد، وكما قال عادل الحكيم، ما فائدة الكلمة؟ من سيقرأها؟ حتى ولو قرئت فما تأثيرها؟

في لحظات معينة، وكثيرة، تبدو لي الكلمات مثل أوراق الشجر في بداية الشتاء: مصفرة ، ضعيفة، حتى اذا صفعتها الريح تطايرت ثم ديست بالأقدام. لم تعد الكلمة كائناً حياً قادراً على ان يفعل شيئاً. . والآن وأنا أعود استغرب تلك اللحظات المرعبة التي تدفعني بقوة لأن اكتب، اتصور ان الكتابة كفارة. . ولكن. .

سأصمت.. سأضع الأوراق في مكانها، وسأعود الى الـوطن.. انتظر ان يقبضوا عليَّ، ان يعذبوني، ان يقتلوني بالرصاص.. لم يعد الأمر يهمني، وأعتقد انه سيكون شرف لي لو فعلوا شيئاً مما أتصوره.. ولكنهم كثيراً ما يخطئون، انهم لا يفعلون ما ينبغي أن يفعل، وكل ما أخشاه ان اتحول الى جيفة في الوطن.. جيفة ينفر منها كل الناس ، اذا رآني الصغار من بعيد قالوا: جاسوس. اذا جلست في مقهى، قال الكبار وهم يديرون لي ظهورهم: انظروا.. الرجل الاصفر الوجه، الذي يجلس وراءنا، خائن.. تصوروا الخيانة لونها اصفر، وتبـدو على الـوجوه بسرعة! أريد أن أكفر بشكل ما يا أنيسة.. سأتحداهم.. كل ما أريده منك أن تصبحي لي اكثر من أخت، ان تصبحي اماً.. تماماً مثل أمي.. اتتذكرين كيف كانت!

وداعاً يا أصدقائي، وداعاً يا احبتي. وأنت يا أمي أودعك الآن، وأغفري لي، وبصوت يمزقه الاسى أسألك: هل يمكن ليديك ان تستقبلا رجلاً سقط ويحاول من جديد، حتى بعد سقوطه، ان يتطهّر ؟

٦

لو كان رجب حياً لكتب لكم رواية أو شيئاً آخر تستمتعون وانتم تقرأونه، لكن رجب رحل، رحل منذ وقت بعيد، ولا أجد الآن تكريماً لذكراه إلا أن أهرب الأوراق التي عاد بها الى وراء الحدود وانشرها كما هي.

لو كان حياً لغضب كثيراً مما أفعله، أما وانه اصبح تحت التراب، فأعتقد ان بعض الكلمات يمكن ان تفعل شيئاً، رغم أنه أوصاني بحرقها. ما زلت اتذكر تلك اللحظة المجنونة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري الآن، تماماً الآن:

بعد ان عاد، ظل ثلاثة أيام. انها الأيام الوحيدة التي رأيت فيها رجب يعود طفلاً. فبعد ان زال الشحوب الذي كان يبدو واضحاً في وجهه، ربما من تأثير التعب، بدأ يقرأ «مذكرات بيت الموتى» وقد الح عليَّ كثيراً ان اقرأه، واشترى كمية من الأوراق وقلماً جديداً، وقال انه سيبدأ الكتابة حالما ينتهي من قراءة الرواية.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة طاووس، الريشة التي كانت بداخل القرآن الذي تركه أبي، ولا أعرف كيف امتدت يد رجب، والتقطتها، وظل اثناء القراءة يداعب بها وجهه، حتى اذا انتهى من فصل وضعها حيث وصل وطوى الكتاب، وغاب في أفكاره.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة الطاووس، ولكن الريشة لم تتحرك، لم تغادر الصفحة الثامنة والتسعين.. جاءوا في ذلك الوقت، عند الغروب. لم نكن نتوقع مجيئهم في مثل هذه الساعة، لكنهم كانوا واثقين بحيث انهم دقوا الباب بعنف، وصرخوا..

كان رجب يلبس منامته باستمرار تحت بنطاله، لما رآهم يدخلون، ظل جالساً وابتسامة شجاعة على وجهه، قال لهم بتحدٍ:

ـ لقد تأخرتم ، تأخرتم كثيراً!

انتزع احدهم الكتاب، تطلع اليه بقرف ثم رماه على الطاولة، التقطه رجب ووضع ريشة الطاووس في نفس الصفحة التي وصل اليها، ناولني الكتاب وسألهم:

ـ هل آخذ شيئاً معي؟ أقصد اقامتي هذه المرة طويلة أم قصيرة؟

قال له واحد لم أر وجهه، لأنه كان يقف وراء رئيس المفرزة:

ـ الأفضل ان تأخذ ما تحتاج اليه!

قال رجب وهو ينظر اليَّ ويبتسم:

ـ لن آخذ شيئاً، لن احتاج الى شيء!

وساروا. مشى واحد امامه، وأثنان وراءه. ورجب مشى بثقة وجسارة، قبل أن يصل الباب التقط ليلى التي تقف امامه وتضحك، حملها الى صدره، وسمعته يقول لها:

ـ هؤلاء هم الوحوش الذين حدثتك عنهم الليلة الفائتة، اتتذكرين؟

وتلقى بظهره دفعة قوية كادت توقعه، استند الى الجدار بيد وظل يحمل ليلى باليد الأخرى، وقبل أن ينزلها على الأرض، قال بصوت عالٍ:

ـ انظري اليهم جيداً، لا تضحكي لهم ابداً يا ليلى!

وبكت ليلى، كان بكاءاً حاراً خائفاً، ولما لم استطع ان أوقف بكاءها بكيت معها..

ظل الباب بعد خروجهم مفتوحاً، حتى بعد ان غادروا بفترة طويلة، ظل لباب مفتوحاً. لم يكن احد منا يملك القدرة او الرغبة لأن يفعل شيئاً. جاء عادل عد أن أخذوا رجب بقليل، ولما رآني ابكي أنا وليلى صرخ من الألم:

ـ من مات يا أمي؟

وجاء حامد بعد الغروب بساعة، وبمجرد أن رآني ولم ير رجب احس. قال يسأل عادل:

ـ هل أخذوه؟

وهز عادل رأسه دون ان يجيب!

وغاب رجب، وحتى الآن لا احد منا يعرف ماذا فعلوا به، ماذا سألوه؟ بقي سجيناً ثلاثة اسابيع ثم جاء!

أتذكر تلك اللحظة المجنونة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري، كأنها تقع الآن، تماماً الآن!

دقوا باب البيت، في الليل المتأخر، دقوه عدة مرات، ثم سمعنا هدير سيارة، كان الهدير قريباً صاخباً في البداية، ثم اخذ يبتعد حتى غاب.

لما فتح حامد الباب، رأى خيالاً أسود على العتبة، صرخ من الدهشة والخوف ثم امتدت يده الخائفة المرتجفة، وكنت قد اقتربت منه، الى الخيال الاسود تحسسه، كان رجب، كان يلهث! كانت انفاسه قصيرة خابية، حتى ظننت انه فقد وعيه. حملناه الى فراشة، نزعنا ملابسه وبدأنا نتحدث معه. كان يسمع حديثنا، ويجيب اجابات قصيرة غامضة، اما يداه فقد وضعهما فوق عينيه، وكأنه يخاف وهج النور!

الجسد الممدد على السرير، الذي بدا شديد الهزال والشحوب، هل هو رجب؟ كنت أفكر، لكن لما سمعت صوته بكيت، دفنت رأسي على طرف السرير وبكيت!

ولما رفعت رأسي مرة اخرى لأراه عرفت الحقيقة كلها؟ لقد فقد رجب بصره. كانت عيناه ميتتين، تنظران ببلاهة، تدوران بدون معنى، ثم قال تلك الكلمة المرعبة، قالها بهدوء مقدس:

- اعطني يدك يا انيسة.. اعطني يدك لأني لم أعد أرى.

وصمت.

حاولت في اليوم الثاني أن اتحدث معه، ولكن لم أظفر بجملة كاملة، كان يردد كلمات، مجرد كلمات، وأغلب الاحيان، لا رابط بينها، وليست ذات معنى. اما الأكل الذي حضرته له فلم يستطع ان يأكل منه إلا القليل.

وفي اليوم الرابع، عند الظهر تماماً، مات رجب.

كيف حصل ذلك؟ لماذا؟ حتى هذه اللحظة لا أدري.

كان في صباح ذلك اليوم اكثر حيوية، وقد طفت على وجهه ابتسامة، اما رغبته في ان ينهض فقد اقنعته ان يؤجلها الى اليوم التالي.

ولما طلب من ليلى ان تجلس الى جانبه رفعتها الى السرير وجعلتها تقبله، ثم اجلستها الى جانبه. بدأت احس بالتفاؤل، وقدرت ان صحته لن تلبث ان تتحسن، اما الكلمة التي قالها دون أن أسأله، ودون ان نتحدث، فهي:

- احرقي الأوراق!

قلت له اشجعه:

- اذا كانت الأوراق تضايقك يا رجب، فيجب ان تحرقها انت، كما كنت تفعل من قبل.

وردد بانفعال:

- احرقيها.. احرقيها، لا أريد أن يقرأها احد.

ووعدته، دون حماس، ان افعل، وبدأت أحدثه كيف اني استطيع البقاء طوال عمري الى جانبه، لكي اكتب ما يمليه عليَّ، وأننا سنفعل اشياء كثيرة.

كان يهز رأسه بحزن، ولا يتكلم، وفجأة رأيت وجهه يعتكر، كأن ألماً حاداً يتلوى في داخله. انزلت ليلى عن السرير، ودفعتها خارج الغرفة، وظللت واقفة الى جانبه.

اتذكر تلك اللحظة المجنونة، وكأنها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماماً الآن.

تقلص وجهه، ثقلت انفاسه، اصابه شحوب شديد، ثم فجأة هز رأسه بقرف متألم.. وانتهى! اتذكر تلك اللحظة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماماً الآن.

وبعد ذلك لا أتذكر شيئاً.

في الأسبوع الثاني لوفاة رجب اخذوا حامد. منذ ذلك الوقت اخذوه، وحتى الآن انقضت سنة وأربعة شهور، وحامد وراء الجدران، وكل ما استطعت أن أعرفه، انهم اعتبروه مسؤولاً عن كلمات نشرت في صحيفة اجنبية، وهذه الكلمات تقول ان السلطات هي التي قتلت رجب، بعد ان فقد بصره من التعذيب.

انا امرأة خاطئة ، الخطيئة ولدت معي وسرت في دمي، ويبدو انها سترافقني حتى آخر أيام حياتي. لا أقول هذه الكلمات الآن لأعـذب نفسي، لأكفر عن خطايا، لا. . أقولها وأنا متأكدة تماماً اني خاطئة.

قبل أيام رأيت عادل يجمع الزجاجات الفارغة في البيت، تركته يفعل لأرى ماذا يريد أن يصنع بها، ولشدة ما عجبت، عندما رأيته يملؤها بالزيت والبنزين، انتزعتها بقوة، وكدت أضربه، لولا أنه بكى وقال لي:

ـ أريد أن أهدم السجن وأخرج أبي.

لا أعرف، هل أخطأت عندما منعت عادل؟

اعرف أني أخطأت من قبل، وخطاياي تلك لا أغفرها لنفسي أبداً.

عملت كل شيء لكي يخرج رجب من السجن، كانت خطيئتي الكبـرى والأولى ، ثم حين فكرت ان يعود، بعد ان قضى ثلاثة شهور في فرنسا، ان بكائي أمام عبد الغفور كان أقوى دافع حمل رجب على العودة. . وعاد وقتلوه.

لكن من قتله غيري؟ لو ظل هناك لما امتدت اليه ايديهم، ولفعل اشياء كثيرة تزعجهم، ولكن وأنا أزور حسين عبد الجليل، ثم لما بكيت امام عبد الغفور، انتزعته، لكي أقتله. ولم تتوقف خطيئتي عند رجب، لأني لمت حامد كثيراً، بعد ان سمعته يتحدث بصوت عالٍ وأمام عدد كبير من الناس عن مقتله. قلت له في تلك الامسية، بعد ان ذهب الرجال:

ـ اما آن لنا أن نستريح يا حامد. .؟ ألا نترك رجب يستريح في قبره.

سألني بغضب:

ـ ماذا تريدين أن أفعل؟

ـ لا تقل انهم قتلوه!

ـ ومن قتله غيرهم؟

ـ رجب انتهى، ويجب ان لا تقول شيئاً الآن.

ولم يتوقف حامد، بدأ يلعب لعبة رجب ذاتها، ولكن بشكل غامض ومحير. لم يتركوه طويلاً. . اخذوه. . منذ سنة وأربعة شهور أخذوه، ولم يسمحوا لي أن أراه

إلا قبل شهور.. كان يضحك وهو يسألني عن الصغار، وطلب مني بإلحاح أن لا آتي في المرة الثانية إلا وليلى معي!

والآن.. لا أحاول أن أمنع عادل فقط، وإنما أردت أن أضربه.. هل أخطىء مرة اخرى وأنا أمنعه..؟

قرأت أوراق رجب، بكيت كثيراً لما قرأتها، وبكيت اكثر لأني لم أستطع ان اكون له اما كما أراد.. ولا أعرف الآن، هل أخطىء اذا تركتها تسافرخارج الحدود لتنشر؟ لو ظل رجب حياً لغضب، انا متأكدة من ذلك، فقد طلب مني ان أحرقها، ولم أفعل، ولأني أتركها الآن تسافر، ليقرأها كل الناس، رغم كل ما فيها من أخطاء وصرخات، ولا أعتقد أن رجب يرضى عنها أو يريدها.. لكن كما قلت لكم.. انا امرأة خاطئة.. وأريد أن أتبع طريقة رجب ذاتها: ان ادفع الأمور الى نهاياتها... لعل شيئاً بعد ذلك يقع.

ربيع ١٩٧٢

انتهت